

مركز جيل البحث العلمي

مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية



مجلة علمية دولية محكمة تصدر شهريا عن مركز جيل البحث العلمي

Lebanon – Tripoli: Branche P.O. Box Abou Samra - www.jilrc.com - social@journals.jilrc.com



ISSN 2311-5181

العام السابع - العدد 68 - أكتوبر 2020

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المشرفة العامة / أ.د. سرور طالبي

المؤسس ورئيس التحرير: د. جمال بلبكاي

www.jilrc.com - social@journals.jilrc.com

التعريف بالمجلة:

مجلة علمية دولية محكمة ومفهرسة تصدر شهريا عن مركز جيل البحث العلمي تعنى بالدراسات الإنسانية والاجتماعية، بإشراف هيئة تحرير مشكلة من أساتذة وباحثين وهيئة علمية تتألف من نخبة من الباحثين وهيئة تحكيم تتشكل دوريا في كل عدد.

اهتمامات المجلة وأبعادها:

مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية عبارة عن مجلة متعددة التخصصات، تستهدف نشر المقالات ذات القيمة العلمية العالية في مختلف مجالات العلوم الإنسانية والاجتماعية.

تعرض المجلة جميع مقالاتها للعموم عبر مواقع مركز جيل البحث العلمي، بهدف المساهمة في إثراء موضوعات البحث العلمي.

مجالات النشر بالمجلة:

تنشر المجلة الأبحاث في المجالات التالية: علم النفس وعلوم التربية والأرطوفونيا، علم الاجتماع، الفلسفة التاريخ، علم المكتبات والتوثيق، علوم الإعلام والاتصال، علم الآثار.

تنشر مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية البحوث العلمية الأصيلة للباحثين في هذه التخصصات كافة مكتوبة باللغة العربية أو الفرنسية أو الإنجليزية.

هيئة التحرير:

- أ.د. عاصم شحادة علي (الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا)
أ.د. علي صباغ (جامعة قسنطينة 2، الجزائر)
د. بوطي محمد نورالدين (المدرسة العليا للأساتذة، القبة، الجزائر)
د. سامية ابريغم (جامعة العربي بن مهيدي، أم البواقي، الجزائر)
د. يزيد شويعل (جامعة المدية، الجزائر)

رئيس اللجنة العلمية: د. صونيا عيواج (جامعة باتنة 1، الجزائر)

اللجنة العلمية:

- د. بالأموشي عبد الرزاق (جامعة الوادي، الجزائر)
د. بن الأخضر محمد (جامعة زيان عاشور الجلفة، الجزائر)
د. جاب الله يوسف (جامعة المدية، الجزائر)
د. زين العابدين عبد الحفيظ (جامعة خميس مليانة، الجزائر)
د. سامية شينار (جامعة باتنة 1، الجزائر)
د. عبد الله ملوكي (جامعة سطيف 2، الجزائر)
د. علاء المختار (جامعة الجلفة، الجزائر)
د. قاسمي وفاء (جامعة باجي مختار، عنابة، الجزائر)
د. نجوى نايف عبد النبي شكوكاني (الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا)

أعضاء اللجنة التحكيمية الاستشارية لهذا العدد:

- أ.د. خالد محمد عبد الفتاح أبو شعيرة (جامعة حائل، المملكة العربية السعودية).
د. إخلص محمد عبد الرحمن (جامعة الجزيرة، السودان).
د. بلمداني نوال (جامعة معسكر، الجزائر).
د. حسن زربية (جامعة قفصة، تونس).
د. سماح بلعيد (جامعة الشاذلي بن جديد الطارف، الجزائر)
د. عبد القادر الجبارين (جامعة الخليل فلسطين).
د. علي سلطاني العاتري (جامعة تبسة، الجزائر).
د. مزاراة نعيمة (جامعة أبو القاسم سعد الله، الجزائر 2)
د. نوري محمد أحمد شقلايو (جامعة الزاوية، ليبيا).
أ.م. علاء كامل صالح العيساوي (جامعة البصرة، العراق).

التدقيق اللغوي:

- أ.م.د. ميعاد جاسم السراي (الجامعة المستنصرية، العراق).
د. عبلة حسن (جامعة لينكولن، نبراسكا، الولايات المتحدة الأمريكية).
أ. وليد الشموري (جامعة المسيلة، الجزائر).

شروط النشر



تقبل المجلة الأبحاث والمقالات التي تلتزم الموضوعية والمنهجية، وتتوافر فيها الأصالة العلمية والدقة والجدية وتحترم قواعد النشر التالية :

- أن يكون البحث المقدم ضمن الموضوعات التي تعنى المجلة بنشرها.
- ألا يكون البحث قد نشر أو قدم للنشر لأي مجلة، أو مؤتمر في الوقت نفسه، ويتحمل الباحث كامل المسؤولية في حال اكتشاف بأن مساهمته منشورة أو معروضة للنشر.
- أن تحتوي الصفحة الأولى من البحث على:
 - عنوان البحث باللغة العربية والإنجليزية.
 - اسم الباحث ودرجته العلميّة، والجامعة التي ينتمي إليها، باللغة العربية والإنجليزية.
 - البريد الإلكتروني للباحث.
 - ملخّص للدراسة في حدود 150 كلمة وبحجم خط 12، باللغة العربية والإنجليزية.
 - الكلمات المفتاحية بعد الملخص.
- أن تكون البحوث المقدمة بإحدى اللغات التالية: العربية، الفرنسية والإنجليزية.
- أن لا يزيد عدد صفحات البحث على (20) صفحة بما في ذلك الأشكال والرسومات والمراجع والجداول والملاحق.
- أن يكون البحث خالياً من الأخطاء اللغوية والنحوية والإملائية.
- أن يلتزم الباحث بالخطوط وأحجامها على النحو الآتي:
 - اللغة العربية: نوع الخط (Traditional Arabic) وحجم الخط (16) في المتن، وفي الهامش نفس الخط مع حجم (12).
 - اللغة الأجنبية: نوع الخط (Times New Roman) وحجم الخط (14) في المتن، وفي الهامش نفس الخط مع حجم (10).
 - تكتب العناوين الرئيسية والفرعية للفقرات بحجم 16 نقطة مثلها مثل النص الرئيسي لكن مع تضخيم الخط.
- أن تكتب الحواشي بشكل نظامي حسب شروط برنامج Microsoft Word في نهاية كل صفحة.
- أن يرفق صاحب البحث تعريفا مختصرا بنفسه ونشاطه العلمي والثقافي.
- عند إرسال الباحث لمشاركته عبر البريد الإلكتروني، سيستقبل مباشرة رسالة إشعار بذلك .
- تخضع كل الأبحاث المقدمة للمجلة للقراءة والتحكيم من قبل لجنة مختصة ويلقى البحث القبول النهائي بعد أن يجري الباحث التعديلات التي يطلبها المحكمون.
- لا تلتزم المجلة بنشر كل ما يرسل إليها .

ترسل المساهمات بصيغة الكترونية حصراً على عنوان المجلة:

social@journals.jilrc.com

الفهرس

الصفحة

- 7 • الافتتاحية
- 9 • اضطراب كرب ما بعد الصدمة وعلاقته ببعض المتغيرات، انفجار مرفأ بيروت 4 آب 2020: دراسة ميدانية لدى عينة من سكان مناطق بيروت المتضررة، ليال عبد السلام الرفاعي/الجامعة اللبنانية، لبنان - هلكا عمر علاء الدين/جامعة بيروت العربية، لبنان.
- 33 • الارتقاء بمكانة المرأة في الإسلام، منصور محمد أحمد يوسف/جامعة المدينة العالمية، ماليزيا.
- 45 • اجتماعية الفكر عند مالك بن نبي (قراءة في منطلقات وفاعلية المنهج) ناصر هواري./ جامعة ابن خلدون تيارت، الجزائر.
- 63 • فاعلية استخدام الإنفوغر افيك في تحصيل التلامذة وتنمية مهارات التفكير البصري، علي عفيف تجور/ جامعة دمشق، سورية.
- 87 • الهجرة وتقاطع الصور النمطية: محاولة في فهم ظاهرة الهجرة من منظور علم النفس الاجتماعي، محمد بالراشد/جامعة جندوبة، تونس.
- 101 • دور الأوبئة والجوائح المائية في الهجرات البشرية بالمغرب خلال العصر الحديث، سعيد إدحمان/جامعة القاضي عياض، المغرب
- 113 • المُقدّس بين المجتمعين، التقليدي والحديث، نابتي علي/جامعة سعيدة، الجزائر
- 127 • العائلات التلمسانية ودورها في الحفاظ على وثائق الشيخ ابن يوسف السنوسي المخطوطة، CNRPAH، إبراهيم الهلالي، مركز الدراسات الأندلسية، تلمسان.
- 137 • الجزائر في عيون الرحالة المغاربة خلال الفترة الحديثة "الرحالة أبو القاسم الزياني أنموذجا"، نصيرة كلة/جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر.
- 153 • جدلية العلاقة بين الإعلام التقليدي والإعلام الجديد، ربيعة نبار - كريمة مقاوسي/ جامعة حمه لخضر، الوادي، الجزائر.

الافتتاحية

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على رسوله الكريم :

يسرّ أسرة تحرير مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية أن تضع بين أيدي القراء والباحثين العدد الثامن والستين (68) ، وهذا سعياً منها إلى نشر وتبادل المعارف والاهتمامات العلمية المشتركة في مختلف الدراسات الإنسانية والاجتماعية.

وتسعى المجلة كالعادة إلى نشر الدراسات الأكاديمية الرصينة وتفتح أبوابها أمام الباحثين الجادين من مختلف الأقطار بغية إثراء البحث العلمي..

ويضم هذا العدد عدداً من المقالات المميّزة راجين أن يجد فيه الجميع ما ينفعهم في بحوثهم ودراساتهم الأكاديمية، كما نرجو أن تكون هذه المجلة نبراساً لحل إشكاليات علمية معقدة تربط العديد من المتغيرات النظرية والتطبيقية.

نشكر كل من تعاون معنا في إخراج هذا العدد مقدرين جهودهم العلمية والأدبية، كما نشجع الباحثين والمهتمين بالمساهمة ببحوثهم ضمن الأعداد القادمة.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل،،،

رئيس التحرير / د. جمال بلبكي

**تخلي أسرة تحرير المجلة مسؤوليتها عن أي انتهاك لحقوق الملكية الفكرية
لا تعبر الآراء الواردة في هذا العدد بالضرورة عن رأي إدارة المركز
© جميع الحقوق محفوظة لمركز جيل البحث العلمي**

اضطراب كرب ما بعد الصدمة وعلاقته ببعض المتغيرات

انفجار مرفأ بيروت 4 آب 2020: دراسة ميدانية لدى عينة من سكان مناطق بيروت المتضررة

Post Traumatic Stress Disorder and its relation with some variables Beirut Port Blasy August 4th 2020:
A field study among a sample of the residents of the affected areas of Beirut

د. ليال عبد السلام الرفاعي/الجامعة اللبنانية، لبنان

Beirut Arab University/Dr. Helga, O. Alaeddine

Dr. Layal, A. Al Rifai/Lebanese University

Abstract:

The aim of this study is to examine Post-Traumatic Stress Disorder among a sample of Lebanese people who were affected by Beirut Port explosion on August 4, 2020, and its relationship with the following variables: gender, age, educational level, social status and general health situation. The study followed the descriptive analytical approach in order to verify the formulated hypotheses. The sample of the study was (211), (106) males, and (105) females. The members of the sample were randomly selected from the residents of the areas affected by the Beirut Port explosion, namely: Karantina, Mar Mikhael, Gemayzeh and Ashrafieh. Individual interviews were conducted with every member of the sample to answer the items of the scale used, after calculating its validity and stability coefficient at the Lebanese environment on a sample survey (n = 107). The scale used is the Post Traumatic Stress Disorder scale prepared by Davison (2005). The following statistical methods were used: measures of dispersion and central tendency, "T-test", and analysis of variance test.

The results of the study showed that there were statistically significant differences at the level of the total score of the PTSD scale according to the gender variable in favor of females. There were no statistically significant differences at the level of the total score of the Post-Traumatic Stress Disorder scale according to the age variable (less than 25 years old, between 25-39 years old, between 40-54 years old, 55 years old and above). The results also showed that individuals with elementary education level and below suffer from PTSD more than their more educated peers in other groups (intermediate, secondary, vocational, bachelors, graduate studies). The results also showed that there were no statistically significant differences at the level of the total score of the PTSD scale according to the variable of social status (single, married, divorced, and widowed). At the level of the variable of general health status (suffers from a disease, does not suffer from any disease), statistically significant differences appeared in favor of individuals suffering from a disease before the harbor explosion incident.

Keywords: Post Traumatic Stress Disorder – Beirut Port Explosion.

ملخص:

هدفت هذه الدراسة إلى فحص اضطراب كرب ما بعد الصدمة لدى عينة من اللبنانيين المتضررين من انفجار مرفأ بيروت في 4 آب 2020 ، وعلاقته بالتغيرات الآتية: الجنس، العمر، المستوى التعليمي، الوضع الاجتماعي والحالة الصحية العامة. اتبعت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي بهدف التحقق من الفروض المصاغة. بلغت عينة الدراسة (211)، (106) ذكور و(105) إناث. وقد تم اختيار أفراد العينة بطريقة عشوائية من سكان وأهالي المناطق المتضررة من انفجار مرفأ بيروت وهي: الكرتينا، مار مخايل، الجميزة والأشرفية. حيث تم إجراء مقابلة فردية مع كل فرد من أفراد العينة للإجابة على بنود المقياس المستخدم، وذلك بعد احتساب معامل صدقه وثباته على البيئة اللبنانية على عينة استطلاعية (ن=107). والمقياس المستخدم هو مقياس اضطراب كرب ما بعد الصدمة من إعداد "دافيسون" (2005).

وتم استخدام الأساليب الإحصائية الآتية: مقياس التشتت والتزعة المركزية، اختبار "ت"، واختبار تحليل التباين. وقد بينت نتائج الدراسة وجود فروق دالة إحصائية على مستوى الدرجة الكلية لمقياس اضطراب كرب ما بعد الصدمة تبعاً لمتغير الجنس لصالح الإناث، وظهر عدم وجود فروق دالة إحصائية على مستوى الدرجة الكلية لمقياس اضطراب كرب ما بعد الصدمة تبعاً لمتغير العمر (أقل من 25 سنة، من 25-39 سنة، من 40-54 سنة، 55 سنة وما فوق). كذلك بينت النتائج أن الأفراد ذوي المستوى التعليمي الابتدائي وما دون هم الأكثر معاناة من اضطراب كرب ما بعد الصدمة مقارنةً بأقرانهم الأكثر تعلماً في المجموعات الأخرى (متوسط، ثانوي، مهني، ليسانس، دراسات عليا). كما أظهرت النتائج عدم وجود فروق دالة إحصائية على مستوى الدرجة الكلية لمقياس اضطراب كرب ما بعد الصدمة تبعاً لمتغير الوضع الاجتماعي (أعزب، متزوج، مطلق، أرمل). وعلى مستوى متغير الحالة الصحية العامة (يعاني من مرض ما، لا يعاني من أي مرض)، فقد ظهرت فروق دالة إحصائية لصالح الأفراد الذين يعانون من مرض ما قبل حدث انفجار المرفأ.

الكلمات المفتاحية: اضطراب كرب ما بعد الصدمة – انفجار مرفأ بيروت.

مقدمة:

يرتبط وجود الإنسان مع وجود الضغوط الحياتية والأحداث المؤلمة والخبرات المجهدة، التي تتمثل في الكوارث الطبيعية من زلازل وبراكين وأعاصير وفيضانات، والغير طبيعية مثل الحروب وأعمال العنف والقتل وحوادث السرير والاعتصاب والاختطاف والاعتداء وموت الأحبة، وتُعرف هذه الأحداث بالأحداث الصادمة. وقد تزايدت الأحداث الصادمة في العصر الحديث لتشمل العديد من المجتمعات والبلدان حول العالم، وتفاقت نتائجها الخطيرة، وظهرت تأثيراتها السلبية على الأفراد من الفئات العمرية كافة، وفي مختلف جوانب حياتهم وخاصة الجوانب الصحية والنفسية والاجتماعية. هذه الأحداث قد تتسبب في استجابات تفوق قدرة الأفراد على تحملها ومقاومتها، وتشكل تهديداً لصحتهم ولتوازنهم، وينتج عنها اضطراب ات نفسية، وأكثرها شيوعاً هو اضطراب كرب ما بعد الصدمة PostTraumatic Stress Disorder ويُرمز له ب(PTSD).

يحدث هذا الاضطراب عندما يتعرض الفرد لحدث مؤلم أو صدمة نفسية تتخطى خبراته المألوفة، وتتمثل أعراضه التشخيصية بإعادة التجربة مثل ذكريات الماضي والكوابيس، تجنب المثيرات المرتبطة بالصدمة مثل الأماكن والأشخاص التي تذكر بالحدث الصادم، وزيادة الاستثارة مثل صعوبة النوم أو كثرة النوم، والغضب والتهييج وصعوبة التركيز.

ويكون اضطراب كرب ما بعد الصدمة حاداً إذا استمرت الأعراض لأقل من ثلاثة أشهر، ويكون مزمناً إذا استمرت الأعراض لأكثر من ثلاثة أشهر، ويكون مؤجلاً إذا ظهرت الأعراض بعد ستة أشهر من الحدث الصادم وذلك حسب تصنيف الدليل

الإحصائي والتشخيصي الخامس DSM-5 الصادر عام (2013) عن الجمعية النفسية الأمريكية American Psychological Association.

وتشير الدراسات في هذا المجال إلى أنّ الأحداث الصّادمة شائعة، وتسبّب الصّدمة - في وقت حدوثها أو بعد فترة وجيزة - استجابات إجهاد فيزيولوجي ونفسي شاقّة، تتجاوز قدرة الفرد المصاب على التأقلم معها. وتتفاوت ردود أفعال ما بعد الصّدمة للأفراد، وتتدرج من ذوي الصّمود المرتفع - مع مستوى قليل أو منعدم من الضيق الانفعالي- إلى ذوي الصّمود المتوسط، إلى أولئك الذين يعانون بشكل أساسي ومزمن ومنهك. وإلى جانب هؤلاء الأفراد، فقد تؤثر الصّدمة على المقربين منهم، وعلى الداعمين لهم، وهكذا قد تكون حصيلة الصّدمة واسعة النطاق.¹

أولاً: مشكلة الدراسة

يواجه المواطنون اللبنانيون في هذه الفترة ضغوطاً شديدة وطائرة، ويعيشون حالة من التوتر الحاد والتهديد الخطير بسبب كارثة انفجار مرفأ بيروت الذي حدث في 4 آب 2020، الذي شكل لهم حدثاً مؤلماً وصادماً، زاد من معاناة الشعب اللبناني، وشعوره بالعجز والإحباط وفقدان الأمل، وهذا ما قد يؤثر سلباً على صحة أفراده النفسية. لقد أدى هذا الحدث الأليم إلى تدمير مناطق وأحياء كثيرة في العاصمة بيروت، وتهدم وتضرر الآلاف من البيوت والمحلات والمرافق الحيويّة (مستشفيات، مدارس، مكاتب، شركات، مطاعم، متاحف، أبنية تراثية...).

وأكثر من ذلك، سقوط مئات الضحايا وآلاف الجرحى وعدداً من المفقودين. إلى جانب الخسائر المادية والاقتصادية المهولة في ظل انتشار جائحة كورونا، وانهيار العملة، وارتفاع نسبة الفقر إلى ما يقارب ال 50%، وارتفاع نسبة البطالة بين اللبنانيين. وانطلاقاً من خطورة هذا الحدث الصّادم على أفراد المجتمع اللبناني من حيث ما يشكله من تهديد على السلوك السوي، والعلاقات الاجتماعية، إلى جانب تأثيره السلبي على الحالة الانفعالية وطريقة التفكير والتصرفات، والنظرة إلى الذات والمستقبل، فإنّ الحاجة ماسّة للقيام بدراسات في هذا المجال.

وتتمثل مشكلة الدراسة في التساؤلات الآتية:

- هل توجد فروق دالة إحصائية على مستوى الدّرجة الكليّة لمقياس اضطراب كرب ما بعد الصّدمة تبعاً لمتغير الجنس (ذكور، إناث)؟

- هل توجد فروق دالة إحصائية على مستوى الدّرجة الكليّة لمقياس اضطراب كرب ما بعد الصّدمة تبعاً لمتغير العمر (أقل من 25 سنة، من 25-39 سنة، من 40-54 سنة، 55 سنة وما فوق)؟

- هل توجد فروق دالة إحصائية على مستوى الدّرجة الكليّة لمقياس اضطراب كرب ما بعد الصّدمة تبعاً لمتغير المستوى التعليمي (ابتدائي، متوسط، ثانوي، مهني، ليسانس، دراسات عليا)؟

¹Clinical Practice Guidelines for the Treatment of Posttraumatic Stress Syndrome. American Psychological Association. Guideline Development Panel for the Treatment of Posttraumatic Stress Disorder in Adults Adopted as APAPolicy, February24,2017.Retrievedfrom <https://www.apa.org/ptsd-guideline/ptsd.pdf>, (Last access 31 August 2020).

- هل توجد فروق دالة إحصائية على مستوى الدرجة الكلية لمقياس اضطراب كرب ما بعد الصدمة تبعاً لمتغير الوضع الاجتماعي (أعزب، متزوج، مطلق، أرمل)؟

- هل توجد فروق دالة إحصائية على مستوى الدرجة الكلية لمقياس اضطراب كرب ما بعد الصدمة تبعاً لمتغير الحالة الصحية العامة (يعاني من مرضٍ ما، لا يعاني من أي مرضٍ)؟

ثانياً: أهمية الدراسة

تتمثل أهمية الدراسة في التعرف على الحالة النفسية للمواطنين اللبنانيين بعد تعرّضهم لحدث انفجار مرفأ بيروت، واستكشاف الاضطراب التي من الممكن أن تؤثر سلباً على صحتهم النفسية، وبشكل خاص اضطراب كرب ما بعد الصدمة. وتهتم هذه الدراسة في فحص واستكشاف هذا الاضطراب لدى عينة تشمل كافة فئات المجتمع اللبناني، ومن مختلف الأعمار، والمستويات التعليمية والاجتماعية والاقتصادية.

كذلك، يمكن أن تسهم هذه الدراسة في مساعدة المتخصصين والباحثين النفسيين على وضع البرامج الإرشادية والعلاجية الملائمة للمواطنين الذين تعرّضوا للصدمة، بهدف التخفيف من آثار هذا الحدث الصادم عليهم، وهذا ما قد يساعد في الحد من تأثير هذا الحدث المؤلم على المدى الطويل. إلى جانب ذلك، تشكل هذه الدراسة إضافة علمية قد يستند إليها الباحثون في لبنان لإجراء المزيد من الدراسات في هذا المجال، خاصة في ظل ندرة الدراسات المحلية التي تناولت اضطراب كرب ما بعد الصدمة- وذلك في حدود علم الباحثين.

ثالثاً: أهداف الدراسة

تهدف الدراسة الحالية إلى ما يلي:

- 1- معرفة دلالة الفروق بين متوسطات أفراد العينة على مستوى الجنس (ذكور، اناث) في الإصابة باضطراب كرب ما بعد الصدمة.
- 2- معرفة دلالة الفروق بين متوسطات أفراد العينة على مستوى العمر ((12-18 / 19-24 / 25-31 / 32-48 / 49-51 / و52) في الإصابة باضطراب كرب ما بعد الصدمة.
- 3- معرفة دلالة الفروق بين متوسطات أفراد العينة على مستوى المستوى التعليمي (ابتدائي، متوسط، ثانوي، مهني، جامعي، دراسات عليا) في الإصابة باضطراب كرب ما بعد الصدمة.
- 4- معرفة دلالة الفروق بين متوسطات أفراد العينة على مستوى الوضع الاجتماعي (أعزب، متزوج، مطلق، أرمل) في الإصابة باضطراب كرب ما بعد الصدمة.
- 5- معرفة دلالة الفروق بين متوسطات أفراد العينة على مستوى الحالة الصحية العامة (يعاني من مرضٍ ما، لا يعاني من أي مرضٍ) في الإصابة باضطراب كرب ما بعد الصدمة.

رابعاً: الإطار النظري للدراسة

تشير الصدمة إلى المواقف التي يشعر فيها الفرد بالعجز، مع تعرّضه لخطرٍ شديدٍ. وهي تضمّ الأحداث التي تتضمن الموت والإصابة أو احتمالهما، كما تتضمن أحداثاً شديدة الرعب يصعب تحملها أو مواجهتها كالكوارث الطبيعية (الزلازل والبراكين

والأعاصير والفيضانات)، أو الكوارث التي يصنعها الإنسان (الحروب، أعمال العنف، الاغتصاب)، إلى جانب حوادث السير والجرائم وما قد يخبره الفرد من مشاهد الموت أو الإصابة مما قد يؤدي إلى نشأة اضطراب ضغط ما بعد الصدمة¹.

وتدلّ الإحصاءات أنّ 60-85% من الأشخاص قد تعرّضوا لصدمة خلال حياتهم، ويُقدّر أنّ 6% من الرجال و 10% من النساء يعانون من اضطراب كرب ما بعد الصدمة وتشمل ردود الفعل على الصدمة الأفكار المتطفلة والكوابيس، وتجنب ما يذكر بالصدمة، ولوم الذات والعيش "على حافة الهاوية" والتّهيج ومشاكل التركيز. واضطراب كرب ما بعد الصدمة هو حالة يمكن أن تتطور بعد التعرض لصدمة نفسية، عندما تستمر ردود الفعل هذه لمدة شهر أو أكثر وتسبب ضيقاً شديداً واضطراباً في حياة الفرد².

وفق الدليل الإحصائي والتشخيصي للاضطرابات النفسية الخامسة DSM-5، فإنّ التعرض للصدمة النفسية يمكن أن يحدث بطريقة أو بأكثر: 1- التعرض للخبرة مباشرة، 2- مشاهدتها بشكل شخصي، 3- المعرفة بحدوث الحدث الصادم لأحد أفراد الأسرة أو أحد المقربين، 4- خبرة التعرض المتكرر أو الحاد لتفاصيل شاقّة عن الحدث الصادم. وتشير الصدمة إلى أحداث ساحقة أو خبرات صادمة، تتضمن تهديداً أساسياً للسلامة الجسمية، والانفعالية، أو النفسية، ولطيب الحياة لدى الضحايا ولأحبائهم ولأصدقائهم. ويكون حدوثها مفاجئاً وغير متوقع، وقد يكون لمرة واحدة. وفي بعض الحالات، وبعد الحدث الأول، قد تتكرر إمّا على المدى القصير أو على فترات متقطعة، أو قد تحدث بشكل مستمر ولفترة طويلة بحيث تصبح مزمنة³.

وقد تختلف المواقف الصادمة من شخصٍ إلى آخر، وهناك العديد من الأحداث الضارة أو المهذدة للحياة والتي قد تؤدي إلى حدوث اضطراب كرب ما بعد الصدمة لدى الفرد، مثل: التعرض لحدث سيارة - التعرض لهجوم عنيف - التعرض للتحرش الجنسي أو الاغتصاب - التعرض للعنف وسوء المعاملة أو التنمر - التعرض للاختطاف - مشاهدة مقتل أو إصابة الآخرين - الحرب والأعمال القتالية - التعرض لهجوم إرهابي - التعرض لكارثة طبيعية - التشخيص بمرض خطير - فقدان شخص مقرب في ظروف قاسية - صدمة الولادة⁴.

1- مفهوم وتعريف اضطراب كرب ما بعد الصدمة

تمّ تصنيفه وتوصيفه من قبل الجمعية الأمريكية للطب النفسي American Psychiatric Association، وذلك في أعوام (1980 - 1987 - 1994 - 2000 - 2013) باعتباره اضطراباً نفسياً، يحدث عندما يتعرّض الفرد لحدث مؤلم غير مألوف، بحيث تظهر أعراض جسمية ونفسية محددة له ومرتبطة به.

¹لينا بطيخ، كنان هزيم؛ اضطراب ما بعد الصدمة وعلاقته بالأفكار اللاعقلانية: دراسة تشخيصية على عينة من طلبة جامعة البحث. مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية - سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية، 2018، 40 (2)، 115-142.

²Michigan Medicine, Department of psychiatry, <https://medicine.umich.edu/dept/psychiatry/michigan-psychiatry-resources-covid-19/specific-mental-health-conditions/posttraumatic-stress-disorder-during-covid-1>

³ American Psychological Association, Clinical practice Guideline, for the Treatment of (PTSD), 2017, <https://www.apa.org/ptsd-guideline/ptsd.pdf>

⁴Robin E. Cushing and Kathryn L. Braun, Mind–Body Therapy for Military Veterans with Post-Traumatic Stress Disorder: A Systematic Review, The Journal of Alternative and Complementary Medicine Vol. 24, No. 2, 2018, <https://www.liebertpub.com/doi/abs/10.1089/acm.2017.0176>

إذاً، قد يتطور اضطراب كرب ما بعد الصدمة بعد التعرض لأحداث مرعبة أو مهددة بشكل استثنائي. ويُظهر العديد من الأشخاص صموداً وقدرة على التعافي بعد التعرض للصدمة. وقد يحدث الاضطراب بعد التعرض لحدث صادم مفرد أو بعد التعرض المستمر للصدمة مثل الإساءة الجنسية في الطفولة. والأفراد المصابون باضطراب كرب ما بعد الصدمة هم في خطرٍ متزايدٍ للمعاناة من حالةٍ صحيّةٍ سيئةٍ، تتضمّن اضطراب ات جسميّة الشّكل، وقلبية-تنفسية، وعضلية، وهضمية، ومناعية. كما أنه يرتبط باعتلالات نفسيّة حقيقية، ويزيد من خطر الانتحار، ومن العبء الاقتصادي¹.

2- تصنيف اضطراب كرب ما بعد الصدمة

ظهر مصطلح اضطراب كرب ما بعد الصدمة كتشخيص في النسخة الثالثة من الدليل الإحصائي والتشخيصي للاضطراب ات النفسية عام (1994)، وقد حدثت تغييرات جوهرية في معايير هذا الاضطراب في الطبعة الخامسة من هذا الدليل، فقد تمّت إزالته من فصل "اضطراب ات القلق"، ونقله إلى فصل جديد. إذ يُرد هذا الاضطراب حالياً في الدليل التشخيصي والإحصائي الخامس للاضطراب ات النفسية DSM-5 في فئة الاضطراب ات المتعلقة بالصدمة والإجهاد Trauma and Stressor Related Disorders².

ويتضمّن الدليل التشخيصي والإحصائي للاضطراب ات النفسية - الطبعة الخامسة إضافة نوعين فرعيين: اضطراب كرب ما بعد الصدمة لدى الأطفال الذين تقلّ أعمارهم عن 6 سنوات واضطراب كرب ما بعد الصدمة مع أعراض فصامية واضحة (إما تجارب الشعور بالانفصال عن عقل الفرد أو جسمه، أو تجارب يبدو فيها العالم غير واقعي أو مشوشاً)³.

3- تشخيص اضطراب كرب ما بعد الصدمة

عندما يتم تشخيص اضطراب كرب ما بعد الصدمة لدى فرد ما، فهذا يعني أنّ هذا الفرد قد تعرّض لحدث يشكل تهديداً لحياته أو لحياة الآخرين، وأنّه قد استجاب لهذا الحدث بخوفٍ شديدٍ وعجزٍ. وسيتمّ عرض معايير التشخيص التي وردت في الدليل التشخيصي والإحصائي الخامس للاضطراب ات النفسية DSM-5 الصّادر عام (2013) عن الجمعية النفسيّة الأميركيّة.

هذه المعايير تنطبق على الرّاشدين والمراهقين والأطفال ما فوق السّنة أعوام، وهي كما يلي:

A- التّعرض لاحتمال الموت أو التّهديد بالموت أو لإصابة خطيرة أو العنف الجنسي عبر واحدة أو أكثر من الطّرق الآتية:

1- التّعرض مباشرة للحدث الصّادم.

2- المشاهدة الشّخصيّة للحدث عند حدوثه للآخرين.

¹Bisson, Cosgrove, Lewis & Roberts, consultant clinical psychologist, 2015, <https://www.bmj.com/content/351/bmj.h6161.full.pdf+html>.

²لينا بطيخ، كنان هزيم؛ اضطراب ما بعد الصدمة وعلاقته بالأفكار اللاعقلانية: دراسة تشخيصية على عينة من طلبة جامعة البحث. مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية - سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية، 2018، 40 (2)، ص 122.

³Post traumatic Stress Disorder. American Psychiatric Association, 2013. Retrieved from www.psychiatry.org (Last access 20 August 2020).

- 3- المعرفة بوقوع الحدث الصّادم لأحد أفراد الأسرة أو لأحد الأصدقاء المقربين في حالات الموت أو التّهديد بالموت لأحد أفراد الأسرة أو أحد الأصدقاء المقربين.
- 4- التّعرض المتكرر أو الشّديد للتّفاصيل المؤلمة للحدث الصّادم.
- B- وجود عارض واحد أو أكثر من الأعراض المقتحمة الآتية المرتبطة بالحدث الصّادم والتي تبدأ بعد الحدث الصّادم:
- 1- الذّكريات المؤلمة المتكررة وغير الإرادية عن الحدث الصّادم.
- 2- أحلام مؤلمة متكررة مرتبطة بالحدث الصّادم.
- 3- استجابات تمييزية (ومضات الذّاكرة) بحيث يشعر الفرد أو يتصرف كما لو أنّ الحدث الصّادم يتكرر.
- 4- الإحباط الشّديد أو الطّويل المدى عند التّعرض لمنهآت داخلية أو خارجية ترمز للحدث الصّادم.
- 5- ردود الفعل الفيزيولوجية عند التّعرض لمنهآت داخلية أو خارجية ترمز للحدث الصّادم.
- C- تجنب المحفزات المرتبطة بالحدث الصّادم وتبدأ بعد وقوع الحدث الصّادم ، كما يتضح من واحد أو اثنين مما يلي:
- 1- بذل جهد لتجنب الذّكريات المؤلمة والأفكار أو المشاعر أو ما يرتبط بشكل وثيق بالحدث الصّادم.
- 2- بذل جهد لتجنب عوامل التذكير الخارجية (الأشخاص، الأماكن، الأحاديث، الأنشطة، الأشياء، المواقف) التي تثير الذّكريات المؤلمة والأفكار أو المشاعر أو ما يرتبط بشكل وثيق بالحدث الصّادم.
- D- التّعديلات السّلبية في الإدراك والمزاج المرتبطين بالحدث الصّادم، والتي تبدأ أو تتفاقم بعد وقوع الحدث الصّادم، كما يتضح من واحد أو اثنين مما يلي:
- 1- عدم القدرة على تذكر جانب هام من جوانب الحدث الصّادم.
- 2- معتقدات سلبية ثابتة ومبالغ بها، أو توقعات سلبية ثابتة ومبالغ بها حول الذات والآخرين والعالم.
- 3- إدراكات مشوّهة وثابتة عن سبب أو عواقب الحدث الصّادم، مما يؤدي بالفرد إلى إلقاء اللّوم على نفسه.
- 4- الحالة العاطفية السّلبية المستمرة (الخوف، الرّعب، الغضب، الشّعور بالذّنب والعار).
- 5- تضاؤل الاهتمام أو المشاركة في الأنشطة الهامة.
- 6- الشّعور بالنّفور والانفصال عن الآخرين.
- 7- عدم القدرة على اختبار المشاعر الإيجابية (السّعادة، الرّضا، المحبة).
- E- تغييرات ملحوظة في الاستثارة وردود الفعل المرتبطة بالحدث الصّادم، والتي تبدأ أو تتفاقم بعد وقوع الحدث الصّادم، كما يتضح من واحد أو اثنين مما يلي:
- 1- توتر ونوبات غضب، يتمّ التعبير عنها بالاعتداء اللفظي أو الجسدي اتجاه الأشخاص والأشياء.
- 2- سلوك التّهور أو تدمير الذات.
- 3- التّيقيظ الشّديد.

4- استجابة مبالغ فيها عند الجفلة.

5- صعوبة في التركيز.

6- اضطرابات في النوم.

F- مدة الاضطراب (وجود معايير B, C, D, E لأكثر من شهر).

G- يسبب الاضطراب خللاً إكلينيكياً واضحاً، أو ضعفاً في الأداء في المجالات الاجتماعية والمهنية أو غيرها من مجالات الأداء الهامة الأخرى.

H- لا يُعزى الاضطراب إلى التأثيرات الفيزيولوجية لمادة (مثل الأدوية والكحول)¹، أو حالة طبية أخرى².

4- العوامل المؤثرة في حدوث اضطراب كرب ما بعد الصدمة

هناك مجموعة من العوامل التي تؤثر في ظهور اضطراب كرب ما بعد الصدمة، حيث يختلف تأثيره حسب شدة الصدمة ومدتها، وكيفية إدراك الفرد وتفسيره للحدث الصادم، وخبراته السابقة، وبنية شخصيته، وأيضاً حسب العمر والجنس. إضافة إلى عنصرين أساسيين هما: طبيعة الحدث الصادم، ومعنى هذا الحدث بالنسبة للفرد³.

يهتم العلماء والباحثون بدراسة الأسباب التي تؤدي إلى ظهور هذا الاضطراب لدى بعض الأفراد وعدم ظهوره لدى البعض الآخر. ويركز بعض العلماء على الجينات التي تقوم بدورٍ في خلق ذكريات الخوف، ويركز علماء آخرون على فحص أجزاء من الدماغ مسؤولة عن التعامل مع الخوف والتوتر. وقد ظهر أنه كلما كان الحدث الصادم حاداً، وطويل المدى أو خطيراً، كلما كان الفرد قابلاً لتطوير اضطراب كرب ما بعد الصدمة. إضافة إلى إن الفروق الفردية في جينات محددة وفي مناطق دماغية معينة تقوم بدور في هذا المجال. كما أنّ حوادث الولادة، أو إصابات الرأس، أو وجود تاريخ من المرض النفسي، وعوامل بيئية أخرى قد تعزز من خطر الإصابة بهذا الاضطراب. إلى جانب ذلك، تؤثر العوامل المعرفية والعوامل المرتبطة بالشخصية، مثل التفاؤل، والميل لإدراك التحديات بشكل إيجابي أو سلبي، وتوافر الدعم الاجتماعي، على كيفية توافق الأفراد مع الأحداث الصادمة⁴.

5- النظريات المفسرة لاضطراب كرب ما بعد الصدمة

تتعدد النظريات التي تفسر اضطراب كرب ما بعد الصدمة، وسنعرضها كما يلي:

¹لينا بطيخ، كنان هزيم؛ اضطراب ما بعد الصدمة وعلاقته بالأفكار اللاعقلانية: دراسة تشخيصية على عينة من طلبة جامعة البحث. مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية - سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية، 2018، 40 (2)، ص 122-124.

²أنور الحمادي، الدليل التشخيصي والإحصائي الخامس للاضطرابات العقلية DSM 5، 2014، الطبعة الأولى، بيروت: الدار العربية للعلوم. ص 212-216.

³فؤاد صبيرة؛ ربما سعدي، إيمان بدر، إيمان اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة لدى عينة من إخوة الشهداء: دراسة ميدانية في منطقة جبلة. مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية - سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية، 2017، 39 (5)، ص 217.

⁴Posttraumatic Stress Disorder. Anxiety and Depression Association of America. 8701 Georgia Avenue, Suite 412. Silver Spring, MD 20910. www.adaa.org (Last access 20 August 2020).

النظرية البيولوجية:

تفترض هذه النظرية وجود عوامل وراثية تؤدي إلى حدوث اضطراب ات كرب ما بعد الصدمة. وتستند إلى نتائج مجموعة من الدراسات التي أجريت على التوائم المتطابقة والأخوية، إضافة إلى دراسات أجريت على الجنود بهدف العلاج وأظهرت أن الفرد الذي ينتهي إلى أسرة فيها أفراد مصابين باضطراب ات نفسية، تكون قابليته عالية للإصابة بالأحداث الصدمية. وفي نفس الإطار، يركز الاتجاه البيوكيميائي على العوامل الحيوية الكيميائية، ويفترض أن التعرض لحادث صدمي يؤدي إلى إلحاق الضرر في الغدة الدرقية وإفرازاتها، وزيادة في مستوى الإثارة الفيزيولوجية، وزيادة في نشاط الجهاز العصبي اللاإرادي، إلى جانب ارتفاع مستوى هرمونات الأدرينالين والنورأدرينالين والدوبامين لدى الأفراد المصابين بهذا الاضطراب¹ (مجيد، 2011، ص. 312-314).

النظرية السلوكية:

تؤكد هذه النظرية أن أعراض اضطراب كرب ما بعد الصدمة هي بمثابة استجابات متعلمة عند الفرد الذي يتعرض لمثير معين يمثل مؤشرات خطر قد يحدث له. إذ أن أي مثير ضار للفرد سيتمثل لديه بعدد من المظاهر الانفعالية في صورة أعراض تدل على معاناته من هذا المثير، وقد يعمم الفرد هذا المثير على مثيرات أخرى متشابهة معه في خصائصها وشدها وحدتها بالرغم من اختلافها معه في مصدرها، كما أن استجابته للمثير القديم يمكن تعميمها على المثيرات الجديدة مما يجعله في حالة معاناة متكررة² (عادل، 2017، ص 146).

النظرية المعرفية:

فسرت النظرية المعرفية اضطراب ما بعد الصدمة من خلال نموذج شبكة الذاكرة القائمة على الخوف، أي أن الأحداث الصادمة تهدد افتراضات الفرد السوية حول مفهومه للأمان، بحيث تصبح الحدود بين الأمان والخطر غير واقعية، وهذا ما يقود إلى تكوين بنية للخوف في الذاكرة بعيدة المدى لدى الفرد، الذي سيمرّ بخبرة نقص القدرة على التنبؤ وضعف السيطرة على حياته، وهذان هما السببان في حدوث مستويات عالية من القلق لديه. إذاً، ينشأ اضطراب كرب ما بعد الصدمة حين تصبح الأحداث والمواقف التي كانت آمنة سابقاً مرتبطة بخطر شديد أثناء الصدمة³.

خامساً- الدراسات السابقة

هدفت الدراسة التي قام بها كلٌّ من "خضر، وثابت" (2007) بعنوان "الصدّات النفسية للاحتلال وأثرها على الصّحة النفسيّة للطلبة في قطاع غزة"، إلى التعرف على مستوى الخبرات الصّادمة وأنواعها لدى طلبة الجامعات الفلسطينية في غزة جرّاء الاحتلال وعلاقتها ببعض متغيرات الصّحة النفسيّة مثل كرب ما بعد الصّدمة، والقلق، والاكتئاب. استخدم الباحثان مقياس غزة للخبرات الصّادمة، ومقياس كرب ما بعد الصّدمة لـ"دافيدسون"، ومقياس أعراض القلق والاكتئاب لـ"هوبكنز".

¹سوسن مجيد، اضطرابات الضغوط ما بعد الصدمية التي يعاني منها أعضاء هيئة التدريس في الجامعات العراقية. مجلة الفتح، جامعة بغداد، 2011، ص 312-314.

²عادل سلطان، اضطراب الضغوط التالية للصدمة بعد حرب 2011 وعلاقته ببعض المتغيرات لدى عينة من طلاب جامعة مصراتة. مجلة التربية، كلية التربية، الجامعة الأسمرية الإسلامية، 2017، (3)، ص 146

³سوسن مجيد، المرجع السابق، ص 315.

⁴عادل سلطان، اضطراب الضغوط التالية للصدمة بعد حرب، المرجع السابق ص 147.

وقد طُبِّقت هذه المقاييس على عيّنة من الطلبة (360) منهم (195) من الذكور و(165) من الإناث. وبيّنت النتائج أنّ (51,4%) من الذكور تعرّضوا للصّدمة مقابل (48,6%) من الإناث، وأنّ (56,4%) من الذكور لديهم خبرات صادمة متوسطة، و(34,9%) من الذكور لديهم صدمة شديدة مقابل (24,4%) من الإناث، واتضح أنّ هناك فروق دالة إحصائية لصالح الذكور وتوجد أعراض القلق والاكتئاب للإناث أكثر من الذكور.

هدفت الدّراسة التي قام بها "الخواجه" (2010) بعنوان "الوحدة النفسيّة وعلاقتها باضطراب ضغط ما بعد الصّدمة لدى عيّنة من طلبة كلية التربية بجامعة السلطان قابوس"، إلى التّعرف على علاقة الوحدة النفسيّة باضطراب ضغط ما بعد الصّدمة لدى عيّنة من طلبة كلية التربية في جامعة السلطان قابوس في سلطنة عمان. بلغ عدد العيّنة (298) طالباً وطالبة منهم (138) من الإناث، و(158) من الذكور، وتمّ تطبيق مقياس الشعور بالوحدة النفسيّة ومقياس ضغط ما بعد الصّدمة. وقد أظهرت النتائج وجود ارتباط بين الشّعور بالوحدة النفسيّة واضطراب ضغط ما بعد الصّدمة، ووجود فروق دالة إحصائية بين الذكور والإناث في مستوى الشعور بالوحدة النفسيّة لصالح الإناث، ووجود فروق دالة إحصائية بين الذكور والإناث في مستوى اضطراب ما بعد الصّدمة لصالح الإناث.

وهدفّت الدّراسة التي قامت بها "مجيد" (2011) بعنوان "اضطراب ات الضغوط ما بعد الصدمة التي يعاني منها أعضاء هيئة التدريس في الجامعات العراقية"، إلى التعرف على الضغوط ما بعد الصدمة لأعضاء هيئة التدريس في الجامعات العراقية. أعدّ مقياس لهذا الغرض وتم التأكيد من صلاحية المقياس وثباته، ثم تمّ تطبيق المقياس المكوّن من (60) فقرة على عيّنة مؤلفة من (478) عضو هيئة تدريس. أظهرت النتائج أنّ 68% من أفراد العيّنة يعانون من أعراض الضغوط الصّدمية، و5,4% منهم يعانون من اضطراب ات الضغوط الصّدمية، وأنّ الإناث أكثر معاناة من الذكور، وأنّ الأفراد الذين تعرّضوا لأكثر من خمس مرات للأحداث الصّدمية كانوا أكثر معاناة من الأفراد الذين لم يتعرضوا للأحداث الصّدمية.

وتمثل هدف الدّراسة التي قامت بها "بن التواتي" (2015) بعنوان اضطراب الضغوط التّالية للصدمة لدى المراهقين المتضررين جراء أحداث العنف بولاية غرداية في الجزائر"، في معرفة مستوى اضطراب ما بعد الصّدمة لدى المراهقين المتضررين جراء أحداث العنف بولاية غرداية، ودرجة الاختلاف تبعاً لمتغيرات الجنس والمستوى الاقتصادي والمنحدر السّكني. وتكوّنت عيّنة الدّراسة من (286) طالباً في مرحلة المراهقة (116) ذكور و (152) إناث. واعتمدت الباحثة قائمة الأحداث الصّدمية من إعداد "سامية عرعار"، ومقياس كرب ما بعد الصّدمة ل"دافيدسون"، المترجم من قبل "ثابت". أوضحت النتائج وجود مستوى مرتفع من اضطراب ما بعد الصّدمة لدى أفراد عيّنة الدراسة، وعدم وجود فروق في الاضطراب تبعاً لمتغيّر الجنس ومتغيّر المستوى الاقتصادي، بينما توجد فروق في الاضطراب تبعاً لمتغيّر المنحدر السّكني.

كما هدفت الدّراسة التي قامت بها "بدر" (2016) بعنوان "اضطراب ضغوط ما بعد الصّدمة وعلاقته ببعض المتغيرات لدى عيّنة من أبناء شهداء محافظة طرطوس في مرحلة المراهقة"، إلى كشف وجود اضطراب ضغوط ما بعد الصّدمة لدى عيّنة من أبناء شهداء محافظة طرطوس السّورية في مرحلة المراهقة، ومعرفة انتشار كل مستوى من مستويات الاضطراب (منخفض - متوسط - شديد) لدى العيّنة، ومعرفة ترتيب أبعاد اضطراب ضغوط ما بعد الصّدمة لدى عيّنة الدراسة، ومعرفة مدى ارتباط كلّ من (النوع، المدة المنقضية على الصّدمة، طبيعة عمل الأم، مستوى تعليم الأم، طبيعة السّكن) بمستويات الاضطراب. وبلغت العيّنة (175) مراهقاً ومراهقة (84) من الذكور و(91) من الإناث، تتراوح أعمارهم بين (14-18) عاماً. وتمّ استخدام مقياس "دافيدسون" المترجم للعربية من قبل "ثابت" (2006). وأظهرت نتائج الدراسة وجود اضطراب ضغوط ما بعد الصّدمة لدى أفراد عيّنة الدراسة، كما أنّ درجة الاضطراب لم ترتبط بشكل دالّ مع (النوع، مدة الصّدمة، عمل الأم، وطبيعة السّكن)، لكنه ارتبط بشكل دالّ مع مستوى تعليم الأم المنخفض.

وقام كلٌّ من "صبيرة، وسعدي وبدر" (2017) بدراسة بعنوان "اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة لدى عيّنة من إخوة الشهداء: دراسة ميدانية في منطقة جبلة"، بهدف كشف وجود اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة، ومعرفة الفروق في درجة اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة بين الذكور والإناث، والكشف عن الفروق في درجة الاضطراب تبعاً لمتغيرات (المدة المنقضية على الصدمة، المستوى التعليمي، الحالة الاجتماعية). وقد تمّ استخدام مقياس اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة ل"دافيدسون"، وقام بإعداده للعربية "ثابت" (2006). تمّ تطبيقه في منطقة جبلة السورية، على عيّنة من (69) أخ وأخت للشهداء. وبيّنت النتائج عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية في درجة الاضطراب تبعاً لمتغيري الجنس والمستوى التعليمي لأفراد العيّنة، بينما وُجدت فروق ذات دلالة إحصائية في درجة الاضطراب تبعاً لمتغيري المدة المنقضية على الصدمة وذلك لصالح المدة التي تقلّ عن عام، وتبعاً لمتغير الحالة الاجتماعية للعيّنة وذلك لصالح العازب.

كما هدفت الدراسة التي قامت بها "سعدي" (2017) بعنوان "اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة لدى عيّنة من المراهقين النازحين: دراسة ميدانية في منطقة مصياف"، إلى معرفة مستوى اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة لدى عيّنة من المراهقين النازحين في مراكز الإيواء في منطقة مصياف التابعة لمحافظة حماة السورية، وما هو ترتيب أبعاد الاضطراب لدى عيّنة البحث، بالإضافة إلى الكشف عن الفروق في درجة اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة بين الذكور والإناث، وتبعاً لمتغير نوع السكن (نازح، غير نازح). وتمّ استخدام مقياس اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة ل"دافيدسون"، وقام بإعداده للعربية "ثابت" (2006). تكوّنت عيّنة الدراسة من (50) مراهقاً نازحاً (19 ذكور، و31 إناث)، و(50) مراهق غير نازح. وأشارت النتائج إلى انتشار المستوى المتوسط من اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة لدى عيّنة المراهقين النازحين، في حين لم تظهر النتائج فروقاً دالة إحصائية في درجة الاضطراب بين المراهقين النازحين تبعاً لمتغيري الجنس ومكان السكن (نازح، غير نازح).

بعد الاطلاع على العديد من الدراسات التي أجريت حول اضطراب كرب ما بعد الصدمة، فإنه يمكن صياغة فروض الدراسة الحالية كما يلي:

1. توجد فروق دالة إحصائية على مستوى الدرجة الكلية لمقياس اضطراب كرب ما بعد الصدمة تبعاً لمتغير الجنس (ذكور، إناث).
2. توجد فروق دالة إحصائية على مستوى الدرجة الكلية لمقياس اضطراب كرب ما بعد الصدمة تبعاً لمتغير العمر (أقل من 25 سنة، من 25-39 سنة، من 40-54 سنة، 55 سنة وما فوق).
3. توجد فروق دالة إحصائية على مستوى الدرجة الكلية لمقياس اضطراب كرب ما بعد الصدمة تبعاً لمتغير المستوى التعليمي (ابتدائي، متوسط، ثانوي، مهني، ليسانس، دراسات عليا).
4. توجد فروق دالة إحصائية على مستوى الدرجة الكلية لمقياس اضطراب كرب ما بعد الصدمة تبعاً لمتغير الوضع الاجتماعي (أعزب، متزوج، مطلق، أرمل).
5. توجد فروق دالة إحصائية على مستوى الدرجة الكلية لمقياس اضطراب كرب ما بعد الصدمة تبعاً لمتغير الحالة الصحيّة العامة (يعاني من مرض ما، لا يعاني من أي مرض).

سادساً- منبج الءءارة وإءراءاتها

أ- المنبج المنبع:

تم اسءءءام المنبج الوصفى الءءلى الذى بهءف الى وصف الظاهرة وءءلىها وءفسرها، والءوصول الى اسءءءاءاء علمفة ءسهم فى فهم الظاهرة. وءهءف الءءارة الءالفة الى معرفة وفءص ءأءر ءءءة انفءار مرفأ بفرء الواقعة فى 4 آب 2020 على الءالة الءفسفة للمواءن اللبناىن فى المناءق المنءضرة فى مءفنة بفرء.

ب- ءءوء الءراءة:

الءءء الصاءم: انفءار مرفأ بفرء فى 4 آب 2020.

الءءوء الزمانفة: تم الءطبفر بعء مرور فءرة ءلاءة أسابفع على ءاءءة انفءار مرفأ بفرء فى آب 2020.

الءءوء المكانفة: تم الءطبفر فى مناءق بفرء السكنفة المنءضرة من ءءء انفءار المرفأ وهى: الكرنءفنا، مار مءافل، الءمفزة والأشرففة.

الءءوء البشرفة: عففنة عشوائفة من أهالى وسكان المناءق المنءضرة المنكوبة فى بفرء المذكورة أعلاه من كافة الفءاء العمرفة، والذفن أبءوا اسءءءاءاً للإءابة عن بنوء المقفاس.

الءءوء الموضوعفة: مقفاس اضطراب كرب ما بعء الصءءمة ل"ءاففسون" (2005)، وءرءمة "ءابء" (2006).

ء- عففنة الءراءة:

بهءف ءءقفق أهءاف الءراءة، تم اءءفار طرففة العففنة العشوائفة عبر الءزول الى أرض الواقع المفءانى، وبالءءءفء المناءق الأكءر ءضراً من انفءار مرفأ بفرء من ءفء الءساءر البشرفة والماءفة، وهى مناءق: الكرنءفنا، مار مءافل، الءمفزة والأشرففة. وقء تم ذلك عبر إءراء مقابلة مع كل فرد من أفراد العففنة، وقء بلغ عءءهم (ن=211)، ءفء طلب مناهم الإءابة بصدق وبموضوعفة عن كل عبارة من عباراء المقفاس PTSD.

بففن الءءول رقم (1) ءصاءص العففنة وكفففة ءوزفءها وفق المنءفرءاء الءفموءراففة الءف اعءمءها الءراءة.

جدول رقم (1): خصائص العينة موزعين حسب المتغيرات الديموغرافية المعتمدين في الدراسة (ن=211)

العدد			العدد		
				الجنس	
33	ابتدائي وما دون	المستوى التعليمي	106	ذكور	
29	متوسط		105	اناث	
26	ثانوي		28	أقل من 25 سنة	الفئات العمرية
27	مهني		95	من 25-39 سنة	
61	ليسانس		50	من 40-54 سنة	
35	دراسات عليا		38	أكثر من 55 سنة	
ن=211	68	أعزب	19	موظف قطاع عام	المهنة
	116	متزوج	38	موظف قطاع خاص	
	13	مطلق	55	مهنة حرة	
	14	ارمل	10	عسكري	
	62	أعاني من مرض ما	11	متقاعد	
	149	لا أعاني من اي مرض	14	عامل يومي	
			40	لا أعمل	
			24	ربة منزل	

- أداة الدراسة:

مقياس اضطراب الكرب ما بعد الصدمة PTSD:

من إعداد "دافيدسون" (2005) Davidson والهدف من تطبيقه هو قياس تأثير الخبرات الصادمة على الأفراد. يتكوّن هذا المقياس من 17 بنداً وتنقسم بنوده إلى ثلاثة مجالات فرعية هي:

المجال الأول: استعادة الخبرة الصادمة، يشمل البنود الآتية: 1- 2- 3- 4- 17.

المجال الثاني: تجنب الخبرة الصادمة، يشمل البنود الآتية: 5- 6- 7- 8- 9- 10- 11.

المجال الثالث: الاستثارة، يشمل البنود الآتية: 12- 13- 14- 15- 16.

ويتم حساب الدرجات على مستوى هذا المقياس وفق سلم ليكرت الخماسي، أي من خمسة درجات: من صفر إلى 4 درجات على بدائل الاجابات (أبدأ، نادراً، أحياناً، غالباً، دائماً). وتمّ تقسيم الفئات التصنيفية لدرجات الإصابة على مستوى الدرجة الكلية لمقياس اضطراب كرب ما بعد الصدمة على النحو الآتي:

لا توجد صدمة	من صفر إلى 17
صدمة خفيفة	من 17 إلى 34
صدمة متوسطة	من 34 إلى 51
صدمة شديدة	من 51 إلى 68

- ثبات وصدق المقياس:

* الخصائص السيكومترية للمقياس على مستوى البيئة اللبنانية:

بالرغم من ما يتمتع به المقياس من درجة مرتفعة من الصدق والثبات استناداً إلى نتائج العديد من الدراسات السابقة التي استخدمته كأداة أساسية، اعتمدنا تطبيقه بخطوة أولية على عيّنة من المواطنين اللبنانيين الذين عايشوا حادثة انفجار مرفأ بيروت (ن=107)، في منازلهم المدمرة أو بالقرب منها في مناطق الكرنيتينا، مار مخايل، الجميزة والأشرفية. ومن ثم تم حساب معامل الصدق والثبات للمقياس باتباع الطرق الآتية:

أ- الصدق التمييزي:

يَقصد به صدق المقارنة بين المجموعات الطرفية للمقياس عبر مقارنة درجات الأفراد المرتفعة على مستوى المقياس مع درجات أقرانهم المنخفضة ومن ثم احتساب دلالة الفروق الإحصائية بين متوسط المجموعتين، ويدل وجود فروق جوهرية بين متوسط المجموعتين على صلاحية المقياس. وهذا ما تمّ حسابه على مستوى الدراسة الحالية، إذ اعتُمدت أعلى 25% وأدنى 25% من درجات الأفراد المستجوبين، ومن ثمّ تطبيق اختبار قيمة "ت" لمعرفة دلالة الفروق الإحصائية. وكانت النتائج كالتالي في الجدول التالي رقم (2):

جدول رقم 2: نتيجة اختبار "ت" بهدف التحقق من الصدق التمييزي لمقياس PTSD

درجة الدلالة	قيمة ت المحسوبة	المجموعة الأعلى ن=76	المجموعة الأدنى ن=76	مقياس اضطراب ضغط ما بعد الصدمة
0.001 دالة	22.253	38.70	14.39	الدرجة الكلية

يتبين من الجدول أعلاه أنّ قيمة "ت" دالة عند مستوى 0.001 بمعنى وجود فروق دالة إحصائية بين متوسط درجات مجموعة الأفراد الذين حصلوا على درجات متدنية على مستوى المقياس ككل ومتوسط درجات مجموعة الأفراد الذين حصلوا على درجات مرتفعة. الأمر الذي يدلّ على ارتفاع نسبة القدرة التمييزية للمقياس على مستوى البيئة اللبنانية وبالتالي تكون عملية استخدامه كأداة لتحقيق أهداف الدراسة صالحة لدرجة كبيرة.

ب- معاملات ارتباط كل مجال من مجالات اضطراب كرب ما بعد الصدمة مع الدرجة الكلية للمقياس

تمّ احتساب معاملات الارتباط ل"بيرسون" بين درجة كلّ مجال من مجالات مقياس اضطراب كرب ما بعد الصدمة الثلاثة والدرجة الكلية للمقياس، وأنت النتائج دالة احصائياً وجوهرياً عند مستوى 0.001 وهي مبينة تفصيلياً في الجدول أدناه رقم (3).

جدول رقم 3: معاملات الارتباط "ر" بين درجة كل مجال من مجالات المقياس الثلاثة والدرجة الكلية (ن=211)

قيمة الدلالة	معاملات الارتباط	مجالات المقياس	
0,001 دالة	1.000	استعادة الخبرة الصادمة	المجال الأول
0,001 دالة	535.-	تجنب الخبرة الصادمة	المجال الثاني
0,001 دالة	373.-	الاستثارة	المجال الثالث

ج- معامل الثبات بطريقة ألفا كرونباخ:

تمّ احتساب قيمة ألفا كرونباخ بعد تطبيق المقياس على العينة الاستطلاعية (ن=107). دلّت النتيجة على تمتّع المقياس بدرجة مرتفعة من الثبات والصدق حيث أتت قيمة ألفا 0.841 كما يتضح في الجدول رقم (4).

جدول رقم 4: معامل الثبات (ن=107)

ألفا كرونباخ	العينة
0.841	4

- الأساليب الاحصائية المعتمدة:

- مقاييس الإحصاء الوصفي: النزعة المركزية والتشتت بهدف الإجابة على سؤالي الدراسة الأول والثاني.

- اختبار T-Test لدراسة الفروق بين مجموعتين (بهدف التحقق من الفرض الأول).

- اختبار ف أنوفا Anova لدراسة الفروق بين ثلاث مجموعات وأكثر (بهدف التحقق من الفرض الثاني والفرض الثالث

والفرض الرابع والفرض الخامس).

8- نتائج الدراسة

نتائج الفرض الأول:

ينص الفرض الأول على ما يلي: "توجد فروق دالة احصائياً على مستوى الدرجة الكلية لمقياس اضطراب كرب ما بعد الصدمة تبعاً لمتغير الجنس (ذكور، إناث)".

جدول رقم 5: الفروق بين متوسط درجات عينة الذكور ومتوسط عينة الاناث

على مستوى مقياس اضطراب كرب ما بعد الصدمة

الدالة	قيمة ت	عينة الاناث		عينة الذكور	
		الانحراف المعياري	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	المتوسط الحسابي
0.001 دالة	41.062	13.497	30.28	11.434	22.48

تبيّن النتائج وجود فروق جوهرية إحصائية دالة بين متوسط درجات الذكور ومتوسط درجات الإناث على مستوى الدرجة الكلية لمقياس اضطراب كرب ما بعد صدمة انفجار مرفأ بيروت لصالح عينة الاناث عند مستوى 0.001. وبالتالي فإنّ الفرض الأول قد تحقق بشكل كلي. وهذا ما يتفق مع نتائج بعض الدراسات السابقة في هذا المجال، التي أظهرت فروقاً جوهرية بين الذكور والإناث في الإصابة باضطراب كرب ما بعد الصدمة لصالح الإناث، ودراسة "الخواجة" (2010)، ودراسة "مجيد" (2011). بينما لم تظهر دراسة "بن التواتي" (2015)، ودراسة "بدر" (2016)، ودراسة "صبيرة، وسعدي، وبدر" (2017)، ودراسة "سعدي" (2017)، أية فروق بين الذكور والإناث في الإصابة باضطراب كرب ما بعد الصدمة. وعلى العكس من ذلك، بيّنت دراسة "خضر، وثابت" (2007) أنّ الذكور أكثر إصابة من الإناث في اضطراب كرب ما بعد الصدمة. ويمكن تفسير نتيجة الفرض الأول بالاستناد إلى التراث العلمي في مجال الصّحة النّفسيّة، الذي يشير إلى إمكانية إصابة الإناث بالاضطرابات النفسية أكثر من الذّكور نتيجة عوامل بيولوجية وفيزيولوجية وهرمونية، إلى جانب عوامل التنشئة الاجتماعية وثقافة المجتمع. وهذا ما قد يجعلها أكثر تأثراً بالضغوط النفسية والأزمات الحياتية، مما ينعكس بشكل سلبي على صحتها الجسمية والنفسية.

نتائج الفرض الثاني:

ينصّ الفرض الثاني على ما يلي: "توجد فروق دالة احصائياً على مستوى الدرجة الكلية لمقياس اضطراب كرب ما بعد الصدمة تبعاً لمتغير العمر".

جدول رقم 6: الفروق بين متوسط درجات أفراد العينة وفق الفئات العمرية

على مستوى مقياس اضطراب كرب ما بعد الصدمة

Tests of Between-Subjects Effects						
Dependent Variable: الدرجة الكلية للمقياس						
Source	Type III Sum of Squares	Df	Mean Square	F	Sig.	مستوى الدلالة
Corrected Model	655.747 ^a	3	218.582	1.286	.281	غير دالة
Intercept	98161.877	1	98161.877	577.500	.000	
الفئات العمرية	655.747	3	218.582	1.286	.281	
Error	31445.787	185	169.977			
Total	163426.000	189				
Corrected Total	32101.534	188				
a. R Squared = .020 (Adjusted R Squared = .005)						

تُظهر النتائج عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسط مجموعات الأفراد الموزعين على الفئات العمرية الأربعة المعتمدة على مستوى الدرجة الكلية لمقياس اضطراب كرب ما بعد الصدمة، حيث أتت قيمة "ف" غير دالة على كافة المستويات الإحصائية. وبالتالي فإنّ الفرض الثاني لم يتحقق. والملاحظ أنه لا توجد الكثير من الدراسات السابقة التي تناولت علاقة اضطراب كرب ما بعد الصدمة بمتغير العمر، إذ أنّ معظم الدراسات أجريت على فئة عمرية واحدة (أطفال، أو مراهقين، أو راشدين)، ولم تدرس الفروق بين الفئات العمرية من حيث ظهور الاضطراب. ويمكن تفسير ما توصلت إليه الدراسة الحالية من عدم وجود فروق بين الفئات العمرية، بأنّ حدث الانفجار المؤلم قد ترك تأثيرات لدى جميع أفراد العينة بشكلٍ متساوٍ، من مختلف الأعمار والشرائح، ولم تظهر المعاناة لدى فئة عمرية دون أخرى.

نتائج الفرض الثالث:

ينص الفرض الثالث على ما يلي: "توجد فروق دالة إحصائية على مستوى الدرجة الكلية لمقياس اضطراب كرب ما بعد الصدمة تبعاً لمتغير المستوى التعليمي".

جدول رقم 9: الفروق بين متوسط درجات أفراد العينة وفق المستوى التعليمي على مستوى مقياس

اضطراب كرب ما بعد الصدمة/ تحليل التباين

Tests of Between-Subjects Effects						
Dependent Variable: الدرجة الكلية للمقياس						
Source	Type III Sum of Squares	Df	Mean Square	F	Sig.	مستوى الدلالة
Corrected Model	2799.088 ^a	5	559.818	3.496	.005	دالة
Intercept	112015.942	1	112015.942	699.563	.001	
المستوى التعليمي	2799.088	5	559.818	3.496	.005	
Error	29302.446	183	160.123			
Total	163426.000	189				
Corrected Total	32101.534	188				
a. R Squared = .087 (Adjusted R Squared = .062)						

كشفت النتائج عن وجود فروق دالة إحصائية بين متوسط درجات أفراد العينة وفق متغير المستوى التعليمي (ابتدائي، متوسط، ثانوي، مهني، ليسانس ودراسات عليا)، إذ بدت قيمة "ف" دالة عند مستوى 0.001.

ولتحديد الفروق التي ظهرت بين المستويات التعليمية، استُخدم اختبار (LSD) الذي يوضح مصادر الفروق بين المجموعات المتباينة لإجراء مقارنات بُعدية بين المتوسطات الحسابية، والنتائج يُظهرها الجدول رقم (10).

جدول رقم 10: الفروق بين متوسطات مجموعات الأفراد وفق متغير المستوى التعليمي

Multiple Comparisons						
Dependent Variable: مقياس الدرجة الكلية						
LSD						
المستوى التعليمي (I)	المستوى التعليمي (J)	Mean Difference (I-J)	Std. Error	Sig.	95% Confidence Interval	
					Lower Bound	Upper Bound
إبتدائي ومادون	متوسط	10.52*	3.221	.001	4.17	16.88
	ثانوي	10.84*	3.644	.003	3.65	18.03
	مهني	10.51*	3.586	.004	3.44	17.59
	ليسانس	9.64*	2.734	.001	4.24	15.03
	دراسات عليا	9.47*	3.284	30.0	-.01	12.95
متوسط	إبتدائي ومادون	-10.52*	3.221	.001	-16.88	-4.17
	ثانوي	.32	3.735	.932	-7.05	7.69
	مهني	-.01	3.678	.998	-7.27	7.25
	ليسانس	-.88	2.854	.757	-6.52	4.75
	دراسات عليا	9.47	3.284	.233	-10.73	2.63
ثانوي	إبتدائي ومادون	-10.84*	3.644	.003	-18.03	-3.65
	متوسط	-.32	3.735	.932	-7.69	7.05
	مهني	-.33	4.054	.935	-8.33	7.67
	ليسانس	-1.21	3.325	.717	-7.76	5.35
	دراسات عليا	9.47	3.284	.250	-11.85	3.10
مهني	إبتدائي ومادون	-10.51*	3.586	.004	-17.59	-3.44
	متوسط	.01	3.678	.998	-7.25	7.27
	ثانوي	.33	4.054	.935	-7.67	8.33
	ليسانس	-.87	3.261	.789	-7.31	5.56
	دراسات عليا	9.47	3.284	.281	-11.41	3.32
ليسانس	إبتدائي ومادون	-9.64*	2.734	.001	-15.03	-4.24
	متوسط	.88	2.854	.757	-4.75	6.52
	ثانوي	1.21	3.325	.717	-5.35	7.76
	مهني	.87	3.261	.789	-5.56	7.31
	دراسات عليا	9.47	3.284	.280	-8.94	2.60
دراسات عليا	إبتدائي ومادون	-6.47	3.284	.050	-12.95	.01
	متوسط	4.05	3.384	.233	-2.63	10.73
	ثانوي	4.37	3.789	.250	-3.10	11.85
	مهني	4.04	3.733	.281	-3.32	11.41
	ليسانس	3.17	2.925	.280	-2.60	8.94

Based on observed means.
The error term is Mean Square (Error) = 160.123.
*. The mean difference is significant at the 0.05 level.

يتضح من الجدول رقم (10) أنّ مجموعة الأفراد ذوي المستوى التعليمي ابتدائي وما دون هم الأكثر معاناة من اضطراب كرب ما بعد الصدمة مقارنة بأقرانهم الأكثر تعلماً في المجموعات الأخرى (متوسط، ثانوي، مهني، ليسانس، دراسات عليا). إذ أتت الفروق دالة عند مستوى 0.05 لصالح مجموعة الأفراد ذوي المستوى التعليمي ابتدائي وما دون، في حين بدت الفروق غير دالة إحصائياً على مستوى المجموعات التعليمية الأخرى (متوسط، ثانوي، مهني، جامعي، دراسات عليا). وبناءً عليه، تحقق الفرض الثالث بشكل جزئي. ولا تتفق هذه النتيجة مع نتائج دراسة "صبيرة، وسعدي، وبدر"، التي تشير إلى عدم وجود فروق دالة إحصائية تبعاً لمتغير المستوى التعليمي. ويمكن تفسير ما توصلت إليه الدراسة الحالية بأنّ المستوى التعليمي هو عنصر هام في عملية التنشئة الاجتماعية، التي تقوم بتشكيل شخصية الفرد وتؤثر على صحته وتوافقته. ويشير التراث العلمي النفسي إلى دور العوامل البيئية والاجتماعية، وأبرزها الأسرة والثقافة وعمليات التعلم، في تبلور مفهوم الذات لدى الفرد، وصلابته النفسية. وكلما ارتفع مستوى التعليم لدى الفرد، كلما انعكس ذلك بشكل إيجابي على نموه ونضجه، كما يسهم في تعزيز توازنه النفسي، وقدرته على مواجهة ضغوط الحياة بشكل فعال.

نتائج الفرض الرابع:

ينصّ الفرض الرابع على ما يلي: "توجد فروق دالة إحصائية على مستوى الدرجة الكلية لمقياس اضطراب كرب ما بعد الصدمة تبعاً لمتغير الوضع الاجتماعي (أعزب، متزوج، مطلق، أرمل)".

جدول رقم 11: الفروق بين متوسط درجات أفراد العينة وفقاً لوضع الاجتماعي على مقياس اضطراب كرب ما بعد الصدمة/ تحليل التباين

Tests of Between-Subjects Effects						
Dependent Variable: مقياس الدرجة الكلية						
Source	Type III Sum of Squares	Df	Mean Square	F	Sig.	مستوى الدلالة
Corrected Model	729.735 ^a	3	243.245	1.434	.234	غير دالة
Intercept	15500.830	1	15500.830	91.409	.000	
الوضع الاجتماعي	729.735	3	243.245	1.434	.234	
Error	31371.799	185	169.577			
Total	163426.000	189				
Corrected Total	32101.534	188				
a. R Squared = .023 (Adjusted R Squared = .007)						

يتضح من الجدول رقم (11)، أنه لا توجد فروق دالة جوهرياً بين متوسط درجات مجموعات الأفراد تبعاً لمتغير الوضع الاجتماعي (أعزب، متزوج، مطلق، أرمل) على مستوى الدرجة الكلية للمقياس. وهكذا، لم يتحقق الفرض الرابع. وفي هذا المجال، تشير إلى دراسة "صبيرة، وسعدي، وبدر" (2017)، والتي أظهرت فروقاً ذات دلالة إحصائية في درجة اضطراب كرب ما بعد الصدمة لصالح الأفراد العازبين. وهذا ما لا يتفق مع نتائج الدراسة الحالية، ويمكن تفسير ذلك، بأن أفراد عينة هذه الدراسة لا يحتاجون إلى الدعم العاطفي من الشريك، أو أنهم قادرين على التوافق مع الأزمات والمواقف الطارئة باستخدام قدراتهم الخاصة ومصادر الدعم الذاتي لديهم.

نتائج الفرض الخامس:

ينصّ الفرض الخامس على ما يلي: "توجد فروق دالة إحصائية على مستوى الدرجة الكلية لمقياس اضطراب كرب ما بعد الصدمة تبعاً لمتغير الحالة الصحية العامة".

جدول رقم 12: الفروق بين متوسط درجات أفراد العينة وفق المهنة على مستوى مقياس اضطراب كرب ما بعد الصدمة/ اختبارات

دالة	الدلالة	قيمة ت	عينة الأفراد الذين لا يعانون من مرض ما		عينة الأفراد الذين يعانون من مرض ما	
			الانحراف المعياري	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	المتوسط الحسابي
			0.001	-4.284	13.497	30.28

يشير الجدول (12) إلى أنّ قيمة "ت" دالة إحصائية على مستوى متغير الحالة الصحية العامة (يعاني من مرض ما، لا يعاني من أي مرض)، بمعنى وجود فروق دالة بين متوسط مجموعة الأفراد الذين يعانون من مرض ما ومتوسط مجموعة الأفراد الذين لا يعانون من أي مرض على مستوى الدرجة الكلية لمقياس اضطراب كرب ما بعد الصدمة. إذاً، تحقق الفرض الخامس بصورة كاملة. وهذا ما يتفق مع التراث العلمي الذي يشير إلى أنّ من عوامل خطر الإصابة باضطراب كرب ما بعد الصدمة وجود تاريخ من المرض النفسي أو الجسدي، وأنّ معاناة الفرد من حالة صحية ما، من المحتمل أن تسهم في عدم قدرته على مواجهة الصدمات، وذلك لأسباب بيولوجية وفيزيولوجية، كما أنّ جهازه المناعي يكون غير قادر على التعامل مع الضغط الناتج عن هذه الصدمة، وبالتالي فإنّ إصابته باضطراب كرب ما بعد الصدمة ستكون أسهل مقارنة مع نظرائه من الأفراد الأصحاء¹.

¹Post - Traumatic Stress Disorder .U.S. Department of Health and Human Services. National Institute of Mental Health.NIH Publication No. 20-MH-8124.Revised 2020.Retrieved fromwww.nimh.nih.gov (Last access 30 August 2020).

صعوبات الدراسة:

انحصرت الصعوبات التي واجهت الباحثين في التطبيق الميداني للأسباب الآتية:

- قلّة عدد الأفراد في الأماكن المتضررة والمتمثلة بمناطق العينة الدراسية.
- رفض العديد من الأفراد ملء بنود المقياس لأنه لا يتعلق بالجمعيات التي تمنح المساعدات المادية لهم.
- صعوبة الاستجابة من بعض الأفراد بسبب كمية الحزن والألم المرتبطة بما حلّ بهم وبعائلاتهم من حالات إصابة أو موت، وبيوتهم من تكسير أو دمار. فبعض الأفراد انهمرت أعينهم بالدموع عند قراءة بنود المقياس.
- استغراق تطبيق المقياس وقتاً طويلاً من قبل بعض الأفراد الذين لجأوا إلى التّعبير والحديث عمّا عايشوه من أحداث أثناء وبعد انفجار مرفأ بيروت.

التوصيات:

- وضع برامج توعية مجتمعية لتدريب الناس على كيفية التّعامل مع الصّدّات.
- إنشاء مراكز ووحدات إرشاد نفسي في المرافق الحيوية مثل المدراس والجامعات والمستشفيات.
- وضع برامج إرشادية وعلاجية فردية وجماعية لأفراد المجتمع.
- تأهيل وتدريب متخصصين في مجال الإرشاد النفسي الخاص بالأزمات.

قائمة المصادر والمراجع:

1. بدر، إيمان (2016). اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة وعلاقته ببعض المتغيرات: دراسة ميدانية لدى عينة من أبناء شهداء محافظة طرطوس في مرحلة المراهقة. رسالة ماجستير غير منشورة. قسم الإرشاد النفسي، كلية التربية، جامعة تشرين، سوريا.
2. بطيخ، لينا؛ وهزيم، كنان (2018). اضطراب ما بعد الصدمة وعلاقته بالأفكار اللاعقلانية: دراسة تشخيصية على عينة من طلبة جامعة البحث. مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية - سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية، 40 (2)، 115-142.
3. بن التواتي، أمينة (2015). اضطراب الضغوط التالية للصدمة لدى المراهقين المتضررين جراء أحداث العنف بولاية غرداية: دراسة ميدانية على عينة من تلاميذ المرحلة الثانوية بمدينة غرداية والقرارة". جامعة قاصدي مرباح، ورقلة. رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة قاصدي مرباح: كلية العلوم الاجتماعية.
4. الحمادي، أنور (2014). الدليل التشخيصي والإحصائي الخامس للاضطرابات العقلية DSM5. الطبعة الأولى، بيروت: الدار العربية للعلوم.
5. خضر، رياض؛ وثابت، عبد العزيز (2007). الصدمات النفسية للاحتلال وأثرها على الصحة النفسية للطلبة في قطاع غزة. مجلة شبكة العلوم النفسية العربية، 4 (13).
6. الخواجة، عبد الفتاح (2010). الوحدة النفسية وعلاقتها باضطراب ضغط ما بعد الصدمة لدى عينة من طلبة كلية التربية بجامعة السلطان قابوس. مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية، 8 (1)، 127-154.
7. سعدي، ريم (2017). اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة لدى عينة من المراهقين النازحين: دراسة ميدانية في منطقة مصياف. مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية - سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية، 39 (6)، 31-43.
8. سلطان، عادل (2017). اضطراب الضغوط التالية للصدمة بعد حرب 2011 وعلاقته ببعض المتغيرات لدى عينة من طلاب جامعة مصراتة. مجلة التربية، كلية التربية، الجامعة الأسمرية الإسلامية، 3 (3)، 143-154.
9. صبيبة، فؤاد؛ وسعدي، ريم؛ وبدر، إيمان (2017). اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة لدى عينة من إخوة الشهداء: دراسة ميدانية في منطقة جبلة. مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية - سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية، 39 (5)، 215-230.
10. مجيد، سوسن (2011). اضطراب ات الضغوط ما بعد الصدمة التي يعاني منها أعضاء هيئة التدريس في الجامعات العراقية. مجلة الفتح، جامعة بغداد، 47.
11. Bisson, J., Cosgrove, S. Lewis, C. & Roberts, N.P. (2015). Post-traumatic stress disorder. Clinical Review. Division of Psychological Medicine and Clinical Neurosciences, School of Medicine, Cardiff University, Cardiff, UK. BMJ 2015;351:h6161 doi: 10.1136/bmj.h6161
12. Clinical Practice Guidelines for the Treatment of Posttraumatic Stress Syndrome. American Psychological Association. Guideline Development Panel for the Treatment of Posttraumatic Stress Disorder in Adults

Adopted as APA Policy February 24, 2017. Retrieved from <https://www.apa.org/ptsd-guideline/ptsd.pdf> (Last access 31 August 2020).

13. Post - Traumatic Stress Disorder. Mind for better mental health. Mind 2018. Retrieved from publications@mind.org.uk (Last access 30 August 2020)

14. Post - Traumatic Stress Disorder. U.S. Department of Health and Human Services. National Institute of Mental Health. NIH Publication No. 20-MH-8124. Revised 2020. Retrieved from www.nimh.nih.gov (Last access 30 August 2020).

15. Posttraumatic Stress Disorder. Anxiety and Depression Association of America. 8701 Georgia Avenue, Suite 412. Silver Spring, MD 20910. www.adaa.org (Last access 20 August 2020).

16. Posttraumatic Stress Disorder. American Psychiatric Association. 2013. Retrieved from www.psychiatry.org (Last access 20 August 2020).

17. <https://medicine.umich.edu/dept/psychiatry/michigan-psychiatry-resources-covid-19/specific-mental-health-conditions/posttraumatic-stress-disorder-during-covid-19>

الارتقاء بمكانة المرأة في الإسلام

Raising the status of women in Islam

د. منصور محمد أحمد يوسف/جامعة المدينة العالمية، ماليزيا

Assoc. Prof. Dr.Mansour Mohamed Ahmed Yousef, Al-Madinah International University/Malaysia

ملخص:

لم تنل المرأة مكانتها اللائقة بها في الحضارات والأديان السَّابِقة للإسلام، ولما جاء الإسلام صان كرامتها، ورفع منزلتها، وأعلى مكانتها؛ أُمًّا، وزوجةً، وبنْتًا، وأعطاه حقوقها، وسَوَّى الإسلام بينها وبين الرَّجُل في جوانب كثيرة أساسية، وأعلن إكرامها ومساواتها بالرَّجُل بنصوص صريحة واضحة، لا لَيْسَ فيها ولا غموض.

وفي هذا البحث تعريف بما كانت عليه أحوال المرأة في الحضارات والأديان السابقة للإسلام، مع إبراز المكانة التي بوأها الإسلام لها.

الكلمات المفتاحية: ارتقاء- مكانة - المرأة - الإسلام.

Abstract:

Women did not attain their rightful place in the civilizations and religions that preceded Islam, and when Islam came, it preserved her dignity, raised her status, and raised her position. A mother, a wife, and a girl, he gave her her rights, and Islam reconciled her with the man in many basic aspects, and declared her honor and equality with men in clear and clear texts, without ambiguity or ambiguity.

In this research, a definition of what was the condition of women in pre-Islamic civilizations and religions, highlighting the position that Islam placed for them.

key words: Raising, status, women, Islam.

مقدمة:

لم تنل المرأة مكانتها اللائقة بها في الحضارات السابقة؛ اليونانية، الرومانية، البابلية، والفارسية، والهندية، ولم تبوأها الديانات السابقة؛ اليهودية والمسيحية المنزلة التي تستحقها، وقد امتهنت المرأة عند العرب قبل الإسلام.

فلما جاء الإسلام صان كرامتها، ورفع منزلتها، وأعلى مكانتها؛ أمًا، وزوجةً، وبناتًا، وأعطاه حقوقها بعد أن كانت كمًا مُهملاً، ومتاعًا يُورث.

وقد سوَّى الإسلام بين المرأة والرجل في جوانب كثيرة أساسية، وأعلن إكرامها ومساواتها بالرجل بنصوص صريحة واضحة، لا لبس فيها ولا غموض؛ وإن ميَّز الإسلام بين الرجل والمرأة في أمور أخرى عديدة، جعل فيها هذا التميُّز للرجل مناط تكريم حقيقي للمرأة؛ ولم يجعله -مطلقًا- سببًا لتحقيرها، أو وضعها موضع الدونية، والصغار، والازداء، كما يزعم الطاعنون في مكانة المرأة في الإسلام.

وفي هذا البحث استعراضٌ لأوضاع المرأة في المجتمعات القديمة حتى ظهور الإسلام، مع إبراز مكانتها في الإسلام.

مشكلة البحث: في بعض الفترات تظهر بعض الدعوات التي يدعي أصحابها أن الإسلام أهان المرأة وهضمها حقها، لكن الناظر في الأديان والحضارات الأخرى يجد أن المرأة لم تنل حظها، ولا مكانتها المرموقة إلا في ظل الإسلام، وفي هذا البحث محاولة لإبراز تلك المكانة.

أسئلة البحث:

1- هل كانت المرأة في مكانة لائقة بها في الحضارات السابقة للإسلام؟

2- هل أنزلت الديانات السابقة للإسلام المرأة مكانتها اللائقة بها؟

3- ما وجوه تكريم الإسلام للمرأة؟

أهداف البحث: يهدف هذا البحث إلى:

1- التَّعريف بما كانت عليه مكانة في الحضارات السابقة للإسلام.

3- إظهار مكانة المرأة في الديانات السابقة للإسلام.

2- إبراز المكانة التي بوأها الإسلام للمرأة.

أهمية البحث: يكشف هذا البحث الثَّقب عن مكانة المرأة في الحضارات السابقة والأديان الأخرى، ويُظهر كيف أُعْلِي الإسلام مكانتها، ورفع منزلتها.

الدِّراسات السابقة: مكانة المرأة في القرآن الكريم والسُّنة النَّبوية للدكتور/ محمد بلتاجي حسن، المرأة بين الفقه والقانون للدكتور/ مصطفى السَّباعي، وقد استفدت منها وعزوت لمواضع ذلك في البحث.

أمَّا ما تميَّزه هذا البحث: حاول البحث استعراض أوضاع المرأة في المجتمعات القديمة حتى ظهور الإسلام- بشيءٍ من الإيجاز- مع إبراز المكانة التي بوأها الإسلام للمرأة.

منهج البحث: اعتمد البحث على المنهج الاستقرائي، والوصفي التحليلي، وفق ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، وكانت دلالاته صريحة وواضحة على موضع الاستشهاد، وما جاء من الأقوال بالأدلة الشرعية: نقلية كانت أو عقلية. مع الحرص على عدم الحشو مثل إنبال البحث بتراجم العلماء.

أولاً: مكانة المرأة قبل الإسلام:

قبل أن أذلف لمكانة المرأة في الإسلام، فمن الإنصاف أن أستعرض أوضاع المرأة في المجتمعات القديمة حتى ظهور الإسلام- بشيء من الإيجاز- وليس هذا من قبيل الموازنة أو المقارنة، بل من باب وضع الأمور في نصابها الصحيح.

فمن الواضح لكل منصف أن المرأة برغم التباين في موقف الأمم والشرائع من القسوة عليها أو الرحمة بها، أنها لم تنل-قبل الإسلام- مكانتها التي تستحقها، بما يتفق مع رسالتها العظيمة التي اختصها الله تعالى بها، ولا مع مكانتها التي ينبغي أن نعترف بها.

(1) مكانة المرأة في الحضارة اليونانية:

كانت المرأة في المجتمع اليوناني أول عهده بالحضارة محصنة وعفيفة لا تُغادر البيت، وتقوم فيه بكل ما يحتاج إليه من رعاية، وكانت محرومة من الثقافة لا تسهم في الحياة العامة بقليل ولا كثير، وكانت محتقرة حتى سموها رجساً من عمل الشيطان، وكانوا يعدونها من سقط المتاع؛ تُباع وتُشترى في الأسواق، ولم يعطوها حقاً في الميراث، وأبقوها طيلة حياتها خاضعة لسلطة رجل وكلوا إليه أمر زوجها، فهو يستطيع أن يفرض عليها من يشاء زوجاً، وعهدوا إليه بالإشراف عليها في إدارة أموالها، فلا يستطيع أن تُبرم تصرفاً دون موافقته، وجعلوا للرجل الحق المطلق في فصل عرى الزوجية بينما لم يمنحوا المرأة حق طلب الطلاق إلا في حالات استثنائية، بل وضعوا العراقيل في سبيل الوصول إلى هذا الحق.

أما في اسبارطة فقد كانوا يتساهلون مع نساء عشيرتهم، ويمنحون من حقوقهن الوراثة، والباينة، وحقوق الحرية والظهور ما يفوق أقدارهن، وما كان ذلك عن سماحة منهم واعتراف بأهلية المرأة، وإنما كان لبيئة اسبرطة العسكرية، فقد كان أهلها في حرب وقتال، فكان الرجال يشتغلون بالحرب دائماً، ويتركون التصرف في حال غيبتهم للنساء، ومع هذا فقد كان أرسطو يعيب على أهل اسبارطة هذه الحرية والحقوق التي أعطوها للمرأة، ويعزو سقوط اسبارطة وانحلالها إلى هذه الحرية والحقوق⁽¹⁾.

(2) مكانة المرأة في الحضارة الرومانية:

لم تكن المرأة عند الرومان بأحسن حالاً من أختها عند اليونان، فقد كان الأمر عندهم في العصر القديم أن الأب ليس مُلزماً بقبول ضمّ ولده منه إلى أسرته ذكراً كان أو أنثى، بل كان يُوضع الطفل بعد ولادته عند قدميه، فإذا رفعه وأخذته بين يديه كان دليلاً على أنه قبل ضمّه إلى أسرته، وإلا فإنه يعني رفضه لذلك، فيؤخذ الوليد إلى السّاحات العامة أو باحات هياكل العبادة فيطرح هناك، فمن شاء أخذه إذا كان ذكراً، وإلا فإن الوليد يموت جوعاً وعطشاً وتأثراً بحرارة الشمس أو برودة الشتاء.

وكان لرب الأسرة أن يدخل في أسرته من الأجانب من يشاء، ويُخرج منها من أبنائه من يشاء عن طريق البيع، ثم قيّد قانون الانثى عشر لوحداً حق البيع بثلاث مرات، فإذا باع الأب ابنه ثلاث مرات متوالية كان له الحق في التحرر من سلطة رئيس الأسرة، أمّا البنت فكانت تظل خاضعة لرب الأسرة ما دام حياً.

(1) لمزيد من التفصيل ينظر: السباعي، مصطفى بن حسني، الدكتور، المرأة بين الفقه والقانون ص 14 دار الوفاق للنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة السابعة، 1420هـ - 1999م، والعقاد، عباس محمود، المرأة في القرآن ص 59 نهضة مصر، الطبعة الثانية، 2003م، والشكعة، مصطفى، الدكتور، إسلام بلا مذاهب ص 85-86 الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الحادية عشرة، 1416هـ-1996م.

وكانت سلطة رب الأسرة على أبنائه وبناته تمتد حتى وفاته مهما بلغ سنهم، كما كانت له سلطة على زوجته وزوجات أبنائه وأبناء أبنائه، وكانت هذه السلطة تشمل: البيع، والنفي، والتعذيب، والقتل، فكانت سلطته سلطة ملك لا حماية، ولم يبلغ ذلك إلا في قانون جوستينيان (ت565م) فإن سلطة الأب فيه لم تعد تتجاوز التأديب.

وكان رب الأسرة هو مالك كل أموالها، فليس لفرد فيها حق التملك، وإنما هم أدوات يستخدمها رب الأسرة في زيادة أموالها، وكان رب الأسرة هو الذي يقوم بتزويج الأبناء والبنات دون إرادتهم.

أما الأهلية المالية فلم يكن للبتن حق التملك، وإذا اكتسبت مالا أضيف إلى أموال رب الأسرة، ولا يؤثر في ذلك بلوغها ولا زواجها، وفي العصور المتأخرة في عصر قسطنطين (ت337م) تقرر أن الأموال التي تحوزها البنت عن طريق ميراث أمها تتميز عن أموال أبيها. ولكن له الحق في استعمالها واستغلالها، وعند تحرير البنت من سلطة رب الأسرة يحتفظ الأب بثالث أموالها كملك له ويعطها الثلثين.

وفي عهد جوستينيان قرّر أن كل ما تكتسبه البنت بسبب عملها أو عن طريق شخص آخر غير رب أسرتها يعتبر ملكاً لها، أما الأموال التي يعطيها رب الأسرة فتظل ملكاً له، على أنها وإن أعطيت حق تملك تلك الأموال فإنها لم تكن تستطيع التصرف فيها دون موافقة رب الأسرة.

وإذا مات رب الأسرة يتحرر الابن إذا كان بالغاً، أما الفتاة فتنتقل الولاية عليها إلى الوصي ما دامت على قيد الحياة، ثم عُذِل ذلك أخيراً بحيلة للتخلص من ولاية الوصي الشرعي بأن تباع المرأة نفسها لولي تختاره، ويكون متفقاً فيما بينهما أن هذا البيع لتحررها من قيود الولاية فلا يعارضها الولي الذي اشتراها في أي تصرف تقوم به.

وإذا تزوجت الفتاة أبرمت مع زوجها عقداً يسمى "اتفاق السيادة" أي بسيادة الزوج عليها، وذلك بإحدى ثلاث طرق: 1- في حفلة دينية على يد الكاهن. 2- بالشراء الرمزي أي يشتري الزوج زوجته.

3- بالمعاشرة الممتدة بعد الزواج إلى سنة كاملة.

وبذلك يفقد رب الأسرة سلطته الأبوية على ابنته وتنتقل هذه السلطة إلى الزوج. وعلى الجملة: فقد تحولت السلطة على المرأة - في عهد الازدهار العلمي للقانون الروماني - من سلطة ملك إلى سلطة حماية، ولكنها مع ذلك ظلت قاصرة الأهلية.

وقد كان تعدد الزوجات تقليداً من تقاليد الشرف والامتياز، ولم يزل أمر الانتصارات المصحوبة بألوان الترف والفخامة، أن جعلت من قدسية الزواج مجرد كلمة لا معنى لها عند الرومان، وأصبح تعدد الزوجات أمراً قانونياً، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تطور في المجتمع إلى أن أصبح التسري واتخاذ العشيقات الكثيرات العدد شيئاً تعترف به الدولة رسمياً، والنتيجة الحتمية لذلك كانت ضياع المرأة، ثم انزلاقها إلى مهوي البيع والشراء. هذا، وقد كان شعارهم فيما يتعلق بالمرأة، هو أن "قيدها لا ينزع، ونيرها لا يُخلع".

ولم تتحرر المرأة الرومانية من تلك القيود إلا يوم أن تحرر منها الأرقاء، على إثر التمرد ثورة بعد ثورة، وعصياناً بعد عصيان، فتعددت استرقاق المرأة كما تعددت استرقاق الجارية والغلام⁽¹⁾.

(1) لمزيد من التفصيل ينظر: السباعي، مصطفى بن حسني، الدكتور، المرأة بين الفقه والقانون ص 14-15، والعقاد، عباس محمود، المرأة في القرآن ص 50، والشكعة، مصطفى، الدكتور، إسلام بلا مذاهب ص 86.

(3) مكانة المرأة في الحضارة البابلية:

أما بابل التي يعتبر بعض مؤرخي الحضارات، أنها ضربت في أسباب التّقدم بسهم وافر منذ القدم، في ظلّ شريعة حمورابي، التي اعتُبرت شريعةً متقدمةً بالقياس إلى غيرها من شرائع الأمم المعاصرة لها، أو السّابقة عليها؛ فإنّ المرأة لم يكن لها نصيب من الحرية أو الكيان في ظلها، وإنما كانت تُحسب في عداد الماشية المملوكة، ويدلُّ على غاية مداها في تقدير مكانة الأنثى، أنها كانت تفرض على مَنْ قتل بنتاً لرجل آخر أن يُسلّمه بنته ليقتلها أو يملكها إذا شاء أن يعفو عنها، وقد يُضطر إلى قتلها لينفذ حكم الشريعة المنصوص عليها⁽¹⁾.

(4) مكانة المرأة في الحضارة الفارسية:

كانت مكانة المرأة في الحضارة الفارسية أكثر سوءاً، وأشدّ امتهاً؛ ذلك أنّها لم تكن تتميز عن الأمة المملوكة في شيء، فتظل طيلة حياتها سجيناً بين جدران منزلها، أو منزل زوجها؛ فلا يحقُّ لها أن تخرج منه، كما كانت تُباع وتُشترى في كثير من الأحيان، هذا فضلاً عن الخروج في التّعامل معها عن حدود المألوف في عالم الإنسان، بل في عوالم الحيوان؛ فقد أُبيح الزّواج بالأمهات، والأخوات، والعمات، والخالات، وبنات الأخ، وبنات الأخت، ويزداد امتهان المرأة في المجتمع الفارسي القديم بُعداً عن الإنسانية؛ وذلك بأن تُنفي المرأة في فترة الطّمث إلى مكان بعيد خارج المدينة، ويظلُّ مقضياً عليها بأن تُقيم في خيمة تُعرف باسم "داخي"، ولا يجوز لأحد مخالطتها إلا الخدم الذين يُقدّمون لها الطّعام، وحتى هؤلاء كانوا يضعون لفائف من القماش حول أنوفهم، وأذانهم، وأيديهم خشية النّجاسة إذا مسّوا المرأة أو لمسوا خيمتها، والمرأة الفارسية فضلاً عن ذلك كلّها، كانت تحت سلطة الرّجل المطلقة، يحقُّ له أن يحكم عليها بالموت، ويُنعم عليها بالحياة⁽²⁾.

(5) مكانة المرأة في الحضارة الهندية:

كان علماء الهندو الأقدمون يرون أن الانسان لا يستطيع تحصيل العلوم والمعارف ما لم يتخل عن جميع الروابط العائلية. ولم تكن شريعة مانو (القرن الثالث عشر قبل الميلاد) تعرف للمرأة حقاً مستقلاً عن أبيها، أو زوجها، أو ولدها، إذا مات هؤلاء جميعاً وجب أن تنتهي إلى رجل من أقارب زوجها في النّسب، ولم تستقل بأمر نفسها طيلة حياتها، وأشد من نكران حقّها في المعيشة نكران حقّها في الحياة المستقلة عن حياة زوجها، فإنّها مقضياً عليها أن تموت يوم موت زوجها، وأن تُحرق معه وهي حية على موقد واحد، وقد استمرت هذه العادة العتيقة حتى القرن السابع عشر حيث أبطلت على كره من رجال الدين الهندو. وكانت تُقدم قرباناً للآلهة لترضى، أو تأمر بالمطر أو الرزق.

وفي بعض مناطق الهند القديمة شجرة يجب أن يُقدّم لها أهل المنطقة فتاة تأكلها كل سنة.

وجاء في شرائع الهندوس: ليس الصّبر المقدر، والرّيح، والموت، والجحيم، والسّم، والأفاعي، والنار، أسوأ من المرأة⁽³⁾.

(6) مكانة المرأة في الديانة اليهودية:

كانت بعض طوائف اليهود تعتبر البنت في مرتبة الخادم، وكان لأبيها الحقُّ في أن يبيعه قاصراً، وما كانت ترث إلا إذا لم يكن لأبيها ذرية من البنين، وإلا ما كان يتبرّع به لها أبوها في حياته.

(1) لمزيد من التّفصيل ينظر: السّباعي، المرأة بين الفقه والقانون ص 17، والعقاد، المرأة في القرآن ص 48، والشّكعة، إسلام بلا مذاهب ص 87.

(2) الشّكعة، مصطفى، الدكتور، إسلام بلا مذاهب ص 87-88. بتصرف.

(3) ينظر: السّباعي، مصطفى بن حسني، الدكتور، المرأة بين الفقه والقانون ص 17، والعقاد، عباس محمود، المرأة في القرآن ص 48.

ففي الأصحاح الثاني والأربعين من سفر أيوب: "ولم توجد نساء جميلات كنساء أيوب في كلِّ الأرض، وأعطاهنَّ أبوهن ميراثًا بين إخوتهنَّ، وعاش أيوب بعد هذا مائة وأربعين سنة".

وحين تُحرم البنت من الميراث لوجود أخٍ لها ذكر يثبت لها على أخيها النِّفقة والمهر عند الزَّواج، إذا كان الأب قد ترك عقارًا فيعطها من العقار، أما إذا ترك مالا منقولًا فلا شيء لها من النِّفقة والمهر ولو ترك القناطير المقنطرة.

وإذا آل الميراث إلى البنت لعدم وجود أخٍ لها ذكر، لم يجز لها أن تتزوج من سبط آخر، ولا يحقُّ لها أن تنقل ميراثها إلى غير سبطها.

ويعتبر اليهود المرأة لعنة؛ لأنها أغوت آدم، وقد جاء في التَّوراة: "المرأة أمرٌ من الموت، وإن الصَّالح أمام الله ينجو منها، رجلاً واحدًا بين ألف وجدت، أمَّا المرأة فبين كل أولئك لم أجد"⁽¹⁾.

(7) مكانة المرأة في الديانة المسيحية:

لقد هال رجال المسيحية الأوائل ما رأوا في المجتمع الرُّوماني من انتشار الفواحش والمنكرات، وما آل إليه المجتمع من انحلالٍ أخلاقيٍّ شنيعٍ، فاعتبروا المرأة مسؤولة عن هذا كله؛ لأنها كانت تخرج إلى المجتمعات، وتتمتع بما تشاء من اللهو، وتختلط بمن تشاء من الرِّجال كما تشاء، وبأبت المرأة بلعنة الخطيئة، فكان الابتعاد منها حسنةً مأثورةً لمن لا تغلبه الضَّرورة، فقرروا أنَّ الزَّواج دَنَسٌ يجب الابتعاد عنه، وأنَّ العزَّب عند الله أكرم من المتزوج، وأعلنوا أنَّ المرأة باب الشَّيطان، وأنها يجب أن تستحي من جمالها؛ لأنه سلاح إبليس للفتنة والإغراء.

قال القديس ترتوليان (ت225م): "إنَّها مدخل الشيطان إلى نفس الانسان. ناقضة لنواميس الله، مُشوِّهة لصورة الله؛ أي الرجل.

ومن بقايا هذه الغاشية في القرون الوسطى، أنَّها شغلت بعض اللاهوتيين إلى أن عقدوا مجمع "ماكون" (586م) فبحثوا بحثًا جدِّيًّا في جِبَلَّة المرأة، وتساءلوا: هل هي جثمان بحث؟ أو هي جسد ذو روح يُنَاط بها الخلاص والهلاك؟ وغلب على آرائهم: أنها حُلُوٌّ من الرُّوح النَّاجية، أي: من عذاب جهنم، ولا استثناء لإحدى بنات حواء من هذه الوصمة غير السيِّدة العذراء أمِّ المسيح عليه السَّلام⁽²⁾.

(8) مكانة المرأة عند العرب قبل الإسلام:

إذا عدنا إلى البيئة العربية قبل الإسلام، وجدنا المرأة العربية مهضومة في كثير من حقوقها، فليس لها حقُّ الإرث، وليس لها على زوجها أيُّ حقٍّ، وليس للطلاق عدد محدود، ولا لتعدد الزوجات حدٌّ معيَّن، ولم يكن عندهم نظام يمنع تمكين الزوج من النِّكاحية بها، كما لم يكن لها حقٌّ في اختيار زوجها، ولقد كان رؤساء العرب وأشرفهم فحسب يستشيرون بناتهم في أمر الزَّواج، كما نستنتج ذلك من بعض القصص التاريخية.

وكان الرِّجل إذا مات وله زوجة وأولاد من غيرها، كان الولد الأكبر أحقُّ بزوجة أبيه من غيره، ويعتبرها إرثًا كبقية أموال أبيه، فإن أراد أن يُعلن عن رغبته في الزَّواج منها طرح عليها ثوبًا، وإلا كان لها أن تتزوج بمن تشاء.

(1) لمزيد من التَّفصيل ينظر: السَّباعي، مصطفى بن حسني، الدكتور، المرأة بين الفقه والقانون ص 17-18، والعقاد، عباس محمود، المرأة في القرآن ص 51، والشُّكعة، مصطفى، الدكتور، إسلام بلا مذاهب ص 88.

(2) لمزيد من التَّفصيل ينظر: السَّباعي، مصطفى بن حسني، الدكتور، المرأة بين الفقه والقانون ص 18، والعقاد، عباس محمود، المرأة في القرآن ص 50، والشُّكعة، مصطفى، الدكتور، إسلام بلا مذاهب ص 88-89.

وكانوا يتشاءمون من ولادة الأنثى، وكانت بعض قبائلهم تندها خشية العار، وبعضهم كان يندها ويئد أولاده عامة خشية الفقر، ولم تكن هذه عادة فاشية في العرب، وإنما كانت في بعض قبائلهم، ولم تكن قريش منها. وكل ما كانت تعترض به المرأة العربية في تلك العصور على أخواتها في العالم كله، حماية الرجل لها، والدفاع عن شرفها، والثار لامتهان كرامتها⁽¹⁾.

ثانياً: مكانة المرأة في الإسلام:

اعتنى الإسلام بالمرأة فأكرمها إذ أهانتها الأديان والحضارات الأخرى، ورفع منزلتها، وصان كرامتها، وأعطاهها حقوقها، وقد تحقق ذلك في أمور كثيرة، سأبرزها في المبحث الذي قسمته إلى عشرة مطالب: المطلب الأول: مساواة المرأة بالرجل في أصل الخلق. المطلب الثاني: تبرئة المرأة من اختصاصها بالمسؤولية الأصلية عن المعصية. المطلب الثالث: المرأة أهلٌ للتكليف والثواب والعقاب. المطلب الرابع: رغب في تربية البنات وحسن الصُّحبة لهن. المطلب الخامس: حقُّ البرِّ للأُم. المطلب السادس: حقُّ الإرث. المطلب السابع: نظَّم الإسلام حقوق الزوجين، وجعل للمرأة حقوقاً كحقوق الرجل. المطلب الثامن: نظَّم الإسلام الطلاق بما يمنع من تعسُّف الرجل. المطلب التاسع: نظَّم الإسلام تعدد الزوجات. المطلب العاشر: أعطى الإسلام المرأة الأهلية الكاملة في الالتزامات المالية.

(1) مساواة المرأة بالرجل في أصل الخلق:

يقرر القرآن الكريم أنَّ المرأة خُلقت من نفس الرجل، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1]. وقال تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الرُّم: 6].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنَّما النساء شقائق الرجال"⁽²⁾. "أي: نظائرهم وأمثالهم في الخلق والطباع فكأنهن شققن من الرجال"⁽³⁾.

(2) تبرئة المرأة من اختصاصها بالمسؤولية الأصلية عن المعصية:

لقد برأ الإسلام المرأة من اللعنة التي كان يصبها بها رجال الديانات السابقة، من كونها المسئولة عن عصيان آدم-عليه السلام- لأمر الله تعالى، بل جعل عقوبة الخروج من الجنة ناشئة عنها معاً؛ قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة: 36].

(1) لمزيد من التفصيل ينظر: السباعي، مصطفى بن حسني، الدكتور، المرأة بين الفقه والقانون ص 19-20، والعقاد، عباس محمود، المرأة في القرآن ص 52-53، والشكعة، مصطفى، الدكتور، إسلام بلا مذاهب ص 89.

(2) أحمد بن حنبل، المسند 265/43 حديث (26195) تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين، إشراف د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1421هـ-2001م، وأبو داود، سليمان بن داود، السنن 61/1 حديث (236) كتاب الطهارة باب في الرجل يجد البلة في منامه، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، من حديث عائشة رضي الله عنها، وقال محققو المسند: "حديث حسن لغيره".

(3) ينظر: الخطابي، معالم السنن = شرح سنن أبي داود 79/1، والعيبي، بدر الدين، شرح سنن أبي داود 527/1 تحقيق أبي المنذر خالد بن إبراهيم المصري، مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة الأولى، 1420هـ-1999م.

وقال تعالى: {فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاءِيهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَئِينَ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ [20] وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ [21] فَذَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ [22] قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ [23]} {الأعراف: 20-23}.

بل إنَّ القرآن الكريم في بعض آياته قد نسب الذنب إلى آدم- عليه السلام- وحد هقال تعالى: {وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى} {طه: 121}.

ثم قرَّر القرآن الكريم مبدأ آخر يُعفي المرأة من مسؤولية أمها حواء، وهو يشمل الرجل والمرأة على السواء⁽¹⁾؛ قال تعالى: {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} {البقرة: 134}.

(3) المرأة أهلٌ للتكليف والثواب والعقاب:

يقرِّر الإسلام مبدأ تساوي الرجال والنساء أمام التكليف الشرعي، والجزاء الأخروي، دونما أي فارق بينهما في ذلك⁽²⁾، قال تعالى: {فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَى بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ} {آل عمران: 195}،

وقال تعالى: {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا} {النساء: 124}، {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} {النحل: 97}،

وقال تعالى: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} {الأحزاب: 35}،

وقال تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَالًّا مُّبِينًا} {الأحزاب: 36}.

(4) رغب في تربية البنات وحسن الصحبة لهن:

من مظاهر تكريم المرأة في الإسلام رغب الإسلام في تربية البنات، وحسن الصحبة لهن، ورثب على ذلك أجراً عظيماً، فمن ذلك: حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من عال جاريتين حتى تبلغا، جاء يوم القيامة أنا وهو» وضم أصابعه⁽³⁾.

(1) لمزيد من التفصيل ينظر: السباعي، مصطفى بن حسني، الدكتور، المرأة بين الفقه والقانون ص 24.

(2) ينظر: بلتاجي، محمد بلتاجي حسن، الدكتور، مكانة المرأة في القرآن الكريم والسنة النبوية ص 85-86 دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1420هـ-2000م.

(3) مسلم، بن الحجاج، الصحيح 4/ 2027 حديث (2631) كتاب البر والصلة، باب فضل الإحسان إلى البنات.

وحدیث جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مَنْ كُنْ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ يَوْمِيهِنَّ، وَيَرْحَمُهُنَّ، وَيَكْفُلُهُنَّ، وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ الْبَتَّةُ "، قال: قيل: يا رسول الله: فإن كانت اثنتين؟ قال: " وإن كانت اثنتين "، قال: فرأى بعض القوم، أن لو قالوا له واحدة، لقال: " واحدة " (1).

(5) حَقُّ الْبَرِّ لِلْأُمِّ:

قَرَنَ الْإِسْلَامُ قَرْنَ طَاعَةِ الْأُمِّ وَبِرِّهَا بِأَصْلِ الدِّينِ، وَعَمُودِ الْمِلَّةِ، وَهُوَ التَّوْحِيدُ، قَالَ تَعَالَى: {وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْأَجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْأَجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا} [النساء: 36]،

وقال تعالى: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَاقِي نَحْنُ نَزَرْنَاكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [الأنعام: 151].

وفي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: «أُمُّكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «أُمُّكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أُمُّكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَبُوكَ» (2). بل أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بصلة الأمِّ، وإن اختلف الدين لما لها من المكانة العظيمة، ففي حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، قالت: قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلْت: وَهِيَ رَاغِبَةٌ، أَفَأَصِلُ أُمِّي؟ قَالَ: «نَعَمْ صِلِي أُمَّكَ» (3).

(6) حَقُّ الْإِرْثِ:

لقد كانت المرأة قبل الإسلام كمًّا مهملاً كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: " كُنَّا فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَا نَعُدُّ النِّسَاءَ شَيْئًا، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ وَذَكَرَهُنَّ اللَّهُ، رَأَيْنَا لَهُنَّ بِدَلِكِ عَلَيْنَا حَقًّا " (4). وقد قرَّر الإسلام أنَّ للمرأة حقًّا في الميراث أمًّا، وزوجةً، وبناتًا؛ كبيرةً كانت أو صغيرةً، أو حاملًا في بطن أمها.

(7) نَظَّمَ الْإِسْلَامُ حَقُوقَ الزَّوْجَيْنِ، وَجَعَلَ لِلْمَرْأَةِ حَقُوقًا كَحَقُوقِ الرَّجُلِ:

لقد سوَّى الإسلام بين المرأة والرجل في الحقوق والواجبات، فنظَّم الحقوق بين الزوجين، وجعل للمرأة حقوقاً كحقوق الرجل، قال تعالى: {وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَّمَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَّمَهُنَّ} [البقرة: 228].

مع رئاسة الرجل لشؤون البيت، وهي رئاسة غير مستبدة ولا ظالمة. "وهي الرئاسة التي يتصرف فيها المرؤوس بإرادته واختياره، وليس معناها أن يكون المرؤوس مقهورًا، مسلوب الإرادة، لا يعمل عملاً إلا ما يوجهه إليه رئيسه؛ فإنَّ كون الشخص قيماً على آخر، هو عبارة عن إرشاده والمراقبة عليه في تنفيذ ما يرشده إليه، أي: ملاحظته في أعماله وتربيته؛ ومنها: حفظ المنزل،

(1) أحمد بن حنبل، المسند 150/22 حديث (14247)، وقال محققو المسند: " حديث صحيح ".

(2) البخاري، محمد بن إسماعيل، الصحيح 2/8 حديث (5971) كتاب الأدب، باب من أحق الناس بحسن الصحبة، ومسلم، بن الحجاج، الصحيح 1974/4 حديث (2548) كتاب البر والصلة والآداب، باب بر الوالدين وأنها أحق به، واللفظ للبخاري.

(3) البخاري، الصحيح 164/3 حديث (2620) كتاب كِتَابِ الْهَيْبَةِ وَفَضْلِهَا وَالتَّخْرِيسِ عَلَيَّهَا، باب الهدية للمشركين، ومسلم، بن الحجاج، الصحيح 696/2 حديث (1003) كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوجة والأولاد والوالدين ولو كانوا مشركين. واللفظ للبخاري.

(4) البخاري، الصحيح 152/7 حديث (5843) كِتَابِ الْبِئْسَاءِ، بَابُ مَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَجَوَّزُ مِنَ الْبِئْسَاءِ وَالْبِئْسَاءِ.

وعدم مفارقتة ولو لزيارة أولي الثُرْبِي إلا في الأوقات والأحوال التي يأذن فيها الرّوْح ويرضاها، ومنها مسألة النّفقة، فإنّ الأمر فيها للرّجل، فهو يُقَدِّرُ للمرأة تقديرًا إجمالياً؛ يوماً يوماً، أو شهراً شهراً، أو سنةً سنةً، وهي تُنقِذُ ما يُقَدِّرُهُ على الوجه الذي ترى أنّه يُرضيه ويُناسِبُهُ حاله من السّعة والضّيق⁽¹⁾.

(8) نَظَمَ الإسلام الطّلاق بما يمنع من تعسّف الرّجل:

عندما تستحيل العِشرة بين الرّوجين، وتصعب الحياة بينهما، فقد شرع الإسلام الطّلاق ليكون علاجاً للخلافات الرّوجية؛ كأمر لا مفرّ منه، وقد نفّر الإسلام منه رآه مكروهاً؛ وذلك في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أبغضُ الحلال إلى الله تعالى الطّلاق"⁽²⁾.

وقد نَظَمَ الإسلام الطّلاق بما يمنع من تعسّف الرّجل فيه، واستبداده في أمره؛ فجعل له حدّاً لا يتجاوزه، وهو الثّلاث، وقد كان عند العرب ليس له حدٌّ يقف عنده، وجعل لإيقاع الطّلاق وقتاً، ولأثره عدّة تُتيح للرّوجين العودة إلى الصّفاء والوئام⁽³⁾.

(9) نَظَمَ الإسلام تعدد الزوجات:

لقد حدّ الإسلام من تعدد الرّوجات الذي كان شائعاً؛ فجعله أربعاً، وقد كان عند العرب، وعند غيرهم من الأمم التي تُبيح التّعدد غير مُقيّدٍ بعددٍ معينٍ. فقد جاء الإسلام وفي ثقيف على سبيل المثال: رجال عند كل واحد منهم عشر نسوة أسلم بعضهم مثل: غيلان بن سلمة، وسفيان بن عبد الله، أبو عقيل مسعود بن عامر بن معتب، فنزل كلّ منهم عن ستّ زوجات، وأمّسك أربعاً⁽⁴⁾.

وأسلم قيس بن الحارث رضي الله عنه وكان عنده ثمان نسوة، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «اختر منهن أربعاً»⁽⁵⁾. وأسلم نوفل بن معاوية رضي الله عنه وكان تحته خمس نسوة. فسأل النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: «فارق واحدة، وأمّسك أربعاً»⁽⁶⁾. وحكى المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أنه تزوّج "سبعين امرأة"⁽⁷⁾، ووردت روايات

(1) رضا، محمد رشيد، الشيخ، تفسير القرآن الحكيم = تفسير المنار 5/ 56 الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م.

(2) أبو داود، سليمان بن الأشعث، السنن 2/ 255 حديث (2178) كتاب الطلاق، باب في كراهية الطلاق، وابن ماجه، محمد بن يزيد، القزويني، السنن 1/ 650 حديث (2018) كتاب الطلاق، باب حدثنا سويد بن سعيد، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، واللفظ لهما. والحاكم، محمد بن عبد الله، النيسابوري، المستدرک على الصحيحين 2/ 214 حديث (2794) تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، 1411هـ - 1990م، بلفظ: "ما أحل الله شيئاً أبغض إليه من الطّلاق"، وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه"، وقال الذهبي في تلخيصه، بعد تصحيح الحاكم للحديث: "على شرط مسلم".

(3) لمزيد من التفصيل ينظر: السباعي، مصطفى حسني، الدكتور، المرأة بين الفقه والقانون ص 26، 99-102.

(4) محمد بن حبيب، المُحَبَّرُ ص 357 تحقيق إيلزة ليختن شتير، دار الأفاق الجديدة، بيروت.

(5) أبو داود، سليمان بن الأشعث، السنن 2/ 272 حديث (2241) كتاب الطلاق، باب في من أسلم وعنده نساء أكثر من أربع أو أختان.

(6) البغوي، الحسين بن مسعود، شرح السنة 9/ 90 حديث (2289) تحقيق شعيب الأرناؤوط، وزهير الشاويش، المكتب الإسلامي، 1403هـ - 1983م.

(7) ينظر: المتقي الهندي، علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال 16/ 496 حديث (45619) تحقيق بكري حياتي - وصفوة السقا، مؤسسة الرسالة، الطبعة الخامسة، 1401هـ - 1981م.

عنه أنه قال: "نكحت أكثر من ثمانين امرأة، أو: تسعًا وثمانين امرأة، أو: ثلاثًا وتسعين امرأة"⁽¹⁾. ولذلك وجد أبو الحسن المدائني مادة علمية مكنّته من أن يؤلف كتابًا في "مَنْ جمع أكثر من أربع"⁽²⁾.

(10) أعطى الإسلام المرأة الأهلية الكاملة في الالتزامات المالية:

جعل الإسلام المرأة قبل بلوغها تحت وصاية أوليائها، وجعل ولايتهم عليها ولاية رعاية، وتأديب، وعناية بشؤونها، وتنمية لأموالها، لا ولاية تملُّك واستبداد. وبعد بلوغ المرأة جعلها الإسلام كاملة الأهلية للالتزامات المالية كالرجل سواء بسواء.

والمتتبع لأحكام الفقه الإسلامي لم يجد فرقًا بين أهلية الرجل والمرأة في شتى أنواع التصرفات المالية: كالبيع، والإقالة، والخيارات، والسلم، والصرف، والشفعة، والإجارة، والرهن، والقسمة، والبيّنات، والإقرار، والوكالة، والكفالة، والحوالة، والصُّلح، والشركة، والمضاربة، والوديعة، والهبة، والوقف، والعتق، وغيرها⁽³⁾.

الخاتمة: وبها أهم النتائج والتوصيات.

أهم النتائج:

(1) ظهر لكل منصف أن المرأة قبل الإسلام لم تنل مكانتها التي تستحقها، بما يتفق مع رسالتها العظيمة التي اختصها الله تعالى بها.

(2) اعتنى الإسلام بالمرأة فأكرمها إذ أهانها الأديان والحضارات الأخرى، ورفع منزلتها، وصان كرامتها، وأعطاه حقوقها، وقد تحقق ذلك في أمور كثيرة منها: (أ) مساواة المرأة بالرجل في أصل الخلق. (ب) تبرئة المرأة من اختصاصها بالمسؤولية الأصلية عن المعصية. (ج) المرأة أهل للتكليف والثواب والعقاب. (د) رغّب في تربية البنات وحسن الصحبة لهن. (هـ) حقّ البرّ للأُم. (و) حقّ الإرث. (ز) نظّم الإسلام حقوق الزوجين، وجعل للمرأة حقوقًا كحقوق الرجل. (ح) نظّم الإسلام الطلاق بما يمنع من تعسف الرجل. (ط) نظّم الإسلام تعدد الزوجات. (ي) أعطى الإسلام المرأة الأهلية الكاملة في الالتزامات المالية.

أهم التوصيات: أوصي الباحثين بجمع كافة الأمور التي اعتنى الإسلام فيها بالمرأة وإبرازها، وعمل موسوعة للشبهات التي وُجّهت لتلك المكانة والرّد عليها.

(1) أبو الفرج الأصبهاني، علي بن الحسين، الأغاني 96/16-97 تحقيق سمير جابر، دار الفكر - بيروت - الطبعة الثانية.

(2) ينظر: ابن التّديم، محمد بن إسحاق، الفهرست ص 131 تحقيق إبراهيم رمضان، دار المعرفة بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، 1417هـ - 1997م، وياقوت الحموي، معجم الأدياء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب 4/1855 تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1414هـ - 1993م.

(3) ينظر: السباعي، مصطفى بن حسني، الدكتور، المرأة بين الفقه والقانون ص 26. بتصرف يسير.

قائمة المصادر والمراجع :

- (1) القرآن الكريم.
- (2) ابن النديم، محمد بن إسحاق، الفهرست، تحقيق إبراهيم رمضان، دار المعرفة بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، 1417هـ - 1997م.
- (3) ابن ماجه، محمد بن يزيد، القزويني، السنن، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي.
- (4) أبو الفرج الأصبهاني، علي بن الحسين، الأغاني، تحقيق سمير جابر، دار الفكر - بيروت - الطبعة الثانية.
- (5) أبو داود، سليمان بن داود، السنن، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت.
- (6) أحمد بن حنبل، المسند، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين، إشراف د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1421هـ - 2001.
- (7) البخاري، محمد بن إسماعيل، الصحيح، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة الأولى، 1422هـ.
- (8) البغوي، الحسين بن مسعود، شرح السنّة، تحقيق شعيب الأرنؤوط، وزهير الشاويش، المكتب الإسلامي، 1403هـ - 1983م.
- (9) البغوي، الحسين بن مسعود، شرح السنّة، تحقيق شعيب الأرنؤوط، وزهير الشاويش، المكتب الإسلامي، 1403هـ - 1983م.
- (10) بلتاجي، محمد بلتاجي حسن، الدكتور، مكانة المرأة في القرآن الكريم والسنّة النبوية، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1420هـ - 2000م.
- (11) الحاكم، محمد بن عبد الله، النيسابوري، المستدرک علی الصحیحین، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، 1411هـ - 1990م.
- (12) الخطابي، معالم السنن = شرح سنن أبي داود، المطبعة العلمية - حلب، الطبعة الأولى، 1351هـ - 1932م.
- (13) رضا، محمد رشيد، الشيخ، تفسير القرآن الحكيم = تفسير المنار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م. السبائي، مصطفى بن حسني، الدكتور، المرأة بين الفقه والقانون، دار الوراق للنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة السابعة، 1420هـ - 1999م.
- (14) الشكعة، مصطفى، الدكتور، إسلام بلا مذاهب، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الحادية عشرة، 1416هـ - 1996م.
- (15) العقاد، عباس محمود، المرأة في القرآن، نهضة مصر، الطبعة الثانية، 2003م.
- (16) المتقي الهندي، علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، تحقيق بكرى حياني - وصفوة السقا، مؤسسة الرسالة، الطبعة الخامسة، 1401هـ - 1981م.
- (17) محمد بن حبيب، المُحَبَّر، تحقيق إيلزة ليختن شتير، دار الآفاق الجديدة، بيروت.
- (18) مسلم، بن الحجاج، الصحيح، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثانية، 1406هـ - 1986م.
- (19) ياقوت الحموي، معجم الأدياء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1414هـ - 1993م.

اجتماعية الفكر عند مالك بن نبي (قراءة في منطلقات وفاعلية المنهج)

The association of thought about Malik Bin Nabi
(reading the starting points and effectiveness of the curriculum)

د. ناصر هواري. أستاذ متعاقد/جامعة ابن خلدون تيارت، الجزائر

Dr . Naceur Houari /Maitre contractuel /université Ibn Khaldoun ,Tiaret , Algérie

ملخص :

تبحث هذه الدراسة في اجتماعية الفكر عند مالك بن نبي باعتباره أحد المفكرين الذين وظفوا المنهج الاجتماعي في طروحيهم، من خلال الوقوف على منطلقات هذا المنهج، والأسباب التي جعلت من ابن نبي يختار المنهج الاجتماعي كأداة للمقاربة، وكذا الوقوف على بعض القضايا التي عالجها مالك بن نبي في ضوء المنهج الاجتماعي، فهو يرى أن المجتمع وحده كفيل بتحقيق مقومات الحضارة، وأن أي نشاط للفرد لا يمكن أن يكفل بالنجاح ما لم يكن في إطار المجتمع لأنه الحاضن له، ومن هذا المنطلق يقترح مجموعة من الحلول الاجتماعية بالدرجة الأولى للإقلاع الحضاري من خلال استثمار عامل الدين، والنخبة المثقفة، والتراب لتخليص المجتمع من ظاهرة التخلف التي يتخبط فيها، فهل اختياره للمنهج الاجتماعي مبني على أسس علمية أم هو مجرد اختيار تغذيه الرغبة الشخصية، وهل للتكوين الفكري دور في ذلك؟ وإلى أي مدى يمكن أن يكون الاتجاه الاجتماعي لمالك بن نبي حلاً لجميع المشكلات الحضارية التي تعيق تقدم الوطن نحو غد أفضل؟ في ضوء هذا الأشكال تود الدراسة تقديم قراءة بحثية في منطلقات المنهج، وفاعليته لدى هذا المفكر.

الكلمات المفتاحية: المنهج، المجتمع، الحضارة، الفكر، الدين، النخبة.

Abstract;

This study aims to look into the association of thought about Malik Bin Nabi as one of the seductive thinkers who employed .The social approach their research by standing upon the premises of this curriculum and the reasons that made him choose the social approach as a tool for comparing and to stand upon some issues highlighted in association with the social approach .He believes that the community and pilgrimage and guarantor to achieve the elements of civilization and that any individual activity cannot be successful unless it is within the frame work of society because it is fortress and this vein proposes a set of meeting solutions its first class cultural take off by investing religion factors intellectual elite and back ground to rid society of underdevelopment phenomenon flops .So is the social curriculum choice based on scientific basis or is just a choice fueled by personal desire and whether training and intellectual role in that to what extent can the social direction of Malik bin Nabi a solution to all the civilization problems that hinder the nations progress towards a better future?

In the light of these forms the study provides a research reading on the principles of curriculum and its effectiveness with this thinker

Keywords: Curriculum ,Society ,Civilization ,Thought ,Religion ,Elite.

مقدمة:

جاء مالك بن نبي إلى الوجود في زمن كان الاستعمار الفرنسي قد بسط نفوذه على أرض الجزائر الطيبة، فشبّ الطفل في وطن مسلوب، عاش فيه كلّ تطورات المجتمع، وتحولاته بجوارحه، من خلال مشاهداته اليومية، فانطبع في ذهنه ذلك الصراع القائم بين سلطة استعمارية تحاول بسط نفوذها الفكري، ومجتمع ما يزال متشبثاً بموروثه الديني والثقافي، فولّد ذلك شعوراً لدى الشاب يدعو للتفكير في تخليص هذا المجتمع من هيمنة الاستعمار، فكانت جلّ أفكاره منطلقها المجتمع الذي اصطبغ به فكره، ولم يقتصر فكر مالك بن نبي على توصيف الأوضاع الاجتماعية التي يعاني منها المجتمع الإسلامي بصفة عامة، بل تعدّاه إلى طرح حلول يمكنها تخليص المجتمع من المشاكل التي يتخبط فيها، من خلال وضعه الغايات التي يمكن معالجتها في ضوء المنهج الاجتماعي وكذا النتائج الممكنة تحصيلها جراء تطبيقه.

مشكلة الدراسة: تحاول الدراسة أن تجيب على جملة من التساؤلات.

ماهي المنطلقات التي جعلت من مالك بن نبي مفكراً اجتماعياً؟ وماهي الحلول التي يقترحها منهجه لبعث الحضارة، بدءاً بالتححرر من الاستعمار؟ وهل مازالت هذه الحلول صالحة إلى يومنا هذا؟

أهداف الدراسة: تستهدف الدراسة الوقوف على مسار تكوين المفكر مالك بن نبي، ومدى نجاحه في توصيف المشاكل التي يتخبط فيها المجتمع الإسلامي بصفة عامة والجزائري بصفة خاصة، والترويج لنجاعة الحلول التي اقترحها هذا المفكر، والدعوة إلى تطبيقها من أجل إعادة بعث النهضة في الوطن، والالتحاق بركب الدول المتقدمة.

أهمية الدراسة: إنّ الوطن الإسلامي اليوم يقبع في مؤخرة الترتيب من حيث التقدم العلمي والتكنولوجي، رغم ما يزخر به من طاقات بشرية، ومادية بإمكانها أن تجعل منه في مقدمة الركب، لكن غياب المشاريع، والأهداف، والتخطيط، والتي يسميها مالك بن نبي الأفكار حالت دون وصوله إلى التطور، وبقي تابعا لغيره مستوردا ما يوجد به الغرب، وفيه الكثير من عوامل الهدم، من منطلق أنّ الخصم لا يعطيك عوامل التفوق، وعليك أن تصنع تفوقك بيدك، تلك هي أفكار مالك بن نبي التي يجب أن تبعث من جديد في مختلف أرجاء العالم الإسلامي.

1- مفهوم المنهج الاجتماعي.

المنهج لغة: «نهج: طريق نَهَجُ: بين واضح، وهو النهج... ومنهج الطريق: وضحه... والمنهاج: الطريق الواضح، ونهجت الطريق سلكته، وفلان يستنهج سبيل فلان: أي يسلك مسلكه»¹.

المنهج اصطلاحاً:

المنهج يعني السمة الغالبة على مجموعة من الظواهر الفكرية أو السلوكية، وهو أيضا بمعنى الطريق أو الطريقة المحددة التي توصل الإنسان من نقطة إلى نقطة أخرى.

المنهج العلمي قوامه الاستقراء، وهو يعني تتبع الجزئيات للوصول إلى حكم كلي؛ أي إلى قوانين عامة.

إنّ المنهج الاجتماعي في الدراسات هو تناول الظواهر بمنظور اجتماعي؛ أي دراسة النظم الاجتماعية ودراسة الإنسان في علاقته بالبيئة، والمجتمع، والثقافة، وغير ذلك. ويتخذ علماء الاجتماع طرقاً مختلفة في تحليلهم للمجتمع الإنساني من حيث

¹- ابن منظور، لسان العرب، تج: عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 2013، ج2، ص:169.

المستويات التي يشملها التحليل الاجتماعي، «باعتبار أنّ المجتمع يتكون من مجموعة من الناس يؤدون أدواراً في مواقف، وجماعات، وتنظيمات وفقاً لمعايير معينة ينتجها النظام الاجتماعي من خلال أوجه النشاط الإنساني المختلفة»¹.

وتتعدّد الدّراسة الاجتماعية بتعدّد المجتمعات التي يمسّها التحليل، فقد تكون دراسة حالة إذا كانت تستهدف مجتمعا واحداً للكشف عن العلاقات المتبادلة بين مكوناته وتصير دراسة مقارنة إذا تعدّت الدّراسة المجتمع الواحد؛ حيث تهتم بعلاقة التشابه، والاختلاف بين المجتمعات، وكذا علاقات التأثير والتأثر بين المنظومات الاجتماعية «لقد كان المؤرخ وعالم الاجتماع عبد الرحمن ابن خلدون بصدد إعداد كتاب (تاريخ العرب والعجم ومن عاصرهم في ذوي السّلاط الأکبر) حيث لاحظ الأخبار التي أوردها المؤرخون قبله تختلط بالأساطير، والزوايا؛ بحيث يعدّ أمراً مستحيلاً التمييز بين الصّحيح والزائف من الأخبار التاريخية، وهنا حاول أن يصطنع منهجا علميا معيناً يمكنه من عملية التمييز بين هذه الأخبار، وكان في هذه الحالة سابقاً إلى اكتشاف علم العمران البشري، أو الاجتماع الإنساني بلغته، وعلم الاجتماع بلغتنا؛ إذ ذهب إلى أنّ معرفة القوانين والانتظاميات التي تحكم حركة المجتمع هي الشرط المسبق الذي يُعرف من خلاله الصّحيح من الباطل فلذلك يمكن القول إن ابن خلدون اكتشف علم التاريخ الحقيقي باكتشافه لعلم الاجتماع»². ورغم أنّ المنهج الاجتماعي يتعرّض للظاهرة في سياقها الاجتماعي؛ إلاّ أنّه تتداخل فيه الرّؤى التاريخية، والتفسيّة، والفلسفية لآثارها مجالاً للدّراسات الإنسانية، لأنّ المجتمع مكوّن من أفراد تصنعهم الأحداث التاريخية، والعوامل النفسانية في إطار موروثهم الثقافي والدينيّة.

2- المنهج الاجتماعي عند مالك بن نبي: إنّ فكرة التغيير الاجتماعي شغلت فكر ابن نبي منذ بداية وعيه بعالم الأفكار، فمشكلة الأفكار بوصفها جزء من الوظيفة الرّسالية للمثقّف المسلم، لا يستصعب الاستفادة من أقوال سابقه، فيستبعد من البداية فكرة البداية الصّفرية، ويتطلّب ذلك تمحيص جهود السابقين والمساهمة في نقد المسالك الراهنة بما يفضي إلى مسلك التغيير الاجتماعي المحدد بوجهته الثقافية، وهو قول مالك بن نبي: «وعلى هذا نجد أنّ أهمية الأفكار في حياة مجتمع معين تتجلى في صورتين: فهي إمّا تؤثر بوصفها عوامل نهوض بالحياة الاجتماعية، وإمّا أن تؤثر على عكس ذلك بوصفها عوامل ممرضة تجعل النموّ الاجتماعي صعباً، أو مستحيلاً»³ فمالك بن نبي ينظر إلى الأفكار والمشكلات من منظور اجتماعي، فهو مثلاً يتحدث عن ظاهرة الاستعمار؛ إذ يقول: "... لم تشهد الإنسانية تعطشاً عارماً إلى الذهب، كما كان ذلك بعد اكتشاف المستعمرات، ورغم ذلك فنحن لا نريد أن نصدر حكماً أخلاقياً، بل إنّنا ننظر إلى المسألة نظرة اجتماعية»⁴، فهو يرى أنّ الصعوبات في مجتمع ما يصنعها الفرد بدوره في هذا المجتمع، فهذا الفرد لا يتغيّر بوصفه كائناً حياً في حدود التاريخ، وإنّما يتغيّر بوصفه كائناً اجتماعياً يتغيّر الظروف، لأنّ التاريخ لا يمكنه أن يغيّر شيئاً في التكوين المادي للإنسان لكنّه يستطيع أن يزيد، وأن ينقص من ميزاته الاجتماعية، وفعاليتها في هذا المجتمع، ولذلك يجب أن يُنظر إلى الإنسان ومشاكله الاجتماعية من جانب فعاليتها دون إغفال جوانبه الأخرى، فإذا كان الإنسان هو مصدر الصعوبات والمشكلات التي تعترض المجتمع؛ فإنّ تأثيرها يبدو عليه باعتباره عنصراً من هذا المجتمع.

لذلك فالمسألة في نظر مالك بن نبي هي قضية مجتمع وليست قضية فرد، لأنّ المصاعب والمشاكل التي تهاجم الفرد وتعرضه في الطريق ليس مصدرها تكوينه المادي الخاص، ولكن صلته بالمجتمع الذي بدوره يجب أن ينظر إلى الفرد كعنصر فعال فيه، وليس مجرد كائن بشري وفي شأن ذلك يقول: «المجتمع المتحضر يكفل الضمانات للفرد مهما كانت قيمته، والمجتمع المتأخر لا

¹ - محمود عودة، أسس علم الاجتماع، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ص: 117

² - نفسه، ص: 117.

³ - مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط14، 2009، ص: 14.

⁴ - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط2006، ص: 47.

يقدم الضمانات ولا يمكنه تقديمه لأن الحياة تتكامل بوصفها كلاً...¹ فالتاريخ هو تسجيل لحركات مجتمع معين، وعملياته المختلفة، والإنسان باعتباره هو محرك هذه التحوّلات والتفاعلات بكونه معادلة شخصية صاغها التاريخ، وأودعها تجارب سابقه، وعادات ثابتة تحدّد موقف الفرد أمام المشكلات بما يكون لهذا الموقف من القوة أو الضعف من الاهتمام، أو التهاون من الضبط أو عدم الضبط، ولذلك يجب أن ينظر إلى هذا الفرد من خلال العودة إلى ماضيه لمعرفة مدى صلاحيته في العمليات الاجتماعية، والمشروعات المخطّطة القائمة عليه، وما يمكن تعديله فيه حتّى يصبح منسجماً مع ضرورات الخارج، وحاجات الداخل، فالمجتمع نفسه هو مصدر التطوّر والنهضة الحضارية التي يحدثها التغيير من خلال العلاقات بين أفرادها إذ يعرف مالك بن نبي المجتمع «بأنه الجماعة التي تغير دائماً خصائصها الاجتماعية بإنتاج وسائل التغيير مع علمها بالهدف الذي تسعى إليه من وراء هذا التغيير»².

فالمجتمع عند ولادته يجب أن يبدأ أولاً ببناء شبكة العلاقات الاجتماعية بين أفرادها ضمن كيان ثقافي، لأنّ المجتمع يتكون من أشخاص وأفكار وأشياء وغنى المجتمع يقاس مبدئياً بما فيه من أفكار لا بما فيه من أشياء، ولكن الأفكار وحدها لا تكون فعالة إلا بوجود شبكة علاقات متينة بين أفرادها. «والمجتمع كما يرى مالك بن نبي يتراوح في كثافة شبكة علاقاته الاجتماعية بين حدين: الحد الأول شبكة علاقات اجتماعية يكون فيه المجتمع في دروة نموه، ويكون كل فرد مرتبطاً عنده بمجموع أعضاء المجتمع، وأمّا الحد الثاني فهو حالة المجتمع المتفسخ الذي تحول إلى أفراد لا رابط بينهم»³.

فأفراد المجتمع تجمعهم الروابط الاجتماعية على رقعة ترابية يصفها التاريخ عبر الحقب الزمانية لذلك يعوّل مالك بن نبي على شروط ثلاثة يجب أن يتوفر عليها المجتمع لبناء حضارته، ويربطها دائماً بالسياق الاجتماعي، فالإنسان بمفرده لا يمكن أن يؤدي شيئاً بمعزل عن المجتمع؛ لأنّ الحضارة لا تبنى باستيراد منتوجات حضارية موجودة وتكديسها، وإتّما بما تنتجه عبقرية المجتمع، ولا يتأتّى ذلك إلا بتوفير العناصر الثلاثة وإعطائها حلاً في إطار المجتمع وهي: الإنسان، وتحديد شروط انسجامه مع سير التاريخ، مشكلة التراب وشروط استغلاله في العملية الاجتماعية، مشكلة الوقت وبث معناها في روح المجتمع ونفسية الفرد.

فمالك بن نبي يرهن وجود الحضارة بهذه الشروط الثلاثة، لأنّ الحضارة هي الحاضنة للتقدم، وهي المحيط المناسب لإشاعة ثقافة العلم. وإيماناً من مالك بن نبي أنّ المجتمع هو من يصنع العبقرية والحضارة بما ينتجه من أفكار في إطار المقومات الثلاثة التي أعدها شروطاً للإقلاع الحضاري، جاءت جهود مالك بمنظور اجتماعي لأنّه يرى أنّ وظيفة المجتمع تتجاوز حفظ النوع وتتعداه إلى مستوى أعلى فيقول: «إذا قررنا أنّ المجتمع وظيفته حفظ كيان الفرد، وتحقيق أهداف جماعته فإنّ هذه الأهداف في مستوى الحشرات حفظ النوع، ولكنّها في مستوى الإنسان تفوق ذلك، فالقضية عن المجتمع الإنساني ليست قضية حفظ النوع، لأنّ التناسل قد وفرته الحياة الطبيعية، فالإنسان يعيش لأهداف أخرى والمجتمع الإنساني يقرر فكرته في مستوى آخر، ليس مستوى البقاء، ولكن مستوى تطوّر النوع ورفقيته، هذه هي حقيقة المجتمع التي يبني عليها كيانها»⁴ وبالعودة إلى فكرة التغيير التي يجب أن يزرعها المثقف، إنّها إحدى واجباته تجاه مجتمعه، فقد حمل مالك بن نبي على عاتقه هذا الواجب فانطبعت أفكاره بهذا الطابع الاجتماعي؛ لأنّها تحمل الوصف، والتحليل للظواهر التي تميّز المجتمع مقترحة معها الحلول التي يجب أن تكون نابعة من ذات المجتمع في إطار محيطه الثقافي، والديني لبيبي حضارته؛ لأنّ بناء الحضارة في الحقيقة يتوقف على قدرة

¹- مالك بن نبي، تأملات، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 2013، ص:29.

²- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، تر: عبد الصابور شاهين، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط6، 2006، ص:17.

³- محمد شاويش، مالك بن نبي والوضع الراهن، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 2007، ص:32.

⁴- مالك بن نبي، تأملات، ص:158.

المجتمع على حلّ مشكلاته التي تعيقه، وتذليل الصعوبات التي تقف دون نموه، وتقدّمه، ومن هذا المنطلق كانت جهود مالك بن نبي تدور في فلك عنوان جامع هو مشكلات الحضارة.

3- أسباب ودوافع انتهاج مالك بن نبي للمنهج الاجتماعي: إنّ المتبّع لسيرة مالك بن نبي الذاتية، ولعدد مؤلفاته التي يغلب عليها طابع المنهج الاجتماعي يتبدّى له تأثير الرجل بحالة المجتمع، ووعيه بدوره كمثقف مسلم في هذا المجتمع، ولذلك يمكن أن نحصر دوافع مالك ابن نبي إلى هذا النهج في جانبين، جانب ذاتي يتمثل في شخصيته، وتكوينه الفكري، وجانب اجتماعي يتمثل في حالة المجتمع، وما يعانیه من تخلف.

أ- الجانب الذاتي: يتمثل الجانب الذاتي للمفكر في شخصيته كإنسان مليء بالعواطف، والأحاسيس تجاه المجتمع، والقضايا الإنسانية من جهة، وفي فكره، وما ساهم في صقل هذا الفكر من ثقافة، ومطالعة، ونتاج التأثير بها من جهة أخرى.

إنّ مالك بن نبي يجمع في شخصيته خطين، فهو من جهة شخصية عاطفية يهيم بالتجريد، وأحلام الفلاسفة إذ يقول عن نفسه: «فأنا شديد التأثير بالحدث، وأتلقى الصدمة بكلّ مجامحي، وبانفعالية تستطيع أن تنتزع مني دموع الحزن حين يثير الحدث الحبور من حيث المبدأ»¹ فهو هنا يفصح عن عاطفة جياشة تحركها الأحداث، وقد ذكر أنّه بكى لهزيمة الجيش الفرنسي أمام الألمان رغم كرهه للفرنسيين بقوله: «لقد بكيت لهزيمة الجيش الفرنسي، وفي ذلك اليوم رأيت في ذاتي عنصرا آخر كشف كلّ التعقيد في ضمير مسلم»²، وقد يكون قاصدا بالعنصر الآخر ذلك التناقض، وعدم التوازن بين القيم الأخلاقية، وتطبيقاتها على الواقع، فكره للاستعمار الفرنسي، وهزيمته التي كانت مثار شفقة في نفسه لما يميّز به من أحلام الفلاسفة، فهو يتصوّر حولا لوضع العالم الإسلامي، ويحلم بتجسيدها، ويحاول الإسهام فيها فقد كتب رسالة إلى سفارة اليابان يدعو حكومتها للتدخل باسم التضامن الآسيوي لحل الخلاف بين الملك عبد العزيز آل سعود، وإمام اليمن حفاظا على الجزيرة العربية من التمزق، ومن جهة أخرى نجد في مالك شخصية علمية صارمة، لها معرفة دقيقة وارتباط شديد بواقع الأمة الإسلامية، ومن خلال اطلاعه الواسع على الثقافة الغربية يطرح المقارنات، والتحليلات، ويهتم بكلّ جزئية، وبكلّ حادثة، ويبدأ عملية التحليل، والتركيب، فعندما أراد القيام بعمل علمي مع ابن الساعي* أخفقت المحاولة فعلق على ذلك قائلا: «لم أكن أعلم أنّ العمل الجماعي بما يفرض من تبعات؛ إنما هو من المقومات التي فقدها المجتمع الإسلامي، ثمّ لم يسترجعها بعد خصوصا بين مثقفيه»³.

ويقول في موضع آخر في تحليله للاستعمار: «من الواضح أنّ الاستعمار في صورته هذه يعد عنصرا جوهريا في فوضى العالم الإسلامي، فهو لا يدخل فقط بمقتضى العلاقة المباشرة بين الحاكم والمحكوم، بين المستعمر والمستعمر، وإنما يتدخل في صورة خفية في علاقات المسلمين بعضهم ببعض»⁴، هذه شخصية مالك التي أثرت في الآخرين جعلت الكثير ممن عاشرهم يرون فيه الإنسان قبل المفكر، يقول فيه عبد العزيز الخالدي عند تقديمه لكتاب شروط النهضة: «ليس مالك بن نبي في الواقع كاتباً محترفاً، أو عاملاً في مكتب منكباً على أشياء خادمة من الورق والكلمات، ولكنّه رجل شعر في حياته الخاصّة بمعنى الإنسان في صورته الخلقية، والاجتماعية، وتلك هي المأساة التي شعر بها مالك بن نبي بكل ما فيها من شدّة، ولكنّ ما صادف في تجاربه الشخصية من قسوة، وهي التي تقدّم المادة الأساسية لمؤلفاته سواء الظاهرة القرآنية، أم الدّراية التي يقدمها اليوم لأنشودة

¹- مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط2، 1984، ص:137.

²- نفسه، ص:137.

* ابن الساعي: هو صديق مالك بن نبي ورفيق دربه.

³- نفسه، ص:235.

⁴- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص:109.

بهيجة يحيي بها كوكب المثالية الذي يسجل فجر الحضارات منذ العصور المظلمة، ولكن هذه الأنشودة ثمرة عقل يحاول فتح أفاق عملية للنهضة العربية الإسلامية التي يطالب بها في الجزائر، وهو يكشف لنا عن مفهومها الأليم فإذا كان دقيقا حساسا إلى هذه الدرجة، فليس معنى ذلك أنه رجل عقل مغرم بالتجريد، أو أنه أديب فنان مولع بالصور والجمال، فإنّ الذي يأسره ويستولي عليه إنّما هو الرعشة الإنسانية ... الألم، الجوع، الجهل»¹

ويقول فيه الدكتور محمد المبارك عند تقديم كتاب (وجهة العالم الإسلامي) «إنّ مالكا لا يبدو في كتابه هذا مفكرا كبيرا وصاحب نظرية فلسفية فحسب؛ بل داعيا مؤمنا يجمع بين نظرية الفيلسوف المفكر، ومنطقه، وحماسة الداعية المؤمن، وقوة شعوره، وإنّ آثاره في الحقيقة تحتوي تلك الدفعة المحركة التي سيكون لها في بلاد العرب أولا، وفي بلاد الإسلام ثانيا أثرها المنتج، وقوتها الدافعة، وقلما استطاع كاتب مفكر أن يجمع كما جمع بين سعة الإطار، والوقفة التي هي موضوع البحث، وعمق النظر، وقسوة الإحساس، والشعور، إنّني لا أقول إنّ ابن نبي؛ ولكنّي أقول إنّته ينهل من نفحات النبوة، وينابيع الحقيقة الخالدة»².

كما كان مالك بن نبي يملك شخصية أخلاقية ملتزمة بالسلوك الإسلامي، ظلّ يذكر دائما الدور التربوي الذي تركته في نفسه، وسلوكه جدّته لأمّه حين أخذت بيده طفلا إلى عالم الخير، والقيم الإسلامية، ويذكر من عايشه في القاهرة أنّه كان يميل إلى البساطة في العيش لا يهتم كثيرا بمأكله، وكان حسن المعشر يحترم الصداقة، ويهتم كثيرا بضيوفه، كما كان ميالا للجمال محبا للنظافة، والنظام، ويقر بالفضل في ذلك لزوجته الفرنسية، كما تميّز في حياته بعلو الهمة، فقد واجه صعابا كثيرة سواء في الجزائر، أم في فرنسا، وعانى كثيرا في البحث عن عمل، ولم يضعف، ولم يدعن، ولم يستسلم، وظل صابرا متجلدا طويل النفس، ولعلّ نشأته في أسرة متدينة، ومكافحة ضد الاستعمار صنعت منه هذه الصفات، فجده هاجر إلى ليبيا أنفة من الخضوع إلى الاستعمار، « وكان جدي وجدتي يتشبثان برصيدهما التاريخي الأصيل، بتلك التقاليد، وبهذه الروح استطاعت البلاد أن تعود لصياغة تاريخها من جديد»³.

هذه السمات البارزة في شخصية هذا المفكر وبعض الشهادات حوله سمات جعلت منه مصلحا اجتماعيا ألم بالعديد من جوانب المجتمع الإسلامي، وحلّ لها، ووصف لها الحلول التّاجعة، وما كان ليقوم بذلك إلا لأنه كان يشعر بأنّه جزء من هذا المجتمع وعليه واجب اتّجاهه.

ب- تكوينه الفكري وثقافته الإسلامية: ولد مالك بن نبي في عصر سمع فيه قصص الاحتلال الفرنسي المرعبة، وعاش مأساة بلده؛ حيث الاستعمار يخطط لشلّ فاعليته، وتحويله إلى فريسة يسهل التهامها، فقد مارس الاستعمار كلّما من شأنه إن يطمس هوية هذا المجتمع، وهذا الوطن، وقد عاشها ابن نبي ككلّ الجزائريين، يقول الأستاذ محمد المبارك في تقديمه لكتاب وجهة العالم الإسلامي: «إن المؤلف نفسه عانى هذه التجربة فكريا ونفسيا لأشدّ ما يعانها إنسان مثقف مرهف الشعور والحس»⁴ لقد عاش مالك هذه المأساة يوما بيوم في المدرسة الفرنسية، وفي تبسة وفي قسنطينة، ورأى كيف بدأ المجتمع يتحوّل عن فطرته، وكيف صارت السيادة للصعاليك، بمساعدة الإدارة الفرنسية، وكيف بدأت ملكية الأراضي تنتقل من أبناء البلد إلى المستعمر بواسطة اليهود، كما عاش في فرنسا مأساة الجالية الجزائرية، أو كما يسمونهم أبناء المستعمرات، من الأمية، والجهل، وشظف العيش، والتّظرة الدونية للمجتمع الأوروبي إليهم، هذه التجربة المرّة، وهذه الشّهادة على الحالة الاستعمارية

¹- مالك بن نبي، شروط النهضة، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، دط، دت، ص: 08.

²- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص: 14.

³- مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن، ص: 20.

⁴- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص: 09.

أعطت مالكا القدرة الفائقة على تحليل نفسية المستعمر، والمستعمّر، واكتشاف أساليب الاستعمار الماكرة الخبيثة «نراه يستغل جهل الجماهير، لينشئ حول الفكرة منطقة فراغ وصمت لعزلها عن المجتمع»¹.

كذلك ولد عند مالك فكرة عن الاستعمار، كما أنّ مالكا كان من بين أبناء الجزائريين الذين رافقهم الحظّ في دخول المدرسة حيث بفضل قراءته المتعددة التي كانت إلى جانب تجاربه الحياتية موجهة أساسيا لأفكاره، فقد قرأ كتباً في علم النفس، والاجتماع، والأدب، وكلّ ما وصلت إليه يده من صحف، ومجلات عربية، وفرنسية كانت تصدر أيام دراسته. «لقد قرأ مالك لأدباء فرنسا مثل: لامارتين ولأمريكي جون ديوي كتابه (كيف تفكر) واطلع على كتابات المستشرقين ككتاب (الإسلام بين الحوت والدب) لأوجين يونغ وكتاب (تحت ظلال الإسلام الدافئة) لإيزابيل هارت»².

رغم تعمقه في الفكر الغربي، لكن ذلك لم يكن ليأسره في تلك الحضارة الغربية، وهنا كانت ثقافته الإسلامية هي التي صنعت الفارق في عموم فكره، فمالك بن نبي نفسه يعترف في مذكراته أنّ ما كان يردّه عن الغلوّ في الاتجاه الفكري الغربي إنّما هي دروس الفقه والتوحيد، ودروس العربية في قسنطينة، ومن قراءاته لمجلة الشهاب التي كان يصدرها ابن باديس، ورغم الصعوبات والعراقيل التي كانت تفرضها سلطات الاستعمار على المطبوعات العربية استطاع مالك بن نبي أن يتّلع على (الإفلاس المعنوي للسياسة الغربية في الشرق) لأحمد رضا و(رسالة التوحيد) لمحمد عبده و(طبائع الاستبداد) للكواكبي ومقدمة ابن خلدون، وبالرغم من أنّ مالك بن نبي لم يكن من حفظة القرآن الكريم والحديث الشريف إلاّ أنّه كان على دراية واسعة بالتاريخ الإسلامي، وذا قدرة فائقة على فهم الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة خاصة ما تعلق منها بالتغيير.

مؤهلاته العلمية: إنّ دراسة مالك بن نبي للعلوم التطبيقية كان لها الأثر في أن تجعل منه يخضع كلّ شيء لمقياس دقيق في الكم والكيف مع تحديده للألفاظ والمصطلحات، حيث لا يبدو كلامه إنشائيا لملء الصفحات وتكثير سوادها، بل مختصرا دالا، ومن ذلك استعماله الصيغ الرياضية في توضيحه بعض القضايا الفكرية كمسألة العوالم الثلاثة المنتجة للحضارة التي يعبر عنها بقوله: «وبعبارة أخرى كل من العوالم الاجتماعية الثلاثة يتفق مع الصيغة التحليلية التالية: ناتج الحضارة = إنسان + تراب + وقت»³ وتجدد يحلل الموضوع إلى عناصره الأولية ثمّ يعيد تركيبه من جديد في خطوة تبنى أن الجانب التقني الذي يحوزه وفي ذلك يقول فيه عبد العزيز الخالدي: «وتكوين المؤلف كمهندس ساعده دون شك في التصوّر الفني للأشياء»⁴، بالإضافة إلى رحلاته فالرجل قضى حياته مرتحلا متنقلا بين بلدان مختلفة، وبيئات متباينة، ممّا أثر في دقة ملاحظاته، وسعة معلوماته وأفاقه، فقد عاش في الجزائر وفرنسا ومصر وزار بعض البلاد العربية والتقى بأدباء ومفكرين كبار.

ج - الجانب الاجتماعي: لم يعيش مالك بمعزل عن المجتمع، بل عاش مأسية ورأى كيف كان الاستعمار يعمل جاهدا لطمس هوية هذا الوطن، وفي خضم ذلك كان يعيش مآسي المجتمع العربي والإسلامي بكل جوانحه، فكان لذلك الأثر البالغ في تكوينه الفكري، لأنّ حالة المجتمع فرضت عليه التفكير في حلول لهذه المشاكل ومنها:

ظاهرة الاستعمار: لقد عانت الشعوب الإسلامية من ظاهرة الاستعمار وما حملته عليها من ويلات، وتدهور مسّ جميع مناحي حياتها، فقد أتى على كلّ المقومات المادية والمعنوية، ولعلّ الجزائر هي أكثر البلدان الإسلامية التي عانت من همجية الاستعمار لما أصابها منه من نهب لخيرات المادية، بل حاول بكل الوسائل طمس هويتها، «فلم يمضي على احتلال الجزائر سوى

¹- مالك بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط10، 2011، ص: 16.

²- محمد العبدية، مالك بن نبي مفكر اجتماعي ورائد إصلاح، دار القلم، دمشق، سوريا، ط1، 2006، ص: 52.

³- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص: 29.

⁴- مالك بن نبي، شروط النهضة، ص: 10.

شهران حتى أصدر إثرهما المحتل أمرا في 08 سبتمبر 1830 يقضي بالاستيلاء على الأوقاف الإسلامية التي تموّل الخدمات الدينية، والثقافية والتعليمية والاجتماعية للمسلمين الجزائريين» فكان من الطبيعي أن يلقى هذا الاستعمار الكره والمقاومة من طرف كل مسلم حرّ، ومالك بن نبي باعتباره فردا من هذا المجتمع الإسلامي كان ينظر إلى الاستعمار نظرتين، نظرة يتقاسمها مع جميع أفراد المجتمع وهي نظرة الضحية إلى الجاني وما تحمله من كره وبغض، أمّا نظرتة الثانية فهي نظرة المثقف المسلم الذي يحلّل الظاهرة ويبحث في أسبابها وتداعياتها وما يترتب عنها، فمالك بن نبي يرى أنّ الاستعمار لا يمارس استنزاف الخيرات المادية للمجتمع فحسب، بل يتعداه إلى ما هو أخطر في كيان المجتمع المسلم، إنّه يمارس معركة صراع فكري في هذه المستعمرات، «إنّه سوف يواصل في الوقت نفسه حربه ضد الفكرة المجردة بوسائل ملائمة أكثر مرونة، ويستعين من أجل ذلك بخريطة نفسية للعالم الإسلامي، وهي خريطة تجري عليها التعديلات الضرورية في كلّ يوم. يقوم بها رجال متخصصون مكلفون برصد الأفكار، إنّه يرسم خططه الحربية ويعطي توجيهاته العلمية على ضوء معرفة دقيقة لنفسية البلاد المستعمرة معرفة تسوّغ له تحديد العمل المناسب لمواجهة الوعي في تلك البلاد حسب مختلف مستويات الطبقة المثقفة، فيقدم للمثقفين شعارات سياسية تسد منافذ إدراكهم إزاء الفكرة المجردة»¹.

فالبلاد الإسلامية المستعمرة يمارس فيها الاستعمار جريمة بشعة هي قتل الوعي لدى هذه الشعوب، فغريزة حب السيطرة هي قبل كل شيء سيطرة فكرية، فإذا تحققت الهزيمة الفكرية فالهزائم الأخرى تتوالى بشكل حتمي، فالاستعمار كما يعنيه مالك بن نبي هو استعمار مشترك هدفه إخضاع الملايين من البشر لسلطوته وسلطانه وتسخيرهم لخدمته «وهنا نجد سمة الاستعمار المشترك، اعني الاستعمار الذي يمر من المرحلة المحلية إلى الدولية بالتجاهل نفسه وعدم الاكتراث بمطامح وآلام ملايين المستعمرين»².

فالاستعمار بالإضافة إلى سيطرته على كل ما هو مادّي في البلاد المستعمرة، يسيطر أيضا على حياة الشعوب وأفكارهم، ويوجهها حيث أراد، فهو يتدخل في أتفه تفاصيل الحياة اليومية» هكذا يحدق الاستعمار بحياة المستعمرين من كلّ جانب ويوجهها توجيهها ماكرا لا يغفل أتفه الظروف وأدق التفاصيل»³.

ولذلك يُعتبر عنصرا جوهريا في فوضى العالم الإسلامي الذي لا يمكنه أن ينهض من سباته ويبلور فكرة التحرّر؛ حيث أنّ الاستعمار ذاته مثلما هو سبب خنوع هذا المجتمع المسلم واستسلامه، فهو أيضا مدعاة التوحد والنهوض؛ إذا تبلورت فكرة التخلّص من الاستعمار لدى الشعوب الإسلامية.

ظاهرة التخلّف: يعتبر التخلّف أحد المعضلات التي يتخبط فيها العالم الإسلامي، وهو الحجرة العثرة التي تحول دون إقلاعه باتجاه الحضارة، فإذا كان التخلّف يبدو للعامّة أنّه نتيجة السياسة الاستعمارية التي تعرّضت لها جلّ الدول الإسلامية؛ إلّا أنّ مفكرا مثل مالك بن نبي وإن سلمنا أنّه يشترك مع العامّة في نفس النظرة؛ فإنّه ممّا لا شكّ فيه أنّ ظاهرة التخلّف في حدّ ذاتها قد شغلت فكره فانكب على دراستها وتحليلها ورصد حركة هذا المجتمع المتخلف والغوص في نفسية أفرادها، ولذلك نجد مالك بن نبي ينقل هذا المجتمع الذي سلّم بحتمية واقعه ولا يحاول تغيير وضعه، من هنا ربط مالك بن نبي قضية التنمية بإرادة المجتمع من منطلق قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾⁴ فكلّ عقبة تسهل أمام إرادة التغيير .

¹- مالك بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، ص:16.

²- مالك بن نبي، فكرة الإفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ، تر: عبد الصابور شاهين، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط7، 2009، ص:64.

³- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص:109.

⁴- سورة الرعد، الآية:11.

إنّ مالك بن نبي لا ينظر لظاهرة التخلّف من جانبها الاقتصادي فقط، بل من كونها قضية إنسان لأنّه لبّ المشكلة، فحلّ المشكلة الاقتصادية منحصر في الوعي الاقتصادي، ويتجلى هذا الوعي في التكوين الشّخصي للفرد، وتغيير عاداته، ونسق نشاطه، ومواقفه أمام المشاكل الاجتماعية، كما يتمثّل من جهة أخرى في الانتقال بهذا الفرد من كونه آلة في الاقتصاد الاستعماري إلى وضع إيجابي فعّال، فمالك بن نبي يميّز بين عالمين متباينين على سطح خريطة العالم، عالم جنوبي تقبّع أكثر دوله تحت التخلّف والفقر، وعالم شمالي تمثله الدول النامية التي تسير الاقتصاد وتوجّهه حسب مصالحها، أمّا الدّول المتخلّفة فهي لا تعدو أن تكون أسواقا ومصادر لعجلة هذا الاقتصاد، ولا يمكن القضاء على ظاهرة التخلّف إلّا إذا استخدم المجتمع الإنسان، والتراب والزمن لاستحداث تشكيل تنموي يكون فيه تقديم الواجب على الحق، حتّى يتسنى له خلق وسائل حضارته ونموه، إذ لا يكفي المجتمع لكي يصنع تاريخه أن تكون له حاجات بل ينبغي أن تكون له وسائل ومبادئ تساعد على الخلق والإبداع.

القابلية للاستعمار: إنّ مصطلح القابلية للاستعمار الذي وظّفه مالك بن نبي في تحليله لنفسية المجتمع لا يجب أن ننظر إليه من زاوية سلبية، فالأمة الإسلامية قد ضحّت بالنفس والنفيس وخاضت معارك بطولية في وجه المستعمر كما أنّها تشجّد كلّ إمكاناتها للنهوض من جديد، وإذ لا نشك في صدق مالك بن نبي اتجاه أمته الإسلامية وغيرته عليها وبغضه للاستعمار، ولذا سيستلزم الأمر منّا أن ننظر إلى هذا المصطلح من زاوية إيجابية لأنّ مالك بن نبي يريد أن يحلّل ظاهرة الاستعمار ويردّها إلى مسبباتها الأولى، والتي لا تنحصر في قوة المستعمر، وإنّما في تقاعس المسلمين ولا مبالاة بهم، لأنّ العالم الإسلامي كان يعيش في فوضى اجتماعية ميّزها التقاعس عن أداء الواجبات، مع قلة العلم والمعرفة أمام مكر وخداع المستعمر، وإنّ توهم المسلمين للقوة الخارقة للعدوّ هو الذي دعاهم للاستكانة وقبول الوضع المتخلّف، فكانوا فريسة سهلة أمام الغزاة، فكثير من المسلمين يعلّقون فشلهم وضعفهم على المستعمر، وهم بذلك يلحقون بأنفسهم أشدّ الضرر، قبل أن ينظروا إلى ما ألحقه بهم المستعمر من خسائر، «فقد ظلّ العالم الإسلامي خلال قرون طويلة متجمدا في أشكال متعدّدة، وهي التي أدت إلى وجود القابلية للاستعمار في مجتمع ما بعد الموحدين الذي أدى إلى وجود الاستعمار واليوم يتحرّك العالم الإسلامي نحو الغد المأمول»¹، هكذا أراد مالك بن نبي أن يبين أنّ القابلية للاستعمار نبتت من المجتمع الذي انبهر بمدنية العدو، وأرهبته قوته، لأنّه لم يكن يملك ما يجابهه به، فرضخ للأمر واستكان، والحقيقة أنّ فقدان وسائل المجابهة صنعه التخلّف الحضاري.

4- غايات وأهداف مالك بن نبي من هذا المنهج: إيماننا من المفكر مالك بن نبي أنّ التّهضة يصنعها المجتمع بالتغلب على مشاكله التي يجب أن تخضع لتحليل دقيق وموضوعي حتّى يستطيع إيجاد الحلول المناسبة لها وتلك مهمة النخبة المثقفة التي لا يجب أن تعيش بثقافتها في برج عاجي لا تصل إليه أيدي عامة الجماهير، بل ينبغي أن تكون هذه النخبة القاعدة التي ترتفع عليها الجماهير إلى مستوى الحضارة، وباعتباره أحد أفراد هذه النخبة أخذ مالك على عاتقه هذه المهمة فانطبعت أعماله بالتوجه الاجتماعي في تحليل بنية المجتمع «فقد حلّل التّهضة الإسلامية تحليلا نقديا محاولا تخليصها من العقبات التي وقفت في طريقها، ومن الطريق المسدود الذي آلت إليه مسلطا عليها صرامته المنهجية التي ترمي إلى تسليط الأضواء الكافية على المشاكل التي خلقها الاستعمار، إضافة إلى مشاكل أخذ الاستقلال، وقام بتقديم الحلول المناسبة لها»².

من هذا المنطلق الإصلاحي يسعى مالك بن نبي إلى إبراز ضرورة التغيير في المجتمع الإسلامي انطلاقا من مقوماته الدينية، والثقافية، واستثمارها في البعث الحضاري من خلال عناصره الثلاثة (الإنسان، التراب، الزمن) وذلك بإدراك

¹ - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص: 181.

² - عبد اللطيف عبادة، صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي، مؤسسة عالم الأفكار، الجزائر، ط1، 2014، ص: 49.

أ - دور الدين في إصلاح وبعث الحضارة : الدين في رأي مالك بن نبي هو العامل الذي تقوم الحضارة به وتتحلل بصورة مضطربة كلما ضعفت فاعليته « فتطور الإنسانية هو ما يحدث نموًا في مشاعرها الدينية المسجلة في واقع الأحداث الاجتماعية، تلك التي تطبع حياة الإنسان وعمله على وجه البسيطة¹» فالدين الإسلامي هو الفاعل في سلوك الجماعة والفرد، والمحرك لهم نحو أهداف سامية تحقق خير المجتمع، لأن الإسلام الذي تجدد قيمه روحاً قرآنية تحكم كل حركة في المجتمع هو الكفيل بأن يعيد الدفع التحضيري إلى المؤمنين به لكي يؤمّنهم ضد الانحراف الثقافي، أو الاستلاب الفكري، ويمنحهم طاقة الثورة لصنع التقدم بطابع تقدّمي إنساني .

ففي المجتمع العربي وفي العالم الإسلامي طاقات وخامات بشرية ومادية مؤهلة للعب الدور العالمي المطلوب ولكن باستثمار هذه الطاقات وفق المثل العليا، والقيم الإسلامية، وبشكل منظم يحوّلها إلى طاقات فعّالة، ويزيل عنها صفة العطالة، والكسل، وبتأثير من الفكرة والإطار الروحي تصبح هذه القدرات قوة اجتماعية فاعلة يؤدي فيها الإنسان دوره بالشكل الذي يليق به، هذا الأسلوب كما يراه مالك بن نبي هو الكفيل بمعالجة مشكلة ازدواج الشخصية الذي يعاني منه الكثير بين شخصيتهم في رحاب الإيمان والعبادة، وشخصيتهم الاجتماعية التي تؤدي دورها في المجتمع دون التأثير في الشخصية الأولى، وبهذا الانقسام يختل التوازن بين ما يخصّ النفس، وما يفعل في المجتمع لتسيير عجلته «فالمشكلة التي نواجهها إذن ذات جانبيين: جانب اجتماعي وجانب نفسي، وقد أرتنا جوانب التعارف السالفة أنّه لكي تعالجها من جانبيه يجب أن تكون لدينا فكرة عليا تصل ما بين الروحي والاجتماعي، وتُجري من جديد تركيب الشخص المسلم بحيث يتماثل مع ذاته في المسجد وفي الشارع»² هذه الفكرة المطلوبة التي تعيد الصلّة هي الفكرة الإسلامية. « هكذا فهم ابن نبي الإسلام منقذاً، والمسلم ممثلاً وشاهداً، والطريق تحديث مناهج التفسير واللحاق بركب العلم، فالإصلاح عنده بالعودة إلى مناخات يوفرها الإسلام كما كان الحال أيام السلف الصالح»³

فقد أثبتت التجربة أنّ الفكرة الدينية كانت هي منبع التغيير في المجتمع نحو الأفضل قبل الموارد المادية لأنّها تعطي الأولوية لبناء المجتمع من خلال العلاقات بين أفرادها، وما تتيحه من فاعلية للفرد داخل مجتمعه «فالدين الذي هو التعبير التاريخي والاجتماعي عن هذه التجارب المتكررة خلال قرون، يعدّ في منطلق الطبيعة أساس جميع التغيّرات الإنسانية الكبرى وإذن فلن نستطيع تناول الواقع الإنساني من زاوية المادة فحسب»⁴ والمجتمع المسلم عليه أن يعي أهمية القرآن كدستور للحياة، وذلك بالفهم والتمعّن في دلالاته وإعجازه لأنّه هو الكفيل والضامن لتقدم المجتمع وتطوره.

ب- إرساء فكرة التغيير في المجتمع : ينطلق مالك بن نبي في فكرة التغيير من قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾⁵ لأنّ الأمر الذي يريد تأكيده هو أنّ الروح وتغييرها هو منطلق تأسيس حضارة جديدة؛ إذ أنّ الإنسان يمثل معادلتين، معادلة تمثل جوهره بصفة إنسان صنعه من أتقن كلّ شيء صنعا، ومعادلة ثانية تمثله كائن اجتماعيا يصنعه المجتمع، وهي التي تحدد فاعليته في جميع أطوار التاريخ حيث لا يتغيّر فيه شيء، بل تتغيّر فاعليته من طور إلى طور؛ إذ أنّه لكي يتخلّص المجتمع الإسلامي من مشاكله يجب أن يصدر منه التغيير.

لقد وجّه مالك نقده لمسالك المسلمين في التغيير الاجتماعي؛ إذ يأخذ على مشاريع التغيير التي باشرت الحركات الإصلاحية كونها لم تُوفّق في تعيين أسباب الخلل؛ حيث أهملت الوظائف الاجتماعية للدين؛ إذ ليست المشكلة في أن نبرهن للمسلم على

¹- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، تر: عبد الصابور شاهين، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط6، 2006، ص:61.

²- نفسه، ص:107.

³- أسعد السحمراني، مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا، دار النفائس، بيروت، لبنان، ط2، 1986، ص: 107.

⁴- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص:154.

⁵- سورة الرعد، الآية: 11.

وجود الله بقدر ما هي في أن نشعره بوجوده، ونملاً به نفسه باعتباره مصدراً للطاقة، فغياب التفكير المنهجي في التحصيل والتأسيس والتقد لعدم مراعاة الخطة المنهجية في التغيير حيث إنّ المنهج العلمي يفرض تحليل الظواهر وفق ما تفرضه الدراسة الموضوعية لا وفق التشبي، أو الخضوع إلى سوق المعرفة، ويطرح خطة التغيير؛ إذ تبدأ بتحرير الإنسان من عُقد النقص، والإنهيار بمظاهر ما عند الأوروبيين، وتحريره من الترسبات الوراثية في مجال التواكل، والخرافة، وإعادة اللحمة بينه وبين قناعاته وعقيدته وعمله وسلوكه، وبذلك نحدد له إطاره الحضاري في مجال الثقافة والأخلاق الاقتصادية، فنقتلع ونجتث القابلية للاستعمار من عالمه الداخلي؛ كي تنطلق طاقته لتصفيته من عالمه الخارجي وبهذا السبيل تتعدّل شخصية الإنسان، ويتم توازنه وتتعالق جوانب الروح و المادة فيها.

«فنهضة العالم الإسلامي إذن ليست في الفصل بين القيم، وإنما في أن يجمع بين العلم والضمير، وبين الخلق والفن، بين الطبيعة وما وراء الطبيعة، حتى يتسنى له أن يشيّد عالمه لقانون أسبابه ووسائله وطبقاً لمقتضيات غايته، إذن الذي يرد إلى العالم شبابيه لا بد أن يكون إنساناً جديداً قادراً على حمل مسؤوليات وجوده مادياً وروحياً، ممثلاً وشاهداً، وإنساناً ما بعد الموحدين إنساناً هرم في طريقه إلى الفناء، ولكن العالم الإسلامي على الرغم من ذلك لديه قدر كبير من هذا الشباب الضروري»¹ رغم الصورة السوداوية التي يرسمها مالك بن نبي لإنسان ما بعد الموحدين إلا أنه يرى في الشاب المسلم الأمل في النهوض بالعالم الإسلامي، وخوض معركة التغيير التي تعيده إلى حلبة التاريخ من بوابة الحضارة.

ج - بعث المشروع الثقافي الإسلامي: يعرف مالك بن نبي الثقافة في كتابة شروط النهضة « بأنها مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يتلقاها الفرد منذ ولادته كراس مال أولي في الوسط الذي ولد فيه فالثقافة على هذا المحيط الذي يشكّل فيه الفرد طباعه وشخصيته...فهي المحيط الذي يعكس حضارة معينة، والذي يتحرك في نطاقه الإنسان المتحضر. هكذا نرى أن هذا التعريف يضم في دفتيه فلسفة الإنسان وفلسفة الجماعة، وأي معطيات الإنسان ومعطيات المجتمع مع أخذنا في الاعتبار ضرورة انسجام هذه المعطيات في كيان واحد»² إنّ حملات الغزو العسكري الذي تعرض له العالم العربي الإسلامي قد رافقتها حملات الغزو الثقافي عبر المدارس والاستشراق والتبشير التي جلبت إليه من الفساد والانحرافات ما لا يمد بصلة لروح الإسلام وبهذا الغزو الأوروبي الثقافي ازدادت حركة الاغتراب وقوي نفوذ الاستعمار الذي استقرّ في عمق قناعات بعض الناس بتأثير من الفكر الأوروبي، أمام هذه المعطيات بدأت الحاجة لمواجهة إشكالية الثقافة تتعاظم يوماً بعد آخر، لأنّ الثقافة هي التي تهيم المناخ الصحي اجتماعياً وتربوياً، لكي تتقوم فيها ذات الإنسان الفرد وعندها سيكون هذا الإنسان الجديد صانع الحضارة في المستقبل.

إنّ مالك بن نبي يرى المناخ المطلوب هو مناخ الروح القرآنية، والتي فقدت أثرها العملي في حياة العرب والمسلمين، لأنهم انفصلوا عنها في حالة ركود وجمود، أو في حالة تقليد لمادية أوروبية.

هذا المناخ الإسلامي يولد جواً ثقافياً ملائماً لكل فرد يجد فيه أناه المفقودة، فالثقافة المطلوبة تحقق الأمان للفرد أو الجماعة وتوجد ثقة بينهما بتخفيف النظرة العدائية التي أوجدتها الثقافات الأوروبية، فثقافة متجددة في العالم الإسلامي والعربي مطلوب منها أن تحفظ التراث من التشويه وأن تعيد صنع الحياة بنسج شبكة متماسكة من العلاقات الاجتماعية يسودها التآخي والتعاون لبناء المستقبل المتقدم؛ لأن العزة بعد الله ورسوله هي خالصة للمؤمنين العاملين.

¹ - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص: 169.

² - مالك بن نبي، شروط النهضة، ص: 83.

إن الأهمية القصوى للثقافة تتمثل في كونها حياة المجتمع وعنوان تقدمه وتطوره ورباط الوحدة بين أبنائه، وبدونها يصاب المجتمع بالتشتت والتفكك، فيتهاوى بنيانه ويسير في طريق التخلف، وتخف فيه الحركة والنشاط، ويقل عطاؤه وينضب، فتصبح تسميته للمجتمع بدون ثقافة مجتمعا ميتا، وطريقا سهلا أمام مطامع الأعداء، وبما أنّ المعارك الحديثة هي معارك الفكر فإنّ ذلك يعد بداية انتصار للإسلام من جديد؛ لأنّه دين تكريم الإنسان والإنسان فيه هو الهدف، وهو صانع المستقبل، فانتصار المسلم والعالم الإسلامي مرهون باستعادة علاقته مع الإسلام، وتحويلها إلى وظيفة اجتماعية، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَوَكَّفَنَّا بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾¹ تلك هي الغاية التي ظل ينشدها مالك بن نبي لبعث مشروع ثقافي إسلامي يخلص الفكر الإسلامي من ترسبات الغزو الغربي المعيق لتقدمه في طريق الحضارة.

5 - آثار ونتائج منهج مالك بن نبي:

إن المتابع لمسيرة مالك بن نبي والمتصفح لمؤلفاته ليكتشف أنّ مالكا شغل موقعا خاصا في الفكر الإسلامي الحديث؛ إن لم نقل أنّ هذا المفكر يشكل مدرسة خاصّة من مدارس الاتجاه الفكري الإسلامي الحديث «فطريقة مالك بن نبي في طرح مشكلة المسلمين كمسألة حضارة ومجتمع، ودعوته المجتمع الإسلامي للنهوض بعمله الخاص الدؤوب، ودون انتظار من طرف خارجي هي طريقة قيمة جدا»².

لقد تعرّض بن نبي إلى قضايا ومشاكل المجتمع الإسلامي بالتحليل والنقد واصفا لها الحلول المناسبة، فلا تكاد آثاره تغفل أي جانب من جوانب حياة المجتمع، ومن القضايا التي تعرض لها مالك بن نبي كنتيجة لتطبيق منهجه الاجتماعي الذي جعل منه طرحا مميّزا قضية القرآن وكيف فسره مالك بن نبي في ضوء تطبيقات المنهج الاجتماعي، بالإضافة إلى مسألة النخبة واستثمارها في النهوض بالمجتمع وتخليصه من حالة الوهن التي أصبح يعاني منها.

أ- تعامل مالك ابن نبي مع القرآن الكريم: لقد اهتم بن نبي بالقرآن الكريم اهتماما كبيرا، فكانت كلّ منطلقات تفكيره من هذا المعين الذي لا ينضب، فكان تعامله مع القرآن بطريقة جديدة لم يألفها المثقف المسلم، وقد تجلّى ذلك في مؤلفه (الظاهرة القرآنية) الذي يقول فيه «جوهر الموضوع الاهتمام بتحقيق منهج تحليلي في دراسة الظاهرة القرآنية، وهو منهج تحقيق من الناحية العملية هدفا مزدوجا هو أنه يتيح للشباب المسلم فرصة التأمل الناضح في الدين، وأن يقترح إصلاحا مناسباً للمنهج القديم في تفسير القرآن»³.

فمالك بن نبي لم يكن مفسرا للقرآن بالمفهوم الكلاسيكي، وإنّما أراد أن يحدث ثورة منهجية في الدراسة القرآنية كضرورة ملحّة لسدّ النقائص التي يميّز بها المنهج الكلاسيكي في التفسير الذي يعتمد على توضيح الإعجاز البياني من أجل إثبات ألوهية مصدر القرآن الكريم؛ لأنّ هذا النوع من الأدلة ذاتي بالنسبة للنخبة المثقفة التي نهلت من مناهل النزعة الديكارتية في التفكير، أضف إلى ذلك أنّ الضعف اللغوي الموجود في الأمة العربية نتيجة الأمية المتفشية في أوساط المجتمع العربي، والتيار التغريبي المنتشر في الأوساط المتخرّجة من المؤسسات الدراسية الغربية الجامعة نحو النزعة الوضعية، ممّا يتعذر على الكثيرين من أبناء الأمة العربية والإسلامية إدراك هذا الإعجاز البياني.

لذلك عمد مالك بن نبي إلى تقويم مناهج المفسرين التي لم ترضه في معظمها، لأنّها لم تنفذ إلى القرآن الكريم الذي يحرك الحياة، ويمسّ الطبيعة والضمير الإنسانيين مباشرة، فينفذ إلى مجال حياة الإنسان، وجوانب فكره ومناحي سلوكه، فالآية

¹- سورة الفتح، البية:28.

²- محمد شويش، مالك بن نبي والوضع الراهن، ص:72.

³- مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، تر: عبد الصابور شاهين، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط9، 2009، ص:53.

القرآنية تستخدم لديهم في منهجها كوسيلة منطقية تُساق لغرض تعليمي، فالقرآن بمنطقهم هذا يقدم لهم مقاييس من كل نوع، وبراهين تفحم الخصوم، وأدلة تدين بعض التقاليد والبدع التي لا تتفق وما جرى عليه السلف، وهو أيضا مجموعة من المقاييس الأدبية التي تستعملها بعض العلوم المنهجية، ورغم أنّ طريقة (رشيد رضا) وأستاذه (محمد عبده) قد أدخلت تغييرات على التفسير الكلاسيكي مما جاءت به من تجديد اهتمامات النخبة المثقفة، فهي تبقى قاصرة ومركزة حول الجدل الديني فيقول عن هذه المناهج: «ولكن يبدو أنّ جهود هؤلاء على الرغم من أنّها لا تغفل الجانب الاجتماعي في علم التفسير، لم تحدد منهجها الكامل... أمّا تفسير الشيخ (رشيد رضا) الذي اتّبع فيه إمامه الشيخ (محمد عبده) فلم يضع هو الآخر هذا المنهج، فقد كان كلّ همة أن يخلع عن المنهج القديم صفة عقل جديد، ومع أنّه لم يعدل طريقة التفسير القديم تعديلا جوهريا، فإنّه خلق بالصفوة المسلمة التي تعشق التجديد الأدبي اهتماما بالنقاش الديني»¹.

ولكن المشكلة الأساسية بالنسبة للتفسير تبقى هامة بالنسبة لاعتقاد الفرد المكوّن في المدارس ذات النزعة الديكارتية بما فيها من معارف حديثة وعقلانية، وبالنسبة لمجموع الأفكار السائدة التي تشكل أرضية الثقافة الشعبية بما تحتويه من خرافات وأساطير. من هذه المعطيات يقترح مالك بن نبي ضرورة إيجاد مذهب اجتماعي للتفسير، ومن ثمّ التفسير عن حركة الأفكار في العالم عامّة، وعن الحياة الاجتماعية بصفة خاصّة، لقد قدّم مالك بن نبي نماذج كثيرة للتفسير تستند إلى علم الاجتماع أكثر مما تستند إلى علم أصول الفقه، أو أصول التفسير، فلم يهتم بتفسيرات آيات الأحكام التي يرى أنّها من اختصاص الفقهاء، بقدر ما اهتم بالآيات المتعلقة بالتنظيم الاجتماعي والسياسي، لأنّها في رأيه تحقّق في نفس المسلم الوظيفة الاجتماعية للدين بما تبعث فيه من الفعالية الروحية؛ فتجده في كتابه شروط النهضة ينطلق من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾² فهو يقرّر بأنّ هذا النص القرآني يجب فهمه في ضوء التاريخ ولا يتحقّق ذلك إلا بشرطين هما: هل المبدأ القرآني سليم في تأثيره التاريخي؟ وهل يمكن للشعوب الإسلامية تطبيق هذا المبدأ في حياتها الراهنة؟

للإجابة عن هذا التساؤل يطرح مالك بن نبي تحليلا لدورتين من أدوار الحضارة، هما الحضارة الإسلامية، والحضارة المسيحية من الوجهة التاريخية ليخلص إلى الإجابة عن السؤال الأول، فالحضارة الإسلامية بدأت مع كلمة ﴿أَقْرَأُ﴾³ المفعمة بالقيم الدينية التي تسمو بالروح عن الخلود إلى الأرض والوقوع في وحل الغريزة، فنتج عن هذا حياة فكرية واسعة متجدّدة، وظلت في ارتقاء ونمو حتى أدركتها أمراض الأمم السابقة، فشرعت في الانحدار وهذا هو سرّ إكثار القرآن الكريم من دعوة المؤمنين إلى التأمل فيما مضى من سير الأمم، إذ الأمر الذي يريد بن نبي تأكيده هو أنّ الروح وتغييرها هو منطلق تأسيس حضارة جديدة فيقول: «ولا شك أنّ المرحلة الأولى من مراحل الحضارة التي ابتدأت من غار حراء إلى صفيين، وهي المرحلة الرئيسية التي تركّبت فيها عناصرها الجوهريّة، إنّما كانت دينية بحثة تسودها الروح»⁴ وهكذا وظّف ابن نبي أحداث التاريخ، وفلسفة الحضارة للإجابة عن تساؤله هل المبدأ القرآني سليم في تأثيره التاريخي.

أما تساؤله الثاني: هل يمكن للشعوب الإسلامية تطبيق هذا المبدأ في حالتها الراهنة؟ فيرى بن نبي أن الحلّ لهذه المشكلة الإسلامية هو بعث حضارة المسلمين من جديد، فهل الإسلام صالح لإحداث هذا التركيب؟.

قوة التركيب لعناصر الحضارة خالدة في جوهر الدين، وليست ميزة خاصّة بوقت ظهوره في التاريخ، فجوهر الدين مؤثر صالح لكل زمان ومكان، وهو وحده الذي يمنح الإنسان هذه القوة، فقد وهبها لأسلافنا من بدو الصحراء، وبهذه القوة يشعر

1- مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ص: 58.

2- سورة الرعد، الآية: 11.

3- سورة العلق، الآية: 01.

4- مالك بن نبي، شروط النهضة، ص: 52.

المسلم بثروته الخالدة التي لا يدري اليوم كيفية استخدامها بإصلاح وتغيير حاله إننا أمام منهج جديد في التفسير هو المنهج الاجتماعي لأن صاحبه يقترح لتفعيل فهم المسلمين للقرآن الكريم، والأخذ بأيديهم نحو فهم يحرك النفوس الهامدة، ويسير بها قدما اتجاه التغيير نحو الأفضل، الفهم السليم في نظره هو الفهم الذي يستلهم الوقائع الاجتماعية، والتاريخية التي تقع تحت سمع الناس وأبصارهم « وهكذا نجد ذلك الطفل الذي حفظ بصعوبة سورا يسيرة من القرآن الكريم لعقم الطرائق التربوية المتبعة في الكتابات القرآنية آن ذاك، يعمل على تثقيف مواهبه بالقرآن، وينكب عليه منذ بلوغه سن الرشد إل أن وافته المنية متمعنا ومفسرا، بل ومعاتبا المفسرين ومبدعا لمنهج جديد في التفسير لو قدر له أن يطبق على القرآن كله لاستخرجت كنوز تنوء بحملها صدور البشرية قاطبة¹»

ب - الدراسة الاجتماعية للنخبة ودورها: اعتنى مالك بن نبي بالتحليل الاجتماعي للنخبة ودورها في البناء الاجتماعي في الكثير من مؤلفاته، فقد عالج قضية النخبة من جميع جوانبها وقدم الاقتراحات لتكون القاطرة التي تقود الشعب باتجاه الحضارة، وقد عرض في طرحه لمشكلة النخبة الجوانب التالية:

النخبة والمحيط الثقافي: تنطلق سوسيولوجية النخبة عند مالك بن نبي من سوسيولوجية الثقافة، لأن الثقافة عند بن نبي هي: «الجو العام الذي يطبع أسلوب الحياة في مجتمع معين، وسلوك الفرد فيه طابع خاص يختلف عن الطابع الذي نجده في حياة مجتمع آخر²» فكل عمل إذا حللناه على أنه كائن مركب؛ فإنه يشتمل على دوافع نفسية يبعثها العامل الأخلاقي من اجل أداء مصلحة اجتماعية، فالثقافة عنده ليست صادرة عن المدرسة بقدر ما هي ناجمة عن البيئة، وهي التي تجعل المتعلم فعالا.

دور النخبة في الدفاع عن أسلوب حياة المجتمع: يتمثل دفاع المجتمع عن أسلوب حياته في دفاعه عن شخصيته، وعن مبدأ إدراج أفرادها في نطاقه، وتحديد علاقاتهم به؛ بحيث يصبحون بمثابة التعريف به، كما يصبح مجتمعهم بمثابة المعرف لهم، وهكذا يصبح الإرغام الاجتماعي، والموقف النقدي للفرد مظهرا في الأساس لثقافة معينه في وظيفتها الاجتماعية، فلا يفلت أي تصرف مشين أسلوبيا في هذا المجتمع المتحضّر من طائفة النقد، ولا يفلت أي تصرف مشين سلوكا من طائفة الإرغام الاجتماعي، وعلى كاهل العلماء والنخبة المثقفة يقع عبء النقد البناء الذي يحرك المجتمع، ويرى بن نبي أن هذا الدور قد أقرّه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾³.

- **النخبة والتغيير:** لا شك أن التغيير يكون على أيدي النخبة، فمالك بن نبي رأى أن الحركات الإصلاحية التي قادها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وابن باديس حركات أثرت في النفوس، وغيّرت ما فيها من تقاليد وعلمتها أسلوبا جديدا في الحياة يتميز بالثورة، والتمرد على إنسان ما بعد الموحدين الراكد والخامل الذي يحيا من أجل إشباع غرائزه، فالفكرة الإصلاحية التي خرجت إلى الوجود قد دكت أركان الطريقية بقوة، فتلاشت فكرة الجنة التي يضمها الشيخ لمريديه بغير ثمن، ليحل مكانها مفهوم الجنة تدرك بالعمل الصالح.

النخبة والاقتباس: يبيّن مالك بن نبي كيف يكون الاقتباس المثري من التراث، ومن الثقافات، ويسمى الأفكار القاتلة تلك التي نستعيرها من الغرب، والأفكار الميتة على ما يجول في أنفسنا من أفكار فقدت الحياة وهي التي ورثناها عن عصر ما بعد الموحدين، وكانت قاتلة في مجتمع حي قبل أن تصبح ميتة في مجتمع يريد الحياة، وهي أكثر خطورة من الأفكار القاتلة لأنها تخذع الدفاع الذاتي.

¹- عبد اللطيف عبادة، صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي، ص:116.

²- مالك بن نبي تأملات، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 2013، ص:147.

³- سورة آل عمران، الآية 110.

وعليه فمن الضروري أن تعيد نخبتنا المتعلمة النظر في طرق اغترافها من التراث، لتتخلص من الأفكار الميتة الموروثة عن عهد ما بعد الموحدين، وأن تتوجه إلى الأفكار العربية في الأماكن التي تُصنع فيها الحضارة إلى الأماكن التي تتعفن فيها، إذن يجب الذهاب إلى حيث نجد حياة الأفكار وحرارتها.

السمات المرصية للنخبة المثقفة وكيفية إصلاحها: يرى مالك بن نبي في عديد النخبة المثقفة أنّها تعاني من سمات مرصية تتمثل في:

- اللفظية التي تتمثل في إيجاد الكلام والهيام بالألفاظ.
- الفخر والمديح وهما وسيلتان للتخدير والتسلية تعزل الفكر والضمير عن الشعور بالمتاعب الحقيقية.
- الجدلية والتدوير: وهو الطابع الطاغي على العمل في عصر الانحطاط.
- الشينية والتكديس: وهو وضع المشاكل ضمن حدود كمية.
- الشلل الاجتماعي الناجم عن الاستخفاف بعظائم الأمور، وتضخيم الأمور البسيطة والتهويل من شأنها.

لا يمكن التغلب على هذه الأمراض إلا برفض بصمات عصر ما بعد الموحدين، واستعادة الفعالية والعمل على دخول المعترك الحضاري وفقا للسنن الإلهية، واقتداء بمن سبقنا من الأمم، وعلى رأسها سلفنا الصالح، فهذه الأمراض تعبير عن الانحطاط الاجتماعي والثقافي، ولذلك يتحتم على مجتمع يتأهب لخوض المعترك الحضاري أن يخوض أولا مجال التغيير الثقافي والاجتماعي. «لقد انتقد مالك بن نبي النخبة لعدم فعاليتها أو لعدم تأثيرها في الواقع الاجتماعي والثقافي والسياسي، وكأنها تعلمت العلم من أجل اتخاذه حلية وزينة»¹

إعداد النخبة وتحديد دورها: إن أكبر نقد يوجهه مالك بن نبي للنخبة هو كونها غير فعالة، لأنّ الفعالية هي المنطق العملي للنشاط الإنساني سواء على صعيد الفكر أم العلم أم العمل. فالمدرسة باعتبارها هي التي تكوّن المثقفين من الناحية العلمية وتزودهم بالمعارف لتوسيع معلوماتهم وتحسين مهاراتهم وقدراتهم العقلية، غير أنّ نتيجة المدرسة قد تكون سلبية على الصعيد الاجتماعي، فمالك بن نبي لاحظ أنّ المتعلم الجزائري الذي تمّ تكوينه على مقاعد الدراسة الفرنسية كان من الناحية الاجتماعية أقل فاعلية من زميله الأوروبي رغم تفوقه العلمي، وهذا يعني أنّ فاعلية الفرد ليست على علاقة وظيفية باستعداداته الشخصية بالدرجة الأولى، لأنّ المدرسة وحدها لا تحلّ مشكلة الثقافة؛ فالم تساهم البيئة فيها، ولذلك يقترح مالك بن نبي أن ينظر إلى المدرسة من جانب صناعة القيم، وأداء الدور الثقافي في المجتمع «فبقدر ما تستعيد المدرسة معناها الأصيل تستطيع القيام بدورها الثقافي وبالتالي دورها السياسي؛ إذ السياسة حينئذ تكتسب بعدا وطنيا وعالميا بفضل ما تهب لها الثقافة من تفتح على القيم»² بهذه المقاييس يمكن للمدرسة أن تعدّ نخبة ملتزمة بدورها في بعث التغيير في المجتمع من منطلق إحساسها أنّ الحضارة لا تفتح أبوابها إلا للإنسان الفعّال المؤثّر الذي يدخل حقل العمل بشجاعة ودون تقاعس.

ويرى مالك بن نبي أنّه ليس من العيب أن تفشل هذه النخبة في عمل من أعمالها، ولكن العيب أنّها تقتنع بهذا الفشل دون أن تعود للبحث عن أسبابه، فالعيب كلّ العيب أن تفشل في مسالة معينة وترتكها دون حلّ وتنتقل إلى آفاق أخرى، وإلى مشكلات جديدة، وكأنّ المشكلة التي تمرّ بها لا وجود لها فذلك مضبعة للوقت لأنّ موقفنا الاجتماعي لا يتسم بالجهد المتواصل والإرادة، لذلك يعول مالك بن نبي على النخب الإسلامية لتكون منبع الخير للإنسانية التي هي بحاجة لصوت يناديها إلى الخير امتثالا

¹- عبد اللطيف عبادة، صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي، ص:76.

²- مالك بن نبي، بين الرشاد والتهيه، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط6، 2006، ص:90.

لقوله تعالى: ﴿ وَلَتَكُنَّ مَنَّكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ﴾¹ فحب الخير يؤدي إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبذلك لا ينبغي أن يكون حضور المسلم كشاهد في عالم الآخرين حضوراً سلبياً يكتفي بمجرد ملاحظة الوقائع والأحداث بل يجب عليه أن يسعى لتعديل مسارها وردّها إلى اتجاه الخير ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فالمسلم تقع عليه مسؤولية التبليغ، المقترنة بشرطي الاقتناع والإقناع؛ أي إقناع الآخرين بنفسه دون مغالطة؛ مع التعرّف إليهم دون كبرياء، فمالك بن نبي يضع على عاتق النخبة مسؤولية التصدي للصراع الفكري والاستشراق ويدعوها إلى ضرورة البحث عن الأساليب والخطط التي ينتهجها مدبرو الصراع، وذلك بالتخلّص من الضعف وترك الفراغ الإيديولوجي إذ يقول: « كل فراغ إيديولوجي لا تشغله أفكارنا ينتظر أفكاراً منافية معادية لنا»² وعليه يبقى على النخب الإسلامية أن تكون متيقظة صارمة مع نفسها من الأفكار التي يروج لها الاستعمار.

لقد قدّم مالك بن نبي دراسة وافية لمشكلة النخبة محدداً دورها في النهوض بالمجتمع ووضعه في سكة الحضارة واصفاً لها المنهج الذي تنتهجه، والمقاييس التي تخضع لها حتى تتمكن من التصدي للصراع الذي تمارسه النخب المعادية والتفوق عليها.

ب- الإسلام والتنمية: إنّ مشكلة التنمية عند مالك بن نبي تتطابق مع مشكلة الحضارة فهو يرى النمو حضارة، والتخلف انحطاط، لا تتكوّن الحضارة إلا إذا اجتمعت العناصر الثلاثة: الإنسان، والتراب، والزمن، بالإضافة إلى المركب الذي هو الفكرة الدينية التي تضمن التفاعل بين العناصر الثلاثة.

الإنسان: أزمة الإنسان المسلم في الركود والعزوف عن الحركة والتخلي عن السير في ركب التاريخ أنشأت في المجتمع الإسلامي عادات راکدة وضعت الفرد في خمول بينما خطت الحضارة خطوات جبارة ومن هنا كانت المشكلة الإسلامية، فعلياً إذن أن نصنع رجالاً يمشون في التاريخ مستغلين التراب والزمن والأفكار في بناء الأهداف الكبرى ولتحقيق ذلك يجب أن نفهم كيف يؤثر الإنسان في التاريخ؟

لقد ربط مالك بن نبي تأثير الإنسان في التاريخ من خلال فكره وعمله وماله، فالفكر يجب أن يكون خاضعاً للتوجيه الثقافي، والعمل موجهاً حتى نكسب أنفسنا قوة في الأساس، وتوافقاً في السير ووحدة في الهدف مع تجنب الإسراف في الجهد والزمن، وأمّا المال فيجب أن يخضع هو الآخر للتوجيه حتى يتحقق التكامل الذي يؤدي إلى حضارة، ويخرج بالمجتمع من العالم المتخلف.

التراب: عندما تكون الأمة متخلفة يكون التراب على قدرها من الانحطاط؛ إذ به ترتبط الثروة النباتية والحيوانية وبالتالي حياة الإنسان، ولذلك يجب صيانة هذا التراب وحمايته.

الزمن: يجب على الإنسان المسلم أن يعطي اهتماماً أكبر للزمن ويعرف أن التحديات واقعة، وأنّه إذ لم يعمل بأسرع ما يمكن ولم يفرض نفسه، فإن الحضارات الأخرى ستبتلعه، ولا شك أنّ الصراع بين الحضارات هو صراع من أجل البقاء لا من أجل التعايش، ولذلك على المسلمين أن يعملوا بفاعلية دون تبديد الجهد أو تضييع الوقت.

لقد عالج مالك بن نبي قضية التنمية في إطار التركيب بين هذه العناصر الثلاثة من منطلق أن العالم الإسلامي يشهد أعمالاً ونشاطات من أجل النهوض والتنمية، إلا أنها غالباً ما تصطدم بالفشل الذريع، ومرد ذلك أنّ الفكر الإسلامي أصبح مقلداً في ميدان الاقتصاد للفكر الليبرالي أو الماركسي، وكأنّ الحلول الاقتصادية في العالم الإسلامي لا تأتي إلا من هذين. فمالك بن نبي أدرك أنّ الاستعمار أدخل الرجل المستعمر في خضم العصر الاقتصادي؛ إذا به يتخذ منه آلة في جهاز نظامه الخاص.

¹- سورة آل عمران، الآية: 104.

²- مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الحديث، دار الإرشاد، بيروت، لبنان، ط1، 1969، ص: 45.

إن حل المشكلة الاقتصادية ينحصر أولاً في الوعي الاقتصادي؛ هذا الوعي الذي يتجلى في التكوين الشخصي للفرد، وتغيير عاداته، ونسق نشاطه، ومواقفه أمام المشاكل الاجتماعية، وينتقل كونه آلة في الاقتصاد إلى وضع إيجابي فعال، ويرى أن المشاكل لا تحل بصورة جذرية إلا في إطار الاتحاد الاقتصادي فلذلك صار الاتحاد والتكتل ضرورة من أجل بناء الحضارة، والانتصار في معركة الإنتاج لتحقيق الاكتفاء الذاتي وضمان العدالة في المبادلات التجارية وإرساء قواعد اقتصاد عالمي جديد «كي يكون لاقتصاد البلاد النامية فعاليتها في الخارج يجب أن يكون له نظامه الدقيق في الداخل»¹ فالخطوة الأولى في المشروع العربي والإسلامي يجب أن تبدأ من توفير القوت عن طريق تنشيط الزراعة حيث الإمكانيات متوفرة والمساحات الشاسعة من الأرض، والأهم من ذلك توافر مقومات الانطلاق دون الارتباط الأجنبي بتطبيق مبدأ أن القوت حق لكل فم والعمل واجب على كل ساعد وبذلك «كل وطن متخلف يستطيع دفع عجلته على هذا الأساس الذي يكفل سائر الحقوق ويفرض جميع الواجبات ويحقق بذلك الحركة الاجتماعية التي تتغلب على كل نوع من الركود، فمن أجل تحقيق الإقلاع هذا هو الطريق»²

«يتوجه مالك بن نبي بهذه النظرة الوحدوية التكاملية التي تملها وقائع الأوضاع الاقتصادية في القرن 20 فإذا كانت شعوب أوروبا الغربية تسعى لتنشيط السوق الأوروبية المشتركة لتقوى على خوض المواجهة الاقتصادية العالمية ودول الكتلة الشرقية وغيرها تنهج النهج نفسه فالأحرى إذن بالدول العربية وهي تنتمي إلى وحدة اجتماعية لها مقومات التكامل، وتنتهي للمقومات الحضارية أظهرها وأعطى أبعادها التقدمية الثورية الإسلام أن تفعل ذلك»³

خاتمة:

ظروف مجتمعة صنعت من مالك بن نبي مفكراً اجتماعياً فالرجل عاش محنة وطن ومأساة شعب ورأى بفكره كيف تصنع الحضارة القوة، وكيف يؤدي التخلف إلى الرضوخ والمهانة، واقترح في إطار هذا المنهج الاجتماعي عديد الحلول للنهوض بهذا الوطن، فقد عالج قضية التنمية بمنهج تحليلي صارم وفق المعطيات الاجتماعية للعالم الإسلامي لإيمانه أن التنمية لا تستورد، ولا تشتري بل هي تراكيب فكرية ومعادلات اجتماعية قبل أن تكون بحث عن الأموال من أجل العمل، والاستثمار الحقيقي يبدأ من استثمار السواعد والعقول والساعات والدقائق وكل شيء من التراب لتحقيق الحركية الاقتصادية، وعلى كل القائمين على تنفيذ المخططات السياسية والاقتصادية الاستعانة بفكر مالك بن نبي لأنه مبني على أفكار قابلة للتنفيذ، وما زالت صالحة إلى يومنا هذا، وبإمكانها تحقيق النهضة المنشودة.

قائمة المصادر والمراجع:

- 01- أسعد السحمراني، مالك بن نبي مفكراً إصلاحياً، دار النفائس، بيروت، لبنان، ط2، 1986.
- 02- عبد اللطيف عبادة، صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي، مؤسسة عالم الأفكار، الجزائر، ط1، 2014.
- 03- مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الحديث، دار الإرشاد، بيروت، لبنان، ط1، 1969.
- 04- مالك بن نبي، بين الرشاد والتهيه، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط6، 2006.
- 05- مالك بن نبي، تأملات، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 2013.

¹- مالك بن نبي، بين الرشاد، ص: 152.

²- نفسه، ص: 175.

³- أسعد السحمراني، مالك بن نبي مفكراً إصلاحياً، ص: 248.

06- مالك بن نبي، شروط النهضة، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، دط، دت.

07- مالك بن نبي، فكرة الإفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط7، 2009.

08- مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط9، 2009.

09- مالك بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط9، 2009.

10- مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط2، 1984.

11- مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط14، 2009.

12- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط6، 2006.

13- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط6، 2006.

14- محمد شاويش، مالك بن نبي والوضع الراهن، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 2007.

15- محمد العبدية، مالك بن نبي مفكر اجتماعي ورائد إصلاحي، دار القلم، دمشق، سوريا، ط2006، 1.

16- محمود عودة، أسس علم الاجتماع، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان.

17- ابن منظور، لسان العرب، تح: عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 2013.

فاعلية استخدام الإنفوغرافيك في تحصيل التلامذة وتنمية مهارات التفكير البصري The effectiveness of using infographics in students achievement and developing visual thinking skills

د. علي عفيف تجور / جامعة دمشق، سورية

Dr. Ali Afif Tajjour / Damascus University – Syria

Abstract

The aim of the research is to know the effectiveness of using infographics in student's achievement and developing visual thinking skills in the subject of social studies for the fourth primary grade. The research sample consisted of (42) male and female students. To achieve the aim of the research, the researcher designed the computerized educational material using the (Illustrator) program, the achievement test, and the visual thinking skills test. An experimental approach was used.

After applying the research and data analysis tools, the results showed the following:

- The use of infographic has a very great impact on achievement and development of visual thinking skills in the subject of social studies among fourth-grade students.
- The existence of statistically significant differences between the mean scores of the experimental group's students and the average scores of the control group's students in the postponed direct and postdated achievement test due to the teaching method, in favor of the experimental group that studied using infographic.
- The presence of statistically significant differences between the mean scores of the experimental group students and the mean scores of the control group students in the postponed direct and post-post visual thinking skills test due to the teaching method, in favor of the experimental group that studied using infographic.

Key Words : infographics, visual thinking.

ملخص

هدف البحث إلى تعرف فاعلية استخدام الإنفوغرافيك في تحصيل التلامذة وتنمية مهارات التفكير البصري في مادة الدراسات الاجتماعية للصف الرابع الأساسي، وتكونت عينة البحث من (42) تلميذاً وتلميذة. ولتحقيق هدف البحث صمم الباحث المادة التعليمية المحوسبة بواسطة برنامج (Illustrator)، والاختبار التحصيلي، واختبار مهارات التفكير البصري. وتم استخدام المنهج التجريبي.

وبعد تطبيق أدوات البحث وتحليل البيانات أظهرت النتائج ما يأتي:

- أن لاستخدام الانفوغرافيك تأثير كبيراً جداً في التحصيل، وتنمية مهارات التفكير البصري في مادة الدراسات الاجتماعية لدى تلامذة الصف الرابع الأساسي.

- وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات درجات تلامذة المجموعة التجريبية ومتوسطات درجات تلامذة المجموعة الضابطة في الاختبار التحصيلي البعدي المباشر والبعدي المؤجل تعزى لطريقة التدريس، لصالح المجموعة التجريبية التي درست باستخدام الانفوغرافيك.

- وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات درجات تلامذة المجموعة التجريبية ومتوسطات درجات تلامذة المجموعة الضابطة في اختبار مهارات التفكير البصري البعدي المباشر والبعدي المؤجل تعزى لطريقة التدريس، لصالح المجموعة التجريبية التي درست باستخدام الانفوغرافيك.

الكلمات المفتاحية: الانفوغرافيك، مهارات التفكير البصري.

مقدمة:

يواجه المهتمون بالتربية في ظل ما يشهده هذا العصر من تطور علمي وتكنولوجي، وما رافقهما من انفجار معرفي، تحديات كثيرة تُناط بكافة جوانب تعليم الدراسات الاجتماعية وتعلمها لاسيما في مجال تطوير مناهج الدراسات الاجتماعية واستراتيجيات تدريسها.

ولتنمية التفكير لدى التلامذة في ظل هذا الانفجار المعرفي أصبح من الضروري استخدام تقنيات تدريسية تهتم بالقدرات العقلية للطلاب، لذلك حاول العلماء ابتكار تقنيات جديدة يمكن أن تستفيد من القدرات العقلية الكامنة، ومن هذه التقنيات الانفوغرافيك (infographic).

وقد ظهرت تقنية الإنفوغرافيك بتصميماتها المتنوعة في محاولة لإضفاء شكل مرئي جديد لعرض المعلومات أو نقل البيانات في صور جذابة إلى الطلاب، وتعد تصميمات الإنفوغرافيك مهمة لأنها تعمل على تغيير أسلوب التفكير اتجاه البيانات والمعلومات المعقدة، حيث تساعد تقنية الإنفوغرافيك القائمين على العملية التعليمية في تقديم المناهج الدراسية بأسلوب جديد وشيق.

كما تساهم التصاميم الانفوغرافية في تبسيط المعلومات وسهولة قراءة الكم الهائل من البيانات، وجعل هذه البيانات أكثر سلاسة في قراءتها ومعرفتها، والقدرة على تحليلها بأسلوب جميل وجذاب، ويعتبر الانفوغرافيك (Infographic) إحدى

الوسائل المهمة والفعالة وأكثرها جاذبية لعرض المعلومات، فهي تدمج بين السهولة والسرعة والتسلية في عرض المعلومة وتوصيلها إلى المتلقي، أي أنه حقق تبسيط المعلومات والبيانات المعقدة وتحويلها من أرقام وحروف مملة إلى صور ورسوم شيقة مع سهولة نشره وانتشاره عبر التطبيقات الإلكترونية.¹

وتتمثل أولويات المصمم عند تصميم الإنفوجرافيات في مجال التعليم في سهولة الفهم، ثم الاستحواذ على الانتباه، ثم التشويق (Lankow, et al, 2012)؛ وأثبتت الدراسات أن معالجة المخ للمعلومات المصورة (مثل الانفوجرافيك) يكون أقل تعقيداً من معالجته للنصوص الخام، لذلك يرى البعض أن هناك حاجة ماسة إلى الرسوم الصورة والمعلومات البصرية حتى يمكن التفكير فيها واغافلة علمياً.²

ولقد قام الكثير من الباحثين باتباع استراتيجيات متنوعة لتدريس مادة الدراسات الاجتماعية، إلا أن تسارع البحث في آليات تطوير مهارات التفكير العلمي وطرق تنميته أفرد للتفكير البصري دوراً بارزاً في اهتمامات الباحثين حيث تناولته عدد من الدراسات منها: دراسة طافش (2011)، دراسة جين (2004)، لا سيما بعد ظهور نظرية الدماغ ذي الجانبين، إذ تشير الدراسات الحديثة التي أجريت على نصفي الدماغ، أنه توجد طريقتان متكاملتان لمعالجة المعلومات: الأولى خطية تسير خطوة خطوة، إذ يقوم النصف الأيسر للدماغ بتحليل الأجزاء التي تشكل النموذج أو النمط، والطريقة الثانية تعمل على إيجاد العلاقات المكانية البصرية التي تشكل هذا النموذج، ويتم ذلك في النصف الأيمن من الدماغ.

ويعد التفكير البصري نمطاً غير تحليلي، ولا خوارزمي يتكون من تداخل ثلاث استراتيجيات هي: التفكير بالتصميم، التفكير بالرؤية، التفكير بالتصور، ويعتمد على عمليتين هما الإبصار والتخيل، حيث يعتمد التخيل البصري على قوانين مجردة مرتبطة بالموقف التعليمي، فالتفكير البصري يسبق التخيل البصري.³ وتعتمد مهارات التفكير البصري على القراءة، التمييز، إدراك العلاقات المكانية، تفسير المعلومات، تحليل المعلومات، استخلاص المعنى.⁴ وينادي العديد من التربويين والباحثين بضرورة تدريس مهارات التفكير كمطلب عصري تفرضه المتغيرات الحياتية المعاصرة لأنها لا تنمو بصورة تلقائية بالنضج أو التطور الطبيعي، ولكم من خلال تعليم منظم هادف لهذه المهارات.⁵

وبناءً على ما سبق، وانطلاقاً من ضرورة تنمية مهارات التفكير لدى التلامذة لمساعدتهم على التكيف مع متطلبات العصر الحالي، يأتي هذا البحث كمحاولة لتعرف فاعلية استخدام الإنفوجرافيك في تحصيل التلامذة في مادة الدراسات الاجتماعية وتنمية مهارات التفكير البصري، وبسبب قلة الدراسات التي تناولت هذا الموضوع.

¹، معتز عيسى: ما هو الإنفوجرافيك تعرف ونصائح وأدوات إنتاج الإنفوجرافيك، (2014)، متوافر على الرابط <http://blog.dotaraby.com>، تاريخ الدخول: 2020/1/12.

² حسين محمد عبد الباسط، المرتكزات الأساسية لتفعيل الإنفوجرافيك في عمليتي التعليم والتعلم. مجلة التعليم الإلكتروني، جامعة المنصورة، العدد (15)، 2015.

³ عزو، عفانة، أثر استخدام المدخل البصري في تنمية القدرة على حل المسائل الرياضية والاحتفاظ بها لدى طلبة الصف الثامن الأساسي بغزة" المؤتمر العلمي- الثالث عشر، [مناهج التعليم والثورة المعرفية والتكنولوجية المعاصرة]، 24- 25 يوليو، 2001، الجزء الثاني، جامعة عين شمس. ص 141.

⁴ فداء الشويكي، أثر توظيف المدخل المنظومي في تنمية المفاهيم ومهارات لتفكير البصري بالفيزياء لدى طالبات الصف الحادي عشر، رسالة ماجستير، كلية التربية، الجامعة الإسلامية بغزة، 2010، ص 37.

⁵ مجدي عزيز، التفكير من منظور تربوي، تعريفه- طبيعته- مهاراته- تنميته- أنماطه، عالم الكتب، القاهرة، 2005، ص 141.

- مشكلة البحث:

شهدت السنوات القليلة الماضية تطوراً هائلاً في مجالات المعرفة كافة، حتى أصبح تقدم الدول لا يقاس بما تمتلكه من معلومات فحسب، بل بما تستطيع أن تنظمه وتوظفه من هذه المعلومات لخدمة أفرادها، ولن يتم ذلك إلا من خلال الاهتمام بالعملية التعليمية، ولمواكبة هذا التطور في إيصال المعلومات إلى الطلاب بأسهل وأسرع طريق وجب العمل على تطوير العملية التعليمية فكان تطوير المناهج إلا أن هذا التطوير كان لا بد أن يرافقه تطوير في أداء المدرسين وطرائق تدريسهم لذا وجب العمل على نقل التدريس نقلة نوعية بالاعتماد استراتيجيات حديثة وفاعلة في التدريس، إذ غالباً ما يعد سوء اختيار طريقة التدريس من الأساليب التي قد تؤدي إلى تحويل المتعلم إلى متلقن سلبي. وإن مادة الدراسات الاجتماعية لا تستطيع أن تقدم الفائدة المرجوة منها بدون التدريس الجيد والفعال الذي يتم بالإثارة والحيوة والنشاط إذ يواجه تدريس الدراسات الاجتماعية صعوبات كثيرة تحد من قدرتها على تحقيق الأهداف المرجوة منها ومن هذه الصعوبات أن أغلب معلمي مادة الدراسات الاجتماعية مازالوا متمسكين بالطريقة الاعتيادية في تدريس هذه المادة. مما يضعف قدرة التلامذة على فهم بعض المفاهيم العلمية واستيعابها أو استرجاع معلومات سبق لهم التعامل معها في دروس أو صفوف سابقة.

لذا ظهرت الحاجة إلى اتباع الأساليب والطرائق الحديثة في التدريس التي يمكن أن يكون لها أثر في تحسين تعلم مادة الدراسات الاجتماعية وجعلها مادة شيقة ومحبة لنفوس وأذهان التلامذة وإقبالهم على دراستها لفائدتها واتصالها الوثيق بحياة الأفراد والجماعات وفي تنمية تفكيرهم.

ونظراً لندرة الاهتمام بالانفوغرافيك في تدريس الدراسات الاجتماعية في البيئة السورية، ورغبة الباحث في تدريس محتوى منهاج الدراسات الاجتماعية باستخدام الانفوغرافيك لتحسين تحصيل التلامذة في هذه المادة وتنمية مهارات التفكير البصري لديهم والتي تعد من النشاطات والمهارات العقلية التي تساعد المتعلم في الحصول على المعلومات، بحيث تكون له المقدرة على تمييز المفاهيم وتحليل الصور والرسوم البصرية وإدراك العلاقات فيما بينها واستنتاج المعنى منها؛ مما استدعى الحاجة إلى إجراء هذا البحث. وفي ضوء ما سبق يتضح مدى الحاجة إلى التعرف أثر تدريس مادة الدراسات الاجتماعية باستخدام تقنية الانفوغرافيك في تنمية مهارات التفكير البصري السليم لدى التلامذة، والإسهام في إيصال المعلومات بصورة ملائمة للفهم والاستيعاب بما ينعكس على تحصيلهم الدراسي.

وبناءً على ما سبق جاء هذا البحث في محاولة للإجابة عن السؤال البحثي الرئيس الآتي: ما فاعلية استخدام الانفوغرافيك في تحصيل التلامذة في مادة الدراسات الاجتماعية وتنمية مهارات التفكير البصري؟

- أهمية البحث: تكمن أهمية البحث في:

- 1- تناول فاعلية استخدام الانفوغرافيك في تحصيل التلامذة في مادة الدراسات الاجتماعية وتنمية مهارات التفكير البصري حيث مازالت هناك ندرة في الدراسات التي اهتمت بهذه المتغيرات.
- 2- مساعدة المعلمين على استخدام تقنية الانفوغرافيك مما يساهم في استيعاب المفاهيم وتنظيم المعلومات في البنية المعرفية، وترابطها واستنتاجها واستنباطها وتنمية مهارات التفكير البصري لديهم بالطرائق غير المعتادة.
- 3- قد تفيد نتائج البحث في تأكيد أهمية الانفوغرافيك في التحصيل وتنمية مهارات التفكير البصري مما يساهم في إقناع المعلمين من جهة والمسؤولين التربويين من جهة أخرى بضرورة إثراء منهاج الدراسات الاجتماعية بمواضيع تنمي مهارات التفكير البصري، وإقامة دورات تدريبية لتزويد المعلمين بالمهارات اللازمة لاستخدامها في التعليم.

4- تقديم رؤية جديدة في مجال تدريس الدراسات الاجتماعية قد تفيد معلمي الصف الرابع الأساسي في تسهيل عملية شرح الدروس للتلامذة والخروج من النمطية ومواكبة التطور العلمي والتكنولوجي.

- أهداف البحث: يهدف البحث إلى:

1- تُعرف فاعلية استخدام الإنفوغرافيك في تحصيل تلامذة الصف الرابع الأساسي في مادة الدراسات الاجتماعية.

2- تُعرف فاعلية استخدام الإنفوغرافيك في تنمية مهارات التفكير البصري لدى تلامذة الصف الرابع الأساسي.

3- تُعرف مهارات التفكير البصري المراد تنميتها لدى تلامذة الصف الرابع الأساسي.

- أسئلة البحث:

1- ما فاعلية استخدام الإنفوغرافيك في تحصيل تلامذة الصف الرابع الأساسي في مادة الدراسات الاجتماعية؟

2- ما فاعلية استخدام الإنفوغرافيك في تنمية مهارات التفكير البصري لدى تلامذة الصف الرابع الأساسي؟

5- ما الإنفوغرافيك ومميزاته؟

4- ما مهارات التفكير البصري؟

- فرضيات البحث: قام الباحث باختبار صحة الفرضيات التالية عند مستوى الدلالة (0.05):

1- لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات درجات تلامذة المجموعتين التجريبية والضابطة في الاختبار التحصيلي القبلي، واختبار مهارات التفكير البصري.

2- لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات درجات تلامذة المجموعة التجريبية ومتوسطات درجات تلامذة المجموعة الضابطة في اختبار الاختبار التحصيلي البعدي المباشر تعزى لطريقة التدريس.

3- لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات درجات تلامذة المجموعة التجريبية والمجموعة الضابطة في الاختبار التحصيلي البعدي المؤجل.

4- لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات درجات تلامذة المجموعة التجريبية ومتوسطات درجات تلامذة المجموعة الضابطة في اختبار مهارات التفكير البصري البعدي المباشر تعزى لطريقة التدريس.

5- لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات درجات تلامذة المجموعة التجريبية والمجموعة الضابطة في اختبار مهارات التفكير البصري البعدي المؤجل.

- حدود البحث:

1- الحدود الزمانية: الفصل الأول من العام الدراسي 2019-2020.

2- الحدود المكانية: مدرسة النيريين في مدينة دمشق.

3- الحدود البشرية: عينة من تلامذة الصف الرابع الأساسي.

- مصطلحات البحث وتعريفاته الإجرائية:

- الفاعلية: هي مدى الأثر الذي يمكن أن تحدثه المعالجة التجريبية باعتبارها متغيراً مستقلاً في أحد المتغيرات التابعة.¹
- ويقصد بالفاعلية في هذا البحث: مقدار التغيير الذي يحدثه استخدام الانفوجرافيك في اكتساب مهارات التفكير البصري وتحسين تحصيل تلامذة الصف الرابع الأساسي في مادة الدراسات الاجتماعية بنسبة 75%.
الانفوجرافيك: في تحويل البيانات والمعلومات والمفاهيم المعقدة إلى صور ورموز يمكن فهمها واستيعابها بوضوح وتشويق، ويتميز هذا الأسلوب بعرض المعلومات المعقدة والصعبة بطريقة سهلة وواضحة.²
ويعرفها الباحث إجرائياً: تقنية تساعد تلامذة الصف الرابع على تنظيم المعلومات، وإيجاد العلاقات والتصورات الذهنية بين الموضوعات، من خلال تحويل المادة العلمية المكتوبة إلى لغة بصرية، مما يساهم في تحسين تحصيلهم وينمي لديهم مهارات التفكير البصري.

-مهارات التفكير البصري: مجموعة القدرات العقلية القائمة على ربط الجوانب الحسية البصرية، ومعرفة العلاقة القائمة بين الصور والرسوم والأشكال من ثم القدرة على الوصول لتفسير، وإدراك المعاني للوصول لنتائج عقلية جديدة من خلال الأشكال والرسوم التي يتم عرضها.³
ويعرفها الباحث إجرائياً بأنها: مجموعة العمليات العقلية التي تساعد المتعلم على قراءة وفهم الصور والأشكال المتضمنة بوحدة (الكهرباء والمغناطيسية)، وتمييزها، وتحليلها، وإدراك العلاقات فيما بينها، واستنتاج المعنى منها، من خلال دمج تصوراته البصرية مع خبراته المعرفية، والتعبير عنها بلغة واضحة، وتقاس بالدرجة التي يحصل عليها الطالب في اختبار المهارات الذي تم اعداده لذلك.

- دراسات سابقة:

حاول الباحث استقصاء ما أمكن من الدراسات السابقة التي أمكن الحصول عليها والإفادة منها في منهجية البحث وأدواته والإطار النظري للبحث، وقد تم عرض تلك الدراسات وفقاً لتسلسلها الزمني بدءاً من الأقدم.

1- دراسة الدهيم (2016)⁴. هدفت إلى معرفة أثر استخدام الإنفوجرافيك في تحصيل طالبات الصف الثالث المتوسط في مادة الرياضيات. وقد أظهرت النتائج وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسط درجات الطالبات اللاتي درسن باستخدام الإنفوجرافيك ومتوسط درجات الطالبات اللاتي درسن بالطريقة التقليدية لصالح المجموعة التي استخدمت الإنفوجرافيك، وأوصت الباحثة بضرورة حث المعلمين استخدام الإنفوجرافيك في تدريس الرياضيات.

2- دراسة السيد إبراهيم (2018)⁵. هدفت إلى تعرف فاعلية برنامج قائم على الإنفوجرافيك الإلكتروني في تنمية بعض مهارات استخدام الخرائط في مادة الدراسات الاجتماعية لدى تلاميذ الصف الثالث الإعدادي. وأكدت نتائج البحث على

¹ حسن شحاته، زينب النجار: معجم المصطلحات التربوية والنفسية، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط 2003، ص 300.

² محمد شلتوت: الإنفوجرافيك من التخطيط إلى الإنتاج، مكتبة الملك فهد الوطنية، مصر، ط 1، 2016، ص 111.

³ إسلام منصور: فاعلية برنامج يوظف السبورة التفاعلية في تنمية المفاهيم ومهارات التفكير البصري بالعلوم لدى طلبة الصف الثالث الأساسي، رسالة ماجستير، كلية التربية، الجامعة الإسلامية بغزة، 2015، ص 124.

⁴ لولوة الدهيم: أثر دمج الإنفوجرافيك في الرياضيات على تحصيل طالبات الصف الثاني المتوسط. مجلة تربويات الرياضيات بمصر، م (24) 2016، ص 263-281.

⁵ محمد السيد إبراهيم: استخدام الإنفوجرافيك الإلكتروني في تدريس الدراسات الاجتماعية لتنمية بعض مهارات استخدام الخرائط بالمرحلة الإعدادية. مجلة جامعة الفيوم للعلوم التربوية والنفسية، العدد 289، 10-340.

فاعلية البرنامج القائم على الإنفوجرافيك في تدريس الدراسات الاجتماعية، لتنمية مهارات استخدام الخرائط؛ لوجود فروق ذات دلالة احصائية بين المجموعة التجريبية والمجموعة الضابطة في مهارات استخدام الخرائط لصالح المجموعة التجريبية.

3- دراسة الشوبكي (2010)¹ بعنوان: أثر توظيف المدخل المنظومي في تنمية المفاهيم ومهارات التفكير البصري بالفيزياء لدى طالبات الصف الحادي عشر. هدفت إلى معرفة أثر توظيف المدخل المنظومي في تنمية المفاهيم ومهارات التفكير البصري بالفيزياء لدى طالبات الصف الحادي عشر. وتوصلت الدراسة إلى وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطي درجات المجموعة التجريبية والمجموعة الضابطة في اختبار المفاهيم واختبار مهارات التفكير البصري.

4- دراسة العشي (2013)² بعنوان: فاعلية برنامج بالوسائط المتعددة لتنمية المبادئ العلمية ومهارات التفكير البصري لدى طلاب الصف السادس الأساسي في مادة العلوم بغزة. وهدفت إلى الكشف عن مدى فاعلية برنامج بالوسائط المتعددة لتنمية المبادئ العلمية ومهارات التفكير البصري لدى طلاب الصف السادس الأساسي، وقد أظهرت النتائج فاعلية برنامج الوسائط المتعددة في تنمية المبادئ العلمية ومهارات التفكير البصري.

5- دراسة سيوداكوف وآخرون (Sudakov et al, 2014)³ هدفت إلى فحص إسهام الإنفوجرافيك على تسهيل ترتيب المعلومات في عملية دمج الرياضيات بعلم المناخ، وتحديد الصفات التي تساعد المعلم على الاستخدام الناجع للإنفوجرافيك. ووجدت الدراسة أن مثل هذه المشكلات، يمكن حلها من خلال استخدام الإنفوجرافيك كوسيلة تعليمية بصرية تكون ضمن المواد الدراسية المكتوبة. وهذه يستدعي ضرورة تحسين الوسائل التعليمية البصرية. ووجدت الدراسة أن الإنفوجرافيك يمكن من عرض موجز للمعلومات العديدة. الأمر الذي ساعد الطلاب على ترتيب المعلومات بشكل أوضح وتنظيم العلاقات بين الرياضيات وعلم المناخ على شكل معلومات بيانية يمكن قراءتها.

6- دراسة تشيفتشي (Çiftçi, 2016)⁴ هدفت إلى معرفة أثر استخدام الإنفوجرافيك على التحصيل وسلوك الطلبة في مادة الجغرافية، وبينت النتائج أن استخدام الإنفوجرافيك بالنسبة للمتعلمين يجعلهم مشاركين في عملية التعلم، ويزيد من تحصيلهم الأكاديمي، ويسهم أيضاً في التعلم البصري واللفظي، ويرشد المدرسين ويساعدهم على تطوير أنشطة التعلم مع العرض الفعال وجذب انتباه الطلبة.

7- دراسة جين (Jean, 2004)⁵ وهدفت إلى تعرف أثر استخدام التفكير البصري المصمم بيئة الإنترنت على تعلم العلوم، وقد أشارت نتائج الدراسة إلى فاعلية الموقع الإلكتروني القائم على التفكير البصري في اكساب الطلبة المفاهيم العلمية، وفهم المادة والربط بين المفاهيم العلمية وتعلم العلوم.

¹ فداء الشوبكي، أثر توظيف المدخل المنظومي في تنمية المفاهيم ومهارات لتفكير البصري بالفيزياء لدى طالبات الصف الحادي عشر، رسالة ماجستير، كلية التربية، الجامعة الإسلامية بغزة.

² دينا العشي: فاعلية برنامج بالوسائط المتعددة لتنمية المبادئ العلمية ومهارات التفكير البصري لدى طلاب الصف السادس الأساسي في مادة العلوم بغزة. رسالة ماجستير، كلية التربية، الجامعة الإسلامية بغزة، 2013.

³ Sudakov, I, Bellskey, T, Usenyuk, S, & Ployakova: v, mathematics and climate infographics: amachanism for interdisciplinary collaboration in the classroom. Unpublished research, department of mathematics, university of Utah", 2014.

⁴ Çiftçi, T: "Effects of Infographics on Students Achievement and Attitude towards Geography Lessons", Journal of Education and Learning. 5(1), 2016, 154-166.

⁵ Jean Margaret Plough: "Students Using Visual Thinking to learn Science in a Web-based Environment", Doctor of Philosophy, Drexel University, 2004.

8- دراسة لونجو (Longo,¹ 2002) هدفت إلى معرفة أثر استخدام شبكات التفكير البصري على التحصيل الدراسي، والقدرة على حل المشكلات في مادة علوم الأرض، خلصت نتائج الدراسة إلى: وجود علاقة إيجابية بين متوسط درجات الطلاب في اختبار التحصيل، واختبار القدرة على حل المشكلات في مادة علوم الأرض، وبين رسم الطلاب للخطوط العقلية البصرية لصالح المجموعة التجريبية، كما أن الطلاب الذين استخدموا الخطوط الملونة كانت رسوماتهم أكثر دقة ووضوحاً ممن استخدموا الخطوط السوداء. كما أن الطلاب الذين استخدموا الأقلام الملونة أو حتى الأقلام السوداء كانوا أكثر تحصيلاً من الطلبة الذين استخدموا طريقة الكتابة للتعبير عن تخيلاتهم، كما أشارت إلى وجود فروق في التحصيل، وفي اختبار حل المشكلات بين طلبة المجموعة التجريبية لصالح المذكور.

التعليق على الدراسات السابقة:

في ضوء ما تم عرضه من دراسات سابقة، تبين للباحث أن البحث الحالي يتفق مع بعض الدراسات السابقة التي سبق ذكرها في استخدام تقنية الانفوغرافيك في تحسين التحصيل، لكنه يختلف عنها في أنه أول بحث- على حدود علم الباحث- يتناول المحور الثالث (الانفوغرافيك، التحصيل، مهارات التفكير البصري) معاً لهذا رأى الباحث أن هناك حاجة ماسة لتسليط الضوء على دور الانفوغرافيك في تحسين تحصيل التلامذة وتنمية مهارات التفكير البصري، كمحاولة لرفد البحث التربوي بكل جديد والمساهمة في سد هذه الثغرة. كما شملت الدراسات السابقة عينات مختلفة تنوعت ما بين طلبة التعليم الأساسي الحلقة الثانية والثانوي، بينما تكونت عينة هذا البحث من طلاب الصف الرابع الأساسي، وقد استفاد الباحث من الدراسات السابقة في صياغة مشكلة الدراسة، وإعداد الإطار النظري، وبناء الأدوات، والمنهجية العلمية المتبعة، والاطلاع على آلية العمل العلمي، والنتائج التي توصلت إليها الدراسات وكذلك مقترحاتها.

- الإطار النظري:

من سمات عصرنا الحالي التطور السريع في الدراسات الاجتماعية والمعارف، حيث أصبح إدخال التكنولوجيا والوسائل والتقنيات التعليمية في العملية التعليمية أمراً ضرورياً من أجل تدعيم التعليم حيث أدى التضخم المعلوماتي الكبير إلى البحث عن وسائل اتصال جديدة تمكن العقل البشري من إدراك هذا الكم الهائل من التضخم المعلوماتي الذي نتعرض له بطريقة أكثر سهولة ومرونة وكفاءة من خلال التقنيات الحديثة، وأصبح الاتصال المرئي له دور مهم لا يمكن تجاهله في تصميم المعلومات والبيانات التي نتعرض لها. ومن إحدى هذه التقنيات تقنية الانفوغرافيك التي تحتوي أشكالاً بصرية مختلفة، وعلى الرغم من أنها تقنية حديثة إلا أن المكونات الأساسية في إعدادها ليست جديدة، وهي الصور والرسوم والأرقام والرموز. ويرى (Dunlap, Lowenthal, 2016²) أنه يتعلم الأفراد ويتذكرون بكفاءة وفعالية أكبر من خلال استخدام النصوص والمرئيات والرموز والأشكال، فالانفوغرافيك تقنية تعمل على تقديم المحتوى التعليمي المعقد بطريقة تدعم المعالجة المعرفية وتسهل استرجاعها في المستقبل.

إن مصطلح الانفوغرافيك ما هو إلا تعريب للمصطلح الإنجليزي (infographics) والذي هو أساساً دمج للمصطلحين Information وتعني معلومات وحقائق و (GRAPHIC) وتعني تصويري، وبالتالي فهي تعني البيانات التصويرية كما يمكن أن

16 Longo et al: " Visual thinking Networking Promotes Problem Solving Achievement for 9th Grade Earth Science Students", Electronic Journal of Science Education, Vol (7), No (1) , 2002. pp (1-5).

² Dunlap, Joanna C & Lowenthal, Patrick R: "Getting Graphic about Infographics: Design Lessons Learned from Popular Infographics". Journal of Visual Literacy, 35 (1), 2016. p42-59.

يطلق عليها التصاميم المعلوماتية. والانفوجرافيك بشكل عام يشير إلى تحويل المعلومات والبيانات المعقدة إلى رسوم مصورة يسهل على من يراها استيعابها بوضوح وتشويق دون حاجة إلى قراءة الكثير من النصوص مما يوفر تواصل بصري فعال بين كل من المرسل والمستقبل¹.

1- مميزات الانفوجرافيك:

أن أغلبية الناس تفكر بواسطة الصور فالصور القوية المترابطة مع مجموعة من الكلمات المناسبة قادرة على أن تحمل المعنى بطريقة أكثر فعالية من أي تفسيرات وشروحات مكتوبة بالكلمات، وتعمل الانفوجرافيك على زيادة الاهتمام واستثارة الدافعية وذلك بما تحمله من صور ذات سطوع وذات ألوان توجه العين وتلفت انتباهها وتعمل دافعية لقراءتها ويمكن اختصار مميزات الانفوجرافيك الناجح بما يلي:

1. تبسيط المعلومات المعقدة وجعلها سهلة الفهم والاعتماد على المؤثرات البصرية في توصيل المعلومة.
 2. اختصار الوقت بدلاً من قراءة كم هائل من البيانات المكتوبة يمكن مسحها بصرياً بسهولة.
 3. تحويل المعلومات من أرقام وحروف مملّة إلى صور ورسوم شيقة مما يساهم في سرعة الفهم والاستيعاب لأي موضوع².
 4. يقلل من الضغط على شبكة الانترنت مقارنة بالرسوم والصور الاعتيادية.
 5. سهولة نشر وانتشار الانفوجرافيك عبر الشبكات الاجتماعية.
 6. تعزيز القدرة على التفكير وربط المعلومات وتنظيمها.
 7. المساعدة على الاحتفاظ بالمعلومة وقتاً أكبر.
 8. قابلية تطبيق على عدد كبير من التخصصات والمجالات المختلفة للبيانات (صور، أرقام، نصوص).
 9. إمكانية التواصل من خلالها ونقل المعلومات للآخرين باختلاف لغاتهم.
 10. تمنح المتعة في العمل والأداء.
 11. تغيير الطريقة الروتينية لعرض المعلومات والبيانات للناس وبالتالي هذا يساعد على تغيير استجابة الناس وتفاعلهم مع هذه المعلومات عند رؤيتها³.
- ويمكننا إضافة المميزات الآتية:

¹ معتز عيسى: ما هو الانفوجرافيك تعرف ونصائح وأدوات إنتاج الانفوجرافيك، dotaraby.com

² ينظر: المرجع نفسه، dotaraby.com

³ Simicklas: "thePowerof Infographics: Using Pictures to Communicate and Connect with Your Audiences"(1st ed.). United States of America, 2012.p16.

- مناسب لكل المجالات والتخصصات.
- يقدم الحقائق العلمية في صورة بصرية يسهل فهمها واستيعابها.
- أداة مثالية لتوضيح الأشياء غير المألوفة للمتعلمين.
- يعطي المتعلم القدرة على المقارنة وتحليل المعلومات.
- القدرة على إثراء ثقافة المتعلم.
- تساعد في تنمية التفكير الإبداعي من خلال خلق التفكير، ترابط العلاقات ووجهات النظر الكلية حول موضوع معين.

2- أهمية الإنفوغرافيك التعليمية:

- إن أهمية الانفوغرافيك تبرز في زيادة فاعلية التعلم وتحسين مخرجاته من خلال ارتباط أفضل بين حاجات الطلبة وبرنامج التعلم من جهة والبيانات والمعلومات، وربطها بالصور والرموز من جهة أخرى، وتتصف تقنية الإنفوغرافيك بالجمع بين فوائد التعلم البصري والتعلم التقليدي والمدمج معاً وللإنفوجرافيك فوائد عديدة منها كما ذكر شلتوت (2016):
- زيادة فاعلية التعلم: من خلال تحسين مخرجات التعليم بتوفير ارتباط أفضل بين المعلومات والصور والرموز المدللة عليها، وزيادة إمكانات الوصول للمعلومات وتحقيق أفضل النتائج.
 - تنوع وسائل المعرفة: من خلال استخدام تقنية الغنفوجرافيك يمكن للمتعلم توظيف أكثر من وسيلة للمعرفة، في تختار الوسيلة المناسبة لقدراته ومهاراته من بين العديد من الوسائل الإلكترونية والتقليدية فيساعد الطلاب على اكتساب أكثر للمعرفة ورفع جودة العملية التعليمية.
 - تحقيق التعلم النشط للمتعلمين: لأنه يركز على دور المتعلم النشط وتفاعله في الحصول على تعلمه من خلال الدمج بين الأنشطة الفردية والتعاونية والمشاريع بدلاً من الدور السلبي للمتعلم المتمثل في استقبال المعلومات.
 - المرونة التعليمية: من خلال تقنية الانفوغرافيك تتحقق المرونة الكافية لمقابلة الاحتياجات الفردية وأنماط التعلم لدى المتعلمين باختلاف مستوياتهم وأعمارهم وأوقاتهم فلكل مرحلة تعليمية يتم فيها استخدام إنفورافيم ملائم للمرحلة التعليمية.
 - إتقان المهارات العملية: من خلال تقنة الانفوغرافيك يكن تقديم الكثير من الموضوعات العلمية والمهارات التي يصعب تدريسها تقليدياً أو إلكترونياً بالكامل، وخاصة المهارات العلمية.
 - يحقق الرضا عن التعليم: يستطيع المتعلم من خلال هذه التقنية التواصل مع برامج الإنترنت لتدعيم المعلومات وزيادة التحصيل ومتابعة التدريب الفعلي والممارسة الفعلية بالمؤسسة التعليمية مما يحقق زيادة عالية التعلم وزيادة الرضا نحو التعلم¹.

3- أدوات تصميم الانفوغرافيك:

- تتوفر في شبكة الانترنت العديد من البرامج أو المواقع التي تساعد في تصميم الانفوغرافيك بشكل احترافي من خلال توفير قوالب تصميم جاهزة فهناك المخططات الانسيابية ونماذج المقارنة والمخططات الزمنية والرسوم البيانية وغيرها. وهي بذلك تساعدك على التصميم مهما اختلف المجال أو الموضوع المطلوب ومن أمثلتها:

¹ محمد شلتوت: "الإنفوجرافيك من التخطيط إلى الإنتاج"، مكتبة الملك فهد الوطنية، مصر، ط1، 2016، ص 124.

● موقع Infogram: هذا الموقع يساعدك في تصميم الانفوGRAفيك من خلال قوالب جاهزة يمكن

(<https://infogr.am>) التعديل عليها وإضافة البيانات والمعلومات بطريقة بسيطة والموقع سهل الاستخدام يتوفر على الرابط)

● موقع ManyEyes: الموقع من تطوير شركة IBM ويقدم خاصية متطورة في حفظ البيانات مع إمكانية الرجوع إليها في أي وقت ما يقدم خصائص تفاعلية ذات طابع احترافي ويقترح أنسب التصاميم للبيانات المستخدمة من قبل المزود ويعتبر الموقع أحد رواد التصاميم التفاعلية الاحترافية. يتوفر على الرابط: <Http://www-manyeyes/software/>

● موقع stat planet: هو موقع متخصص يقوم بعمل التصاميم التفاعلية حيث يقوم المستخدم بإدخال البيانات ويوقوم هو بعمل إخراج رسم تفاعلي وحفظه كصورة أو فلاش (<http://www.statslik.com>)

● موقع easlly: موقع مجاني يمكنك من إنشاء إنفوجرافيك رائع في دقائق محدودة حيث تتوفر فيه قوالب جاهزة ومعدة مسبقاً إضافة إلى إمكانية إضافة واختيار العديد من الأشكال والألوان والخطوط ويتميز الموقع بدعمه للغة العربية <http://www.easlly.ly>

● برنامج Adobe Illustrator: البرنامج الأول في تصميم الإنفوجرافيك لما يتمتع به من المرونة والنتائج الجذابة.

● برنامج Adob Photoshop: يمكن استخدامه لتصميم الإنفوجرافيك رغم أنه لن يكون بمرونة Illustrator حيث أنه برنامج لتحرير الصور الأشهر في العالم إلا أنه يمكن استغلاله لعرض البيانات فقط وتحرير الصور والتعديل عليها أي ليس بمرونة لتصميم رسومات.

● برنامج Inscap: برنامج مفتوح يدعم خاصية الصور ذات الامتداد يساعد في عمل تصاميم جرافيك يمكنك حفظها بامتدادات مختلفة فإذا كنت تفضل استخدام برنامج مجاني فهو كذلك ويعتبر البديل المناسب لبرنامج إليسترياتور.

4- التفكير البصري:

أن التفكير البصري هو قدرة عقلية تستخدم الصور والأشكال الهندسية والجداول البيانية وتفسرها وتحولها من لغة الرؤية واللغة المرسومة إلى لغة لفظية أو منطوقة أو مكتوبة واستخلاص النتائج والمعاني منه من أجل التواصل مع الآخرين¹. وقد فسره عفانة، بأنه قدرة عقلية مرتبطة بصورة مباشرة بالجوانب الحسية البصرية، حيث يحدث هذا النوع من التفكير عندما يكون هناك تنسيق متبادل بين ما يراه المتعلم من أشكال ورسومات وعلاقات، وبين ما يحدث من ربط ونتائج عقلية معتمدة على الرؤية والرسم المعروف².

وترى الشوبكي أن التفكير البصري هي قدرة الفرد على التعامل مع المواد المحسوسة وتمييزها بصرياً بحيث تكون له القدرة على إدراك العلاقات المكانية وتفسير المعلومات وتحليلها كذلك واستنتاج المعنى منها³.

¹ طفافش إيمان: "أثر برنامج مقترح في مهارات التواصل الرياضي على تنمية التحصيل العلمي ومهارات التفكير البصري في الهندسة لدى طالبات الصف الثامن الاساسي". رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة الأزهر بغزة، 2011، ص43.

² عزو عفانة: "أثر استخدام المدخل البصري في تنمية القدرة على حل المسائل الرياضية والاحتفاظ بها لدى طلبة الصف الثامن الاساسي بغزة"، ص12.

³ فداء الشوبكي: "أثر توظيف المدخل المنطومي في تنمية المفاهيم ومهارات التفكير البصري بالفيزياء لدى طالبات الصف الحادي عشر"، ص35.

ويرى الباحث أن التفكير البصري هو قدرة المتعلم على فهم الصور والأشكال البصرية وتفسيرها وتمييزها وإيجاد العلاقات فيما بينها والتعبير عنها بلغة مكتوبة واضحة.

ويعد التفكير البصري أحد أشكال مستويات التفكير العليا، حيث يمكن المتعلم من الرؤية الشاملة لموضوع الدراسة دون فقد أي جزء من جزئياته بمعنى أن المتعلم ينظر إلى الشيء بمنظار بصري، كما تعتبر القدرة على التصور البصري المكاني للعالم المحيط هي الوسيلة التي تمكن الإنسان من اكتساب المهارات التي تحقق له وصف البيئة وفهمها وتنمي لديه مهارة دراسة الأشكال والتشابه والاختلاف بينها، كما تتضمن أيضاً تطوير قدراته لوصف حركة الأجسام والتغير في السرعة تبعاً لعامل الزمن، ومهما كان الأسلوب الذي يتعلم به الطالب أثناء تدريس الدراسات الاجتماعية فإنه ينبغي أن تتكون لديه مهارات وقدرات بصرية تساعده على وصف البيئة وفهمها وتعتبر رؤية الأشياء وتخليها مصدراً للتفكير.

5- أهمية استخدام التفكير البصري: أن للتفكير البصري مميزات وأهمية كبيرة حيث يعمل على:
- زيادة قدرة الطالب على الاتصال بالآخرين.

- فهم المثيرات البصرية المحيطة بالطالب والتي تزداد يوماً بعد يوم نتيجة للتقدم العلمي والتكنولوجي مثل ما يظهر على شاشات الكمبيوتر والتلفزيون وبالتالي تزداد صلته بالبيئة المحيطة به.

- زيادة القدرة العقلية للطالب حيث أن التفكير البصري مصدر جيد يفتح الطريق لممارسة الأنواع المختلفة من التفكير مثل التفكير الناقد والتفكير الابتكاري.

- يساعد في فهم عدد من المواد المختلفة مثل الفيزياء والرياضيات حيث أن هذه المواد بحاجة إلى التفكير الهندسي وحيث أن التفكير الهندسي له ثلاث مستويات هي: التفكير البصري، والتفكير الوصفي، والتفكير المجرد. وهذه المستويات متداخلة وكل مستوى يلزم لبناء المستوى التالي له إلى أن يتم الوصول إلى مستوى التفكير المجرد.¹

- يزيد من فاعلية الطلبة للتعلم لأنه يخاطب أكثر من حاسة من حواس الإنسان.

- يساعد المتعلم على إيجاد حلول لمشكلاته، خاصة عندما يشاهد ويقارن الأشكال والصور والمواقف، فيفهمها فهماً عميقاً يساعده في استحضار خبراته، وعلاج ما يتعرض له من المواقف الآتية.

- يجعل الموقف الصفي أكثر إثارة وحيوية، وترفع من حماس ودافعية المتعلمين²

ويرى الباحث أن التفكير البصري: - يساعد على توضيح المفاهيم المراد تعلمها.

- يساعد المتعلم على توظيف معلوماته، وخبراته، ومهاراته في مواقف حياتية.

- يعمل على تنمية عمليات العقل المختلفة مثل: الملاحظة والتفسير، والتحليل، والاستنتاج.

6- مهارات التفكير البصري:

من خلال ما سبق من التعريفات حول مفهوم التفكير البصري والاطلاع على عدد من الدراسات السابقة مثل دراسة الشوبكي (2010)، دراسة العشي (2013)، دراسة شعث (2009) توصل الباحث إلى أن مهارات التفكير البصري هي مجموعة من المهارات التي تشجع المتعلم على التمييز البصري للمعلومات العلمية من خلال دمج تصورات البصرية مع خبراته المعرفية للوصول إلى لغة مكتوبة أو منطوقة. وأهم هذه المهارات هي:

- مهارة القراءة البصرية: وهي القدرة على تحديد أبعاد وطبيعة الشكل أو الصورة المعروضة.

¹ مديحة محمد: "تنمية التفكير البصري في الرياضيات لتلاميذ المرحلة الابتدائية (الصم-العاديين)". جامعة القاهرة، مصر، ط 2004، ص 37.

² إسلام منصور: فاعلية برنامج يوظف السبورة التفاعلية في تنمية المفاهيم ومهارات التفكير البصري بالعلوم لدى طلبة الصف الثالث الأساسي.

- مهارة التمييز البصري: وتعني القدرة على التعرف على الشكل البصري المعروض وتمييزه عن الأشكال الأخرى، وأن الشكل البصري يمثل المعلومات التي وضع من أجلها سواء كان هذا الشكل البصري عبارة عن رموز، صور، رسوم بيانية.
 - مهارة إدراك العلاقات المكانية: وتشير إلى القدرة على رؤية علاقة التأثير والتأثر من بين مواقع الظواهر المتمثلة في الشكل أو الصورة المروضة. كذلك دراسة الأشكال ثنائية وثلاثية الأبعاد.
 - مهارة تفسير المعلومات: وتشير إلى قدرة المتعلم على فهم كل جزئية من جزئيات الشكل البصري المعروض حيث أن الشكل البصري يحتوي على رموز وإشارات، وإعطاء قيمة علمية لها، وتوضيح المعلومات المرسومة وتفسيرها.
 - مهارة تحليل المعلومات: وتعني التركيز على التفاصيل الدقيقة والاهتمام بالبيانات الجزئية والكلية، بمعنى القدرة على تجزئة الشكل البصري إلى مكوناته الأساسية.
 - مهارة استخلاص المعنى: وهي تعني التوصل إلى معاني جديدة والتوصل إلى مفاهيم ومبادئ علمية من خلال الشكل المعروض مع مراعاة تضمينها للخطوات السابقة.
 - ويرى الباحث أن التفكير البصري عبارة عن منظومة لها مدخلات تتمثل في الشكل البصري، وعمليات تتمثل في معالجة الشكل من خلال مهارات التفكير البصري، ومخرجات تتمثل في ترجمة الشكل إلى لغة مكتوبة، أو منطوقة.
- 12- إجراءات البحث:

- 1- منهج البحث: اتبع الباحث المنهج التجريبي نظراً لتناسبه مع هدف البحث في تعرف فاعلية استخدام الإنفوغرافيك في تحصيل التلامذة في مادة الدراسات الاجتماعية وتنمية مهارات التفكير البصري مقارنة بالطريقة المعتادة مما يتطلب وجود مجموعتين الأولى تجريبية تعلمت عن طريق الإنفوغرافيك والثانية ضابطة تعلمت نفس المحتوى بالطريقة الاعتيادية. ويعرف المنهج التجريبي بأنه: تغير متعمد ومضبوط للشروط المحددة للظاهرة وملاحظة نواتج التغير في الظاهرة موضوع الدراسة.¹
- 2- المجتمع الأصلي للبحث وعينته:
- 1-2- المجتمع الأصلي للبحث: يتكون مجتمع البحث الأصلي من تلامذة الصف الرابع من مرحلة التعليم الأساسي (الحلقة الأولى) في مدرسة النيريين في مدينة دمشق.
- 2-2- عينة البحث: تألفت العينة من (42) تلميذاً وتلميذة من تلامذة الصف الرابع الأساسي في مدرسة النيريين للتعليم الأساسي بمدينة دمشق. وتم تقسيمهم إلى مجموعتين بعد التأكد من تكافؤ المجموعتين في التحصيل باطلاع على مستوياتهم التحصيلية في الفصل الدراسي الأول: مجموعة تجريبية بلغ عدد أفرادها (21) تلميذاً وتلميذة. ومجموعة ضابطة بلغ عدد أفرادها (21) تلميذاً وتلميذة.
- 3- أدوات البحث:
- قام الباحث باستخدام عدة أدوات لتحقيق أهداف البحث وكانت هذه الأدوات عبارة عن المادة العلمية المحوسبة بواسطة برنامج (Illustrator)، الاختبار التحصيلي، واختبار مهارات التفكير البصري.

¹ عباس، محمد، وآخرون: مدخل إلى مناج البحث في التربية وعلم النفس، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2007. ص79.

1-3- تصميم المادة التعليمية المحوسبة بواسطة برنامج (Illustrator):

أ-تحديد الهدف العام: وهو تعرف فاعلية استخدام الانفوغرافيك في تحصيل التلامذة في مادة الدراسات الاجتماعية وتنمية مهارات التفكير البصري لتلامذة الصف الرابع بمادة الدراسات الاجتماعية.

ب-اختيار المحتوى التعليمي: اختيرت وحدة "وطني" من كتاب الدراسات الاجتماعية للصف الرابع الأساسي.

ت-تحليل المحتوى التعليمي: إن الإجراءات التحليلية تساعد في وضع الأهداف السلوكية، وتحديد المفاهيم العلمية المتضمنة في وحدة "وطني" وتنظيمها بطريقة تناسب خصائص التلامذة، وتعرف طرائق تقويمهم، ولهذا الشأن تم تحليل محتوى الوحدة المذكورة سابقاً. يهدف تحليل المحتوى التعليمي للوصول إلى بناء الاختبارات، وتصميم المادة التعليمية المحوسبة بواسطة برنامج (Illustrator).

ث-تحديد الأهداف التعليمية:

يعرف الهدف إجرائياً "السلوك المراد تعلمه من قبل الطالب باعتبار ذلك السلوك الناتج التعليمي المراد بلوغه عند نهاية عملية التعلم. وقد بلغ عدد الأهداف (30) هدفاً. وقد راع الباحث النقاط الآتية عند كتابته للأهداف التعليمية:

❖ أن تكون محددة بوضوح ودقة.

❖ أن تكون واقعية قابلة للتطبيق.

❖ أن تكون قابلة للقياس والملاحظة.

ج-تصميم الانفوغرافيك:

طور الباحث صور الانفوغرافيك من خلال صدق المحتوى (عرضه على مجموعة من السادة المحكمين) ومن ثم تجربته بشكل فردي ثم على عينة استطلاعية من تلامذة الصف الرابع.

- صدق المحتوى: عرض الباحث المادة التعليمية المحوسبة بواسطة برنامج (Illustrator) على مجموعة من المحكمين في كلية التربية بجامعة دمشق. وقد أبدى السادة المحكمين ملاحظاتهم والتي تتلخص في الآتي: تعديل بعض الأهداف السلوكية وإعادة صياغتها، تعديل محتوى بعض الصور، تغيير ألوان بعض الصور وتوضيحاً وتكبير الخط حتى تكون رؤيتها أكثر وضوحاً. وقد قام الباحث بإجراء التعديلات المطلوبة.

كما قام الباحث بعرض المادة التعليمية على عينة من التلامذة تألفت من (16) تلميذاً وتلميذة بهدف التأكد من وضوح المادة التعليمية، والتأكد من مناسبة إخراج هذه المادة التعليمية، من حيث حجم الخط، وتقدير الزمن اللازم للتطبيق، والكشف عن الثغرات والأخطاء والصعوبات لتلافيها قبل البدء بالتجربة النهائية.

2-3- الاختبارات:

أولاً: اختبار التحصيلي:

أ-الهدف من الاختبار: قياس تحصيل التلامذة في وحدة "وطني" والتحقق من فاعلية الانفوغرافيك في تحقيق أهدافها.

ب- تحليل محتوى الوحدة لوضع الأوزان النسبية للأهداف ليتسنى صياغة أسئلة الاختبار كما يبين الجدول رقم (1)

الجدول (1) جدول مواصفات اختبار التحصيل

عدد الأسئلة	الوزن النسبي	المجموع	الأهداف التعليمية					الدرس	
			تقويم	تركيب	تحليل	تطبيق	فهم		تذكر
10	%33.3	10	1	-	3	2	2	2	الأول
8	%26.6	8	-	-	3	1	2	2	الثاني
5	%16.6	5	-	2	-	1	2	-	الثالث
4	%13.3	4	-	1	2	-	1	-	الرابع
3	%10	3	1	-	1	-	1	-	الخامس
30	%100	30	2	3	9	4	8	4	المجموع

ت- التجريب الاستطلاعي للاختبار:

تم اختيار عينة التجربة الاستطلاعية بصورة عشوائية من تلامذة الشعبة الثانية في مدرسة النيريين عددهم (18) تلميذاً وتلميذة، وذلك بهدف حساب زمن تطبيق الاختبار، حساب معامل الصدق والثبات للاختبار، وملائمة فقرات الاختبار لمستوى التلامذة، حساب معاملات السهولة والصعوبة والتمييز للفقرات للاختبار.

ث- نتائج التجريب الاستطلاعي للاختبار:

1- صدق الاختبار: تم التأكد من صدق الاختبار من خلال:

- صدق المحكمين: عُرض الاختبار في صورته الأولية على مجموعة من المحكمين لإبداء رأيهم فيه من النواحي الآتية

- شمول الاختبار لكافة مستويات بلوم ومطابقة الاختبار لجدول المواصفات.
- وضوح الصياغة اللغوية. مناسبة الاختبار لتلامذة الصف الرابع وقدراتهم، ومهاراتهم.

وقد جاءت آراء المحكمين في النواحي الآتية:

- ضرورة تعديل بعض الفقرات لتلائم المستويات المعرفية التي حددت.
- تغيير بدائل بعض الإجابات لأنها تحتل أكثر من إجابة صحيحة.
- حذف بعض الأسئلة وإضافة أسئلة أخرى.

2- ثبات الاختبار: تم الاختبار استطلاعياً على عينة بلغ عدد أفرادها 18 تلميذاً وتلميذة بمدرسة النيريين المختلطة، حيث استخدم الباحث طريقة التجزئة النصفية لحساب معامل الثبات حيث كانت قيمة معامل ثبات 0.721. وقد بلغ معامل الثبات بطريقة ألفا كرونباخ لفقرات الاختبار (0.811). وهذا يعطي مؤشراً جيداً إلى أن الاختبار على درجة جيدة من الثبات مما يجعله صالحاً للتطبيق.

- تقدير زمن الاختبار: قام الباحث بحساب زمن الاختبار وفق المعادلة التالية: الزمن الذي استغرقه أول تلميذ انتهى من الاختبار (20) دقيقة + الزمن الذي استغرقه آخر تلميذ انتهى من الاختبار (30) دقيقة / 2 = 25 دقيقة. وهو الزمن المناسب للاستجابة على أسئلة الاختبار التحصيلي.

- حساب معاملات السهولة والصعوبة والتمييز للفقرات الاختبار:

قام الباحث بحساب معاملات السهولة والصعوبة لمفردات الاختبار، ووجد أن معاملات السهولة تتراوح بين (0.43-0.79) ومتوسط معامل السهولة (0.71). وأن معاملات الصعوبة تراوحت بين (0.21-0.39) ومتوسط معامل الصعوبة (0.23). وهذا يدل على صلاحية فقرات الاختبار.

ووجد الباحث أن معاملات التمييز تتراوح بين (0.21-0.61) ومتوسط معامل التمييز (0.51).

وتجدر الإشارة إلى أنه لكي تعد الفقرة مقبولة يجب أن يزيد معامل التمييز عن 0.20% وترفض إذا قل عن ذلك.¹

ثانياً: اختبار مهارات التفكير البصري:

أ- تحديد الهدف من الاختبار: قياس قدرة التلامذة على فهم وترجمة الشكل البصري إلى لغة لفظية (منطوقة أو مكتوبة).

ب- تحليل محتوى الوحدة لوضع الأوزان النسبية لأهداف الوحدة ليتسنى ضوئها صياغة أسئلة الاختبار كما يبين الجدول رقم (2). حيث قام الباحث بتحديد مهارات التفكير البصري المراد تنميتها لدى التلامذة والتي تضمنتها وحدة الكهربياء والمغناطيسية. وكانت تلك المهارات عبارة عن ست مهارات قام الباحث بتضمينها في الاختبار المعد لذلك. وتكون الاختبار في صورته النهائية من (30) سؤال موزعة كما يوضح الجدول رقم (2).

الجدول (2) جدول مواصفات اختبار مهارات التفكير البصري

المهارات	الأسئلة	العدد	الوزن النسبي
القراءة البصرية	6-5-2	3	10%
التمييز البصري	26-21-12-8-7-4-3-1	8	26.6%
إدراك العلاقات المكانية	23-14-13-11-10-9	6	20%
تفسير المعلومات البصرية	30-27-22-19	4	13.3%
تحليل المعلومات البصرية	29-20-17-4	4	13.3%
استنتاج المعنى من الأشكال	28-25-24-18-16-15	6	20%
المجموع	30-1	30	100%

ت- التجريب الاستطلاعي للاختبار:

تم تطبيق الاختبار على نفس العينة التي طبق عليه اختبار التحصيلي، وذلك بهدف التأكد من صدق والثبات الاختبار، وملائمة فقراته لمستوى التلامذة، وحساب معاملات السهولة والصعوبة والتمييز لفقرات الاختبار.

- نتائج التجريب الاستطلاعي للاختبار:

أ- صدق الاختبار: تم التأكد من صدق الاختبار من خلال:

¹ امطانيوس ميخائيل: "القياس والتقويم في التربية الحديثة"، منشورات جامعة دمشق، مطبعة الروضة، سورية، 2009. ص 99.

- صدق المحكمين: عُرض في صورته الأولية على مجموعة من المحكمين لإبداء رأيهم فيه من النواحي الآتية: - شمول الاختبار لكافة مهارات التفكير البصري.

- وضوح الصياغة اللغوية. - مناسبة الاختبار لتلامذة الصف الرابع وقدراتهم، ومهاراتهم.

وقد جاءت آراء المحكمين في النواحي الآتية: - ضرورة تعديل بعض الفقرات لتلائم المهارات التي حددت.

- تغيير بدائل بعض الإجابات لأنها تحتمل أكثر من إجابة صحيحة.

- حذف بعض الأسئلة وإضافة أسئلة أخرى.

- ثبات الاختبار: تم الاختبار استطلاعياً على عينة بلغ عدد أفرادها 18 تلميذاً وتلميذة بمدسة النيريين المختلطة، حيث استخدم الباحث طريقة التجزئة النصفية لحساب معامل الثبات حيث كانت قيمة معامل ثبات 0.898. وقد بلغ معامل الثبات بطريقة ألفا كرونباخ لفقرات الاختبار (0.735). وهذا يعطي مؤشراً جيداً إلى أن الاختبار على درجة جيدة من الثبات مما يجعله صالحاً للتطبيق.

- تقدير زمن الاختبار: قام الباحث بحساب زمن الاختبار وفق المعادلة الآتية: الزمن الذي استغرقه أول تلميذ انتهى من الاختبار (20) دقيقة + الزمن الذي استغرقه آخر تلميذ انتهى من الاختبار (33) دقيقة / 2 = 26.5 دقيقة. وبالتالي يحتاج كل تلميذ من الوقت إلى (27.5) دقيقة للإجابة عن أسئلة الاختبار.

- حساب معاملات السهولة والصعوبة والتمييز للفقرات الاختبار:

قام الباحث بحساب معاملات السهولة والصعوبة لمفردات الاختبار، ووجد أن معاملات السهولة تتراوح بين (0.63-0.77) ومتوسط معامل السهولة (0.73). وأن معاملات الصعوبة تراوحت بين (0.23-0.38) ومتوسط معامل الصعوبة (0.25). وهذا يدل على صلاحية فقرات الاختبار.

ووجد الباحث أن معاملات التمييز تتراوح بين (0.22-0.64) ومتوسط معامل التمييز (0.55) وتجدر الإشارة إلى أنه لكي تعد الفقرة مقبولة يجب أن يزيد معامل التمييز عن 0.20% وترفض إذا قل عن ذلك¹.

3-4- تجانس مجموعات البحث: للتأكد من تجانس تلامذة مجموعتي البحث أجرى الباحث تطبيقاً قبلياً لكل من الاختبار التحصيلي واختبار مهارات التفكير البصري اللذين أعدهما الباحث وذلك على المجموعتين الضابطة والتجريبية. وتم حساب المتوسطات والانحرافات المعيارية للمجموعتين وقيمة (ت) والجدول رقم (3) يبين نتائج التطبيق القبلي لاختباري المجموعتين الضابطة والتجريبية.

¹ ينظر: المرجع نفسه: ص99.

الجدول (3) نتائج التطبيق القبلي لاختباري المجموعتين الضابطة والتجريبية

الاختبار	المجموعة	العدد	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	(ت) المحسوبة	درجة الحرية	مستوى الدلالة	القرار
التحصيلي	التجريبية	21	11.12	4.076	0.390	41	.690	غير دال
	الضابطة	21	11.15	1.890				
التفكير البصري	التجريبية	21	8.14	3.412	4.139	41	.742	غير دال
	الضابطة	21	8.35	2.584				

وجرى التأكد من تجانس العينتين، فكانت قيمة مستوى دلالة 0.690 وهو أكبر من مستوى الدلالة الافتراضي 0.05 وبالتالي نقبل الفرضية الصفرية أي لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى دلالة (0.05) بين متوسط درجات أفراد المجموعة التجريبية ومتوسط درجات أفراد المجموعة الضابطة في الاختبار التحصيلي القبلي. كما كانت قيمة مستوى الدلالة لاختبار مهارات التفكير البصري (0.742) وهو أكبر من مستوى الدلالة الافتراضي 0.05 وبالتالي نقبل الفرضية الصفرية أي لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى دلالة (0.05) بين متوسط درجات أفراد المجموعة التجريبية ومتوسط درجات أفراد المجموعة الضابطة في اختبار مهارات التفكير البصري القبلي. وهذا يؤكد تكافؤ المجموعتين.

5-3- تنفيذ التجربة النهائية:

قام الباحث بإجراء التجربة النهائية في مدرسة النيرين بمدينة دمشق. حيث بدأ تعليم الدروس المصممة بواسطة برنامج (Illustrator) الذهنية في 20\1\2020 وانتهى في 11\2\2020 بمعدل حصتين في الأسبوع. حصة للمجموعة الضابطة وحصة للمجموعة التجريبية.

- عرض نتائج البحث ومناقشتها:

1- نتائج أسئلة البحث:

للكشف عن فاعلية استخدام الانفوغرافيك في تحصيل التلامذة في مادة الدراسات الاجتماعية وتنمية مهارات التفكير البصري، قام الباحث بحساب معاملات مربع إيتا مستخدماً المعادلة الآتية: $n^2 = \frac{t^2}{t^2 + d.f}$ ومقارنة النتائج مع الجدول المرجعي لقيمة مربع إيتا رقم (4):

الجدول (4) يبين الجدول المرجعي لقيمة مربع إيتا

التأثير	كبير جداً	كبير	متوسط	صغير
(n^2)	0.20	0.14	0.06	0.01

والجدول رقم (5) يبين حجم الأثر في الدرجة الكلية للاختبار التحصيلي، وفي الدرجة الكلية للاختبار التفكير البصري.

الجدول (5) حجم الأثر في الدرجة الكلية للاختبار التحصيلي، واختبار مهارات التفكير البصري

مربع إيتا	قيمة (T)	المتوسط البعدي	المتوسط القبلي	المجموعة التجريبية
0.67	9.229	28.76	11.12	الاختبار التحصيلي
0.78	12.34	28.91	8.14	اختبار مهارات التفكير البصري

81

من خلال الجدول رقم (5) نجد أن قيمة مربع إيتا على اختبار التحصيل بلغ (0.67)، وهو أكبر من (0.20)، كما أن قيمة مربع إيتا على اختبار مهارات التفكير البصري بلغ (0.78)، أي أن لتقنية الانفوغرافيك أثراً كبيراً جداً في تحسين التحصيل وتنمية مهارات التفكير البصري لدى التلامذة. ويرى الباحث أن ذلك يعود إلى ما تتميز به هذه التقنية من التشويق والمتعة في تحويل النصوص إلى رسومات تثير انتباه الطلبة واهتمامهم من خلال مساعدتهم على تحديد المشكلة والموضوع بسهولة، وطرح العديد من الأفكار والتساؤلات حول الموضوعات التي يدرسونها، وطرح العديد من البدائل حول تلك الموضوعات ومشاركة المعلومات مع بعضهم البعض تدعياً للعمل الجماعي، و يتيح للمعلم والتلامذة الفرصة للتفاعل وإعادة تنظيم التعليم بما يتفق مع قدرات التلامذة ومهاراتهم مما أدى إلى رفع مستوى التحصيل وتنمية مهارات التفكير البصري لذا كان حجم تأثيرها كبيراً جداً.

2- نتائج فرضيات البحث: تمّ اختبار الفرضيات الصفرية التالية عند مستوى دلالة (0.05):

- للتحقق من صحة الفرضية الأولى التي نصت على أنه لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات درجات تلامذة المجموعة التجريبية ومتوسطات درجات تلامذة المجموعة الضابطة في الاختبار التحصيلي البعدي المباشر تعزى لطريقة التدريس. جرى استخدام اختبار (ت) ستيودنت كما يبيّن ذلك الجدول (6).

الجدول (6) نتائج اختبار (ت) لمتوسطات درجات تلامذة المجموعتين التجريبية والضابطة في اختبار التحصيل البعدي المباشر

المجموعة	العدد	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	قيمة (ت) المحسوبة	درجة الحرية	مستوى الدلالة	القرار
التجريبية	21	25.35	1.591	12.521	41	0.000	دالة
الضابطة	21	17.40	3.303				

يلاحظ من الجدول (6) وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات درجات أفراد المجموعة التجريبية ومتوسطات المجموعة الضابطة في الاختبار التحصيلي البعدي، حيث بلغت قيمة مستوى الدلالة (0.000) وهي أقل من مستوى الدلالة (0.05).

وقد كانت هذه الفروق لصالح المجموعة التجريبية التي درست باستخدام الانفوغرافيك، حيث بلغت قيمة المتوسط الحسابي (25.35)، في حين بلغت قيمة المتوسط الحسابي للمجموعة الضابطة (17.40). ويعزو الباحث ذلك إلى تقنية الإنفوغرافيك بما تحتويه من رسوم مصورة وألوان وكلمات ساعدت على تنشيط شقي المخ الأيمن والأيسر وهذا ما تفتقر إليه الطرق المتبعة في العملية التعليمية، وبالتالي ساهمت في تمكين التلامذة من الوصول للمعلومات واستيعابها بسرعة، وربطها

بمعارفها السابقة، وقد انعكس ذلك على مستوى التحصيل لدى تلامذة المجموعة التجريبية بالمقارنة مع تلامذة المجموعة الضابطة.

- للتحقق من صحة الفرضية الثانية التي نصت على أنه لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات درجات تلامذة المجموعة التجريبية والمجموعة الضابطة في الاختبار التحصيلي البعدي المؤجل. جرى استخدام اختبار (ت) ستيودنت كما يبيّن ذلك الجدول (7).

الجدول (7) نتائج اختبار (ت) لمتوسطات درجات تلامذة المجموعتين التجريبية والضابطة في اختبار المفاهيم البعدي المؤجل

المجموعة	العدد	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	قيمة (ت) المحسوبة	درجة الحرية	مستوى الدلالة	القرار
التجريبية	21	24.17	5.266	2.712	41	0.00	دالة
الضابطة	21	14.81	6.334				

يلاحظ من الجدول (7) وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات درجات أفراد المجموعة التجريبية والمجموعة الضابطة في الاختبار التحصيلي البعدي المؤجل، حيث بلغت قيمة مستوى الدلالة (0.00) وهي أقل من مستوى الدلالة (0.05). وقد كانت هذه الفروق لصالح المجموعة التجريبية التي درست باستخدام تقنية الانفوغرافيك، حيث بلغت قيمة المتوسط الحسابي (24.17)، في حين بلغت قيمة المتوسط للمجموعة الضابطة (14.81). ويرى الباحث أن تقنية الانفوغرافيك أتاحت للتلامذة فرصاً للتفكير وولدت لديهم حافز التعلم الذاتي الذي أثر بشكل فعال في الفهم العميق والاحتفاظ بالمعلومات مما قلل من عملية النسيان وبالتالي زاد من احتفاظ التلامذة.

- للتحقق من صحة الفرضية الثالثة التي نصت على أنه لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات درجات تلامذة المجموعة التجريبية ومتوسطات درجات تلامذة المجموعة الضابطة في اختبار مهارات التفكير البصري البعدي المباشر تعزى لطريقة التدريس. جرى استخدام اختبار (ت) ستيودنت كما يبيّن ذلك الجدول (8).

الجدول (8) نتائج اختبار (ت) لمتوسطات درجات تلامذة المجموعتين التجريبية والضابطة في اختبار مهارات التفكير البصري البعدي المباشر

المجموعة	العدد	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	قيمة (ت) المحسوبة	درجة الحرية	مستوى الدلالة	القرار
التجريبية	21	27.51	1.284	11.661	41	0.000	دالة
الضابطة	21	18.33	2.452				

يلاحظ من الجدول (8) وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات درجات أفراد المجموعة التجريبية ومتوسطات المجموعة الضابطة في اختبار مهارات التفكير البصري البعدي المباشر، حيث بلغت قيمة مستوى الدلالة (0.00) وهي أقل من مستوى الدلالة (0.05). وقد كانت هذه الفروق لصالح المجموعة التجريبية التي درست باستخدام تقنية الانفوغرافيك، حيث بلغت قيمة المتوسط الحسابي (27.51)، في حين بلغت قيمة المتوسط الحسابي للمجموعة الضابطة (18.33). ويرى الباحث أن تقنية الانفوغرافيك وما تحتويه من وسائل جذب للانتباه، أتاحت للتلامذة فرص التأمل فيها وقراءة مضمونها وتفسيرها والتميز بينها. مما أثر في قدرتهم البصرية والتأثير بشكل فعال في مستوى مهاراتهم في قراءة الرسوم والأشكال البصرية، وتميزها، وإعطاء أكبر قدر ممكن من التفسيرات حولها، ومحاولة تحليل الأشكال بشكل مناسب، وبالتالي استنتاج المعاني الصحيحة منها.

- للتحقق من صحة الفرضية الرابعة التي نصت على أنه لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات درجات تلامذة المجموعة التجريبية والمجموعة الضابطة في اختبار مهارات التفكير البصري البعدي المؤجل. جرى استخدام اختبار (ت) ستودنت كما يبين ذلك الجدول (9).

الجدول (9) نتائج اختبار (ت) لمتوسطات درجات تلامذة المجموعتين التجريبية والضابطة في اختبار مهارات التفكير البصري البعدي المؤجل

المجموعة	العدد	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	قيمة (ت) المحسوبة	درجة الحرية	مستوى الدلالة	القرار
التجريبية	21	26.43	4.613	1.524	43	0.00	دالة
الضابطة	21	15.61	5.031				

يلاحظ من الجدول (9) وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات درجات أفراد المجموعة التجريبية والمجموعة الضابطة في اختبار مهارات التفكير البصري البعدي المؤجل. حيث بلغت قيمة مستوى الدلالة (0.00) وهي أقل من مستوى الدلالة (0.05). وقد كانت هذه الفروق لصالح المجموعة التجريبية التي درست باستخدام تقنية الانفوغرافيك، حيث بلغت قيمة المتوسط الحسابي (26.43)، في حين بلغت قيمة المتوسط للمجموعة الضابطة (15.61).

ويعزو الباحث ذلك إلى أن رسوم تقنية الانفوغرافيك كانت مفهومة وواضحة، وجذابة، مما ساعد التلامذة على تنظيم أفكارهم، وتتابعها، وإدراك ما بينها من علاقات، وربطها بما يوجد لديهم من معارف سابقة، مما يؤدي إلى احتفاظهم بتلك المعارف لفترة طويلة، وإلى سهولة تذكرها، مما أتاحت للتلامذة فرصة التأمل فيها وقراءة مضمونها، وتفسيرها، والتميز بين الأشكال المختلفة، وإدراك العلاقة بين المفاهيم والصور المتواجدة، مما أثر إيجابياً في قدراتهم البصرية، وقدرته على التفكير بصرياً. وهذا انعكس على أدائهم في اختبار مهارات التفكير البصري البعدي المؤجل.

- مقترحات البحث: خلاص البحث إلى عدد من المقترحات منها:

- ضرورة توجيه وتدريب المعلمين على تصميم واستخدام الانفوجرافيك في التعليم، لما لها من تأثير بشكل كبير في تحسين التحصيل، وتنمية مهارات التفكير البصري.
- تضمين مقرر طرائق التدريس بكليات التربية موضوعات تتعلق بالانفوجرافيك وتطبيقاته التربوية.
- إجراء بحث مماثل على مراحل دراسية أخرى، وفي مواد دراسية أخرى مثل الكيمياء والرياضيات.
- إجراء دراسات أخرى لمعرفة فاعلية الانفوجرافيك في متغيرات أخرى، مثل التفكير الإبداعي.
- تبني التفكير البصري هدفاً من أهداف تدريس الدراسات الاجتماعية في مرحلة التعليم الأساسي.
- الاسترشاد باختبار التفكير البصري عند تقويم التلامذة.
- إعادة النظر في البنى التحتية للمدارس، بما يتناسب مع عصر التكنولوجيا والمعلومات الرقمية.

قائمة المصادر والمراجع :

أولاً: المراجع العربية:

1. الدهيم، لولوة. (2016). أثر دمج الإنفوجرافيك في الرياضيات على تحصيل طالبات الصف الثاني المتوسط. مجلة تربويات الرياضيات بمصر، 263-281.
2. السيد إبراهيم، محمد (2018). استخدام الإنفوجرافيك الإلكتروني في تدريس الدراسات الاجتماعية لتنمية بعض مهارات استخدام الخرائط بالمرحلة الإعدادية، مجلة جامعة الفيوم للعلوم التربوية والنفسية، العدد 289، 10-340.
3. شحاته، حسن، النجار، زينب. (2003). معجم المصطلحات التربوية والنفسية، ط 1، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة.
4. شعث، ناهل (2006). إثراء محتوى الهندسة الفراغية في منهاج الصف طالبات الصف العاشر الأساسي بمهارات التفكير البصري، رسالة ماجستير، كلية التربية، الجامعة الإسلامية بغزة.
5. شلتوت، محمد (2016). الإنفوجرافيك من التخطيط إلى الإنتاج، ط 1. مصر: مكتبة الملك فهد الوطنية.
6. الشوبكي، فداء (2010). أثر توظيف المدخل المنظومي في تنمية المفاهيم ومهارات التفكير البصري بالفيزياء لدى طالبات الصف الحادي عشر، رسالة ماجستير، كلية التربية، الجامعة الإسلامية بغزة.
7. طافش، إيمان (2011). أثر برنامج مقترح في مهارات التواصل الرياضي على تنمية التحصيل العلمي ومهارات التفكير البصري في الهندسة لدى طالبات الصف الثامن الأساسي. رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الأزهر، غزة.
8. عباس، محمد، وآخرون. (2007). مدخل إلى مناج البحث في التربية وعلم النفس. ط 1، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.

9. عبد الباسط، حسين محمد (2015). المرتكزات الأساسية لتفعيل الإنفوجرافيك في عمليتي التعليم والتعلم. مجلة التعليم الالكتروني، جامعة المنصورة. العدد (15).
10. عزيز، مجدي (2005). التفكير من منظور تربوي، تعريفه- طبيعته- مهاراته- تنميته- أنماطه، القاهرة: عالم الكتب.
11. عفانة، عزو (2001). أثر استخدام المدخل البصري في تنمية القدرة على حل المسائل الرياضية والاحتفاظ بها لدى طلبة الصف الثامن الأساسي بغزة" المؤتمر العلمي- الثالث عشر، [مناهج التعليم والثورة المعرفية والتكنولوجية المعاصرة]، 24-25 يوليو الجزء الثاني، جامعة عين شمس.
12. العشي، دينا (2013). فاعلية برنامج بالوسائط المتعددة لتنمية المبادئ العلمية ومهارات التفكير البصري لدى طلاب الصف السادس الأساسي في مادة العلوم بغزة، رسالة ماجستير، كلية التربية، الجامعة الإسلامية بغزة.
13. عيسى، معتر (2014). ماهو الإنفوجرافيك تعرف ونصائح وأدوات إنتاج الإنفوجرافيك. متوافر على الرابط <http://blog.dotaraby.com>، تاريخ الدخول: 2020/1/12.
14. محمد، مديحة (2004). تنمية التفكير البصري في الرياضيات لتلاميذ المرحلة الابتدائية (الصم_العادين) " ط 1، جامعة القاهرة، مصر.
15. منصور، إسلام (2015). فاعلية برنامج يوظف السبورة التفاعلية في تنمية المفاهيم ومهارات التفكير البصري بالعلوم لدى طلبة الصف الثالث الأساسي، رسالة ماجستير، كلية التربية، الجامعة الإسلامية بغزة.
16. ميخائيل، امطانيوس (2009). القياس والتقويم في التربية الحديثة، منشورات جامعة دمشق، مطبعة الروضة، دمشق.
- ثانياً: المراجع الأجنبية:

17. -Çiftçi, T. (2016). Effects of Infographics on Students Achievement and Attitude towards Geography Lessons. Journal of Education and Learning. 5(1), 154-166.
18. -Dunlap, Joanna C & Lowenthal, Patrick R. (2016). Getting Graphic about Infographics: Design Lessons Learned from Popular Infographics. Journal of Visual Literacy, 35 (1), p42-59.
19. -Jean Margaret Plough (2004). Students Using Visual Thinking to learn Science in a Web-based Environment, Doctor of Philosophy, Drexel University.
20. -Longo et al (2002). Visual thinking Networking Promotes Problem Solving Achievement for 9th Grade Earth Science Students, Electronic Journal of Science Education, Vol (7), No (1) , pp (1-5).
21. -Simiciklas. (2012). The Powerof Infographics: Using Pictures to Communicate and Connect with Your Audiences(1st ed.). United States of America.
22. -Sudakov, I, Bellskey, T, Usenyuk, S, & Ployakova, v. (2014).mathematics and climate infographics: amachanism for interdisciplinary collaboration in the classroom. Unpublished research, department of mathematics, university of Utah".

الهجرة وتقاطع الصور النمطية: محاولة في فهم ظاهرة الهجرة من منظور علم النفس الاجتماعي

Migration and the intersection of the stereotyped image : An attempt to understand the phenomenon of migration from a social psychology perspective

د. محمد بالراشد/جامعة جندوبة، تونس

University of Jendouba Tunisia/Dr. Mohamed BERRACHED

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على ظاهرة الهجرة من منظور علم النفس الاجتماعي مستخدمة مفهوم الصور النمطية. فهذه الظاهرة القديمة باتت اليوم عرضة لتضارب صور نمطية بناها فاعلون مختلفون. وتمثل هذه الصور حافزا للكثيرين من شباب مجتمعات الجنوب إلى الهجرة، ولكنها في المقابل تمثل منطلقا لرفض المهاجر الوافد (الغريب). في تقاطع هذه الصور وتضاربها تكمن اليوم خطورة ظاهرة الهجرة، فبعد أن كانت لفترات طويلة جسرا لبناء المشترك الإنساني باتت اليوم محل تضارب لصور نمطية الأمر الذي أثر سلبا في علاقة المهاجر بمجتمع الاستقبال .

الكلمات المفتاحية: الهجرة، الصور النمطية.

Abstract:

This study aims to shed light on the phenomenon of migration from the perspective of social psychology using the concept of stereotypes. This old phenomenon has become, nowadays, susceptible to discrepancies in stereotypes created by different interactors. These images represent an incentive for many youths from southern societies to emigrate; nevertheless, these stereotypes are, in turn, considered a factor for the rejection of an immigrant. At the intersection and inconsistency of these images lies today the seriousness of the phenomenon of migration. After long periods of having been the bridge to building common human values, this phenomenon has now become the subject of conflict of stereotypes, which has negatively affected the migrant's relationship with the receiving society.

keywords : migration, stereotypes

"إذا حصل النَّاس على مجموعة من الحقائق ولو ضئيلة فإنهم يندفعون إلى تكوين تعميمات كبيرة"

(البورت)

مقدمة:

مثّلت الهجرة- على مرّ الأزمان- قناة من قنوات التّواصل والتّفاعل بين البشر، حيث كانت على مرّ التاريخ سبيلا للانفتاح على الآخر والتواصل معه، فمكّنت البشر -بذلك- من بناء المشترك، ومن تجاوز عقبات كثيرة منها ما هو اقتصادي واجتماعي وثقافي... الخ. ولكن لا يمكن اختزال الهجرة في هذا البعد التّفاعلي التّواصل بين الأفراد والشعوب ومن ثمة بين الثقافات، ذلك أن هذه الظاهرة ارتبطت في السنوات الأخيرة بأخرى تحتاج إلى فهم وتفسير بالمعنى السوسولوجي للكلمتين، ألا وهي ظاهرة الصّور النمطية التي صارت تُبنى من قبل أطراف مختلفة، حتى أن بعض هذه الصّور بات متناقضا حدّ التضارب. فتبدو الهجرة لشباب عاطل عن العمل، وفاقد للأمل في بلاده حلاً سحرياً لمشاكله، وسبيلا للانعتاق والتحرر ممّا يكبل تلك الفئة العمرية في المجتمعات الأصلية. وفي المقابل تبدو الهجرة بالنسبة إلى مجتمعات الاستقبال مبعث تخوّف من وصول المغايرين دينا ولغة وثقافة، الأمر الذي أنتج صورة نمطية سلبية وقائمة عن الآخر، ذلك الآخر الذي لن يتردّد في ارتكاب العنف - في أشكاله المختلفة- في مجتمعات فتحت له أبواب الرزق، ومكّنته من فرص حياة جديدة.

تبدو الهجرة اليوم- وعلى الرغم من قدمها كظاهرة إنسانية -فضاء تقاطع لصور نمطية ناجمة في الغالب عن فكر اختزالي، لا يرى في تلك الظاهرة إلا بعدا واحدا، فيفقد جوهرها كظاهرة تيسر التواصل والتفاعل بين الجماعات وبين الأفراد، ومن ثم بين الثقافات. وضمن هذا السياق تنزّل هذه المحاولة التي تندرج في إطار علم النفس الاجتماعي، والتي تحاول فهم علاقة الهجرة بالصّور النمطية التي تجتاح العالم، والتي تُترجم يوما بعد يوم في جدران لا مادية فقط وإنّما في جدران نفسية أيضا، جعلت العلاقة بالآخر مشوبة بالريبة والحذر وعدم الثقة، بل حتى الكراهية. وبعبارة أخرى، إن اختزال الهجرة في بعد واحد لا غير، وغضّ الطرف عن بقية الأبعاد الأخرى يجعلها مصدر صور نمطية متناقضة ومتضاربة، ومفضية في نهاية المطاف إلى إعاقة التواصل مع الآخر. وهو ما يعني أن الهجرة ظاهرة إنسانية مركّبة وتحتاج إلى تعدّد في زوايا النظر، ومنها زاوية علم النفس الاجتماعي التي تلامس الصور النمطية والتمثيلات les représentations التي ارتبطت بهذه الظاهرة لاسيما في السنوات الأخيرة والتي جعلتها إشكالا متعدّد الأبعاد.

الإشكالية:

كان من المفترض أن تتحوّل الهجرة - لاسيما في عصر العولمة الذي أتاح فرصة انتقال السلع بشكل غير مسبوق بين القارّات وبين الدول - إلى حلّ لمشاكل البلاد النامية كما البلاد المتقدّمة على حدّ السواء. فالأولى بدت عاجزة لأسباب تتصل بعوامل متعدّدة (اقتصادية وسياسية وثقافية واجتماعية) وبضعف القدرة على التخطيط و الفساد... عن الاستفادة من طاقات شبابها المختلفة، والثانية بدت محتاجة إلى طاقات عمالية شبابية، في وقت تراجع فيه عدد الشباب بهانتيجة تهرّمها السكاني... لكن الأمر لم يحدث، فاستحالت الهجرة مبعث خوف لدى الدول المتقدّمة ونوعا من التحدّي لدى شباب الدول النامية، الأمر الذي عكس في نهاية الأمر تقاطع صور نمطية متضادة بين الشباب الراغب في الهجرة، وبين ساكنة الدول المتقدّمة أو على الأقلّ جزء منها، حيث تكفي الإشارة في هذا السياق إلى استفادة اليمين المتطرّف في دول الشمال من قضية الهجرة في اختراق الكتل الانتخابية لتلك الدول، بل في وصوله إلى الحكم كما هو الشأن في إيطاليا وقبل ذلك في الولايات المتحدة الأمريكية... الخ. وعليه يكون من الوجيه والمنطقي التساؤل: لِمَ تحوّلت الهجرة إلى تقاطع لصور نمطية متناقضة تتقاطع فيها الأحلام بالواقع، والتضامن الإنساني بالعنصرية ورفض الآخر؟ أي إذا كانت الهجرة ظاهرة إنسانية، رافقت صنع الإنسان

لتاريخيته son historicité، فإن السؤال الذي يطرح نفسه هو لماذا تحولت في السنوات الأخيرة إلى مصدر للصور النمطية التي جعلت البعض يلقي بنفسه في البحر من أجلها، وجعلت البعض الآخر يقوم بتحسين نفسه بجدران مادية ونفسية حتى يمنع وصول الوافد إليه، ومن ثم يمنع بالخصوص اندماجه في المجتمع المهاجر إليه؟

منهجية الورقة:

انبتت هذه الورقة على مقارنة تحليلية مدعومة بأداة المقابلة. فظاهرة الهجرة كفضاء تتقاطع فيه الصور النمطية تحتاج إلى فهم وتفسير بالمعنى السوسولوجي للكلمتين. ولذلك تم اعتماد مقارنة تحليلية مدعومة بالمقابلة مع مجموعة من الشبان معتمدية بني خداش (من ولاية مدنين بأقصى الجنوب الشرقي التونسي، فهي تبعد حوالي 600 كلم عن تونس العاصمة) إثر حادثة قرقنة التي ذهب ضحيتها 84 مهاجرا غير شرعي¹، وقد بلغ عدد الضحايا من بني خداش 14 مهاجرا غير شرعي. وقد كانت المقابلة حرة وجماعية حيث كان عدد المستهدفين 15 شابا تتراوح أعمارهم بين 20 و35 سنة.

أهمية البحث:

تستمد الورقة أهميتها من كونها تتناول مسألة تقاطع الصور النمطية التي رسمها شباب بلدان الجنوب من جهة مع صور نمطية أخرى صارت سائدة لدى شريحة واسعة من ساكنة الغرب. ففي الوقت الذي بدت فيه الصور الأولى مفعمة بالإيجابية، مختزلة في العيش الكريم، وفي الدخل المرتفع، وفي أسلوب الحياة المرن الذي يتيح الارتقاء لا في المهنة فحسب وإنما في السلم الاجتماعي بصفة أخص، وفي نمط عيش يؤمن بالحرية الفردية ويقدمها، بدت الصور المهيمنة على جزء مهم ولا يستهان به من ساكنة الغرب مختزلة في أن الوافدين الجدد يهددون شباب تلك البلاد من خلال افتكك مواطن الشغل، وهم فضلا عن ذلك يرمزون إلى صعوبة الاندماج الثقافي، بل هم أكثر من ذلك رمز للآخر الخطير الذي لا يهدد فرص العمل بالنسبة إلى الشباب المقبل على العمل فحسب، وإنما يهدد نمط الحياة في دول الشمال من خلال المنظومة القيمية التي يحملها والتي كثيرا ما تحول دون اندماج أولئك المهاجرين بيسر في المجتمعات المهاجر إليها. فتتحول الهجرة بذلك إلى فضاء تتصادم فيه تصورات الذات للآخر وتصورات الآخر للذات، الأمر الذي يفرض تناول إشكالية الهجرة من منظور آخر، منظور يركز على علاقة الذات بالآخر نتيجة جملة من التحولات التي عرفتها الهجرة والتي لم تعد فقط هجرة مجموعة من الرجال إلى الشمال، أي هجرة يد عاملة ستؤدي دورا محددًا ومرسوما بصفة مسبقة إلى هجرة شكّلت مجموعات انطوت على ذاتها في كثير من الأحيان لعوامل ذاتية خاصة بتلك المجموعات وكذلك لأسباب تتعلق ببلدان الاستقبال التي لم تجد الآليات الملائمة لإدماج الوافدين القادمين من ثقافات ومناطق مختلفة. ويكفي في هذا السياق أن نشير إلى أن المدارس ذات الأولوية التربوية في فرنسا، أو المناطق ذات الأولوية التربوية ZEP يقع أغلبها في أحياء المهاجرين. بمعنى أن المقاربات التقليدية للهجرة من منظور اقتصادي وأمني، وإن تكشف عن جوانب مهمة من الظاهرة، فإنها لا تساعد على تبين بعض جوانب علاقة الذات بالآخر في عالم يشهد من جهة تناميا لخطاب حقوق الإنسان، ومن ناحية أخرى عودة الانكفاء على الذات وإغلاق الحدود.

مفاهيم الورقة

1. المفاهيم المركزية:

الهجرة، الصور النمطية، التمثلات (التصورات)، الفكر الاختزالي

¹الصباح نيوز؛ فتح بحث تحقيقي في وفاة أحد منظمي فاجعة قرقنة (الثلاثاء 14 أوت 2018)

1. الهجرة بما هي أبعد من ترحال البشر، إنها انعكاس لعلاقة الذات بالآخر

جاء في لسان العرب "الهجرة من هجر ضد الوصل. هجره يهجره هجرا وهجرانا صرّمه، وهما يهتجران ويتهجران والاسم الهجرة. وفي الحديث لا هجرة بعد ثلاث، يريد به الهجر... والهجرة والهجرة: الخروج من أرض إلى أرض. والمهاجرون الذين ذهبوا مع النبي صلى الله عليه وسلم... وقال الأزهري: وأصل المهاجرة عند العرب خروج البدوي من باديته إلى المدن، يُقال هاجر الرجل إذا فعل ذلك، وكذلك كل مُخَلِّ بمسكنه منتقل إلى قوم آخرين بسكناه، فقد هاجر قومه... فكلّ من فارق بلده من بدويّ أو حضريّ أو سكن بلداً آخر، فهو مهاجر، والاسم منه هجرة"¹. فالهجرة لغويًا، هي مغادرة القوم والانتقال للسكن والإقامة في مكان آخر. أما اصطلاحًا، فالهجرة هي "أن يترك شخص أو جماعة من الناس مكان إقامتهم لينتقلوا للعيش في مكان آخر وذلك مع نيّة البقاء في المكان الجديد لفترة طويلة أو أطول من كونها زيارة أو سفر"². بمعنى أن الهجرة ليست مجرد سفر عادي لفترة محدودة يعود بعدها المسافر إلى بلده. ولذلك اعتبر انتوني غيدنز "المهاجرة هي انتقال الناس من منطقة أو مجتمع إلى آخر بغرض الإقامة والاستقرار. وقد تزايدت الهجرة العالمية عبر الحدود الدولية في أعقاب الحرب العالمية الثانية وازدادت سرعة وكثافةً من جراء عملية العولمة المعاصرة"³. أي أن الهجرة تعني الانتقال للإقامة والاستقرار، بما يعنيه ذلك من تغيير في نمط الحياة سعياً للتأقلم مع المجتمع المهاجر إليه. ولذلك لا تخلو الهجرة من مخاطرة لا بالمعنى المادي (التعب / المشقة/...)، وإنما بالمعنى الرمزيّ الذي يلامس الثقافة، أو البعد الثقافي للإنسان والذي يفرض عليه تحديات استيعاب قيم الثقافة الوافد إليها، ومصالحتها مع ثقافته المرجعية.

تبدو الهجرة، إذن أعمق من مجرد الانتقال إلى العمل والإقامة في مكان آخر، إنها عملية ذهاب إلى الآخر، بما تعنيه تلك العملية من استعداد نفسيّ وذهنيّ للانخراط في أسلوب حياة كثيراً ما يكون مغايراً للنمط الذي كان يعيش ضمنه. فاختلاف أنماط الحياة، كما ذكره ابن خلدون سابقاً، يؤثّر في طبيعة الروابط الاجتماعية والعلاقات بين البشر.

ولكن الإشكالية الأعمق التي ترتبط بالانتقال إلى نمط حياة جديد هي أن أصحاب هذا الأسلوب في الحياة يعتبرونه في منزلة أسوأ وأرفع من نمط حياة المهاجرين الوافدين، وهنا تبرز قضية النظرة إلى الآخر والتي كثيراً ما تبرز رفضه، بل وحتى ارتكاب العنف والقتل ضده؛ مثلما حدث في مدينة "نيس يوم 13 حزيران/ يونيو 1987 عندما اغتال ستة شبّان من ذوي "الرؤوس المخلوقة" شاباً تونسياً يدعى حمة العبيدي المقيم في فرنسا منذ عشر سنوات. وتذكر الصحافة أن أحد القتلة صرّح عند استجوابه "لقد قُتل عربيّ فما الأمر في ذلك؟"⁴.

ولئن كانت الهجرة، ليست بالظاهرة الجديدة، إذ "لو أمعنا النظر في تاريخ الإنسانية لوجدنا تنقل السكان من موطن إلى آخر صفة ملازمة للإنسان في كلّ فترات التاريخ مع تغيير الاتجاهات حسب عوامل الطرد والجذب. ولهذا فقد عمّرت أغلب الأوطان من جراء الحركات الهجرية التي ما فتئت تغتبط خارطة التوزع الجغرافي للسكان في العالم"⁵ إلا أنّها "أخذت بالتسارع المتزايد في العقود الأخيرة لتصبح جزءاً لا يتجزأ من عملية التكامل العالمي. وأصبحت أنماط الهجرة تعبّر عن التغيرات التي طرأت

¹ جمال الدين محمد ابن منظور؛ لسان العرب، المجلد السادس، بيروت، دار صادر، د/ت، ص 306

² عبد المؤمن مجدوب؛ ظاهرة الهجرة السرية والإرهاب وأثرها على العلاقات الأورو مغاربية، دفاقر السياسة والقانون، العدد العاشر، جانفي 2014، ص302

³ انتوني غينز؛ علم الاجتماع (مع مدخلات عربي)، ترجمة فايز الصياغ، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2005، ص342

⁴ روبرار شارفان؛ الآخر في فرنسا المعاصرة: العربي كبش الفداء، ضمن الطاهر لبيب (محرر)؛ صورة الآخر: العربي ناظراً ومنظوراً إليه، بيروت مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى 1999، ص 587

⁵ عبد الكريم الماجري؛ هجرة الجزائريين والطرابلسية والمغاربة الجوانوة إلى تونس 1831-1937، دراسة تاريخية لإشكالية الاستعمار والهجرة وتشكّل الجاليات المغاربية بتونس وخصوصياتها الاجتماعية والقانونية، تونس، الشركة التونسية للنشر وتنمية فنون الرسم، 2010، ص 21

على العلاقات الاقتصادية والسياسية والثقافية بين دول العالم. وتشير بعض التقديرات إلى أن المهاجرين في مختلف أنحاء المعمورة عام 1990 بلغوا نحو ثمانين مليون شخص يشملون نحو عشرين مليوناً من اللاجئين. ويُعتقد أن هذه الأعداد ستزيد في أوائل القرن الحادي والعشرين، بل إن بعض علماء الاجتماع يطلقون على أيامنا هذه "عصر الهجرة".

إن تزايد الهجرة في ما سمي بـ "عصر الهجرة" جعلها مصدر إشكاليات بكيفية غير مسبوقة باعتبارها أثارت في الفترة الأخيرة مسألة في غاية الأهمية ألا وهي علاقة الذات بالآخر. ففي زمن تتعالى فيه الأصوات المنادية بحقوق الإنسان، تنامي فيه نزعات الانكفاء على الذات، والانطواء عليها. ولعل هذا السياق هو الذي حوّل الهجرة منذ سنة 2000 إلى قضية دولية أو بالأحرى إلى مشغل دولي ولاسيما للأمم المتحدة. فقد أصبحت "المشكلات التي أثارها هؤلاء الأشخاص الذين يعبرون البلدان والقارات ويستخدمون القنوات الشرعية وغير الشرعية للهجرة ويعيشون الخوف والتهديد اليومي، كبضائع في أيدي التجار، الأمر الذي دفع بالأمين العام الأسبق للأمم المتحدة - كوفي عنان - إلى مراجعة المكانة التي تحتلها الهجرة في المشهد الدولي، وأن يعيد تقديرها وفرضها كأولوية على أجندة أنشطة الأمم المتحدة. وفي إطار هذه التحركات، فقد طالب الاجتماع العام للأمم المتحدة (نوفمبر 2000) في دورته الخامسة والخمسين بإقامة "يوم دولي للمهاجرين"². وبعبارة أخرى في مطلع الألفية الثالثة غدت الهجرة قضية دولية متزامنة مع تحولات كبرى عرفها العالم، حيث بدأ العالم في التوجّه فعلاً إلى تكوين قرية كونية على حد تعبير ماركسهاون...ولكن هذه القرية الكونية اصطدمت برؤى نظرية ترى العالم مقسماً على صراع الحضارات، وعلى التنافر بين المنتمين إلى ثقافات مختلفة، الأمر الذي يجعل لحضور الآخر في حياة الذات أبعاداً جديدة لم تُعرف من قبل. وعموماً "بقدر ما كانت ظاهرة الهجرة تاريخية، لم تخل فترة زمنية من ظهورها، بقدر ما طرحت ومازالت تطرح عدة تساؤلات حول مفهومها وأسبابها ومختلف انعكاساتها على بلدان الانطلاق وعلى مجتمعات الاستقبال"³. ولهذا السبب شغلت العديد من الباحثين في مجالات مختلفة (التاريخ والجغرافيا وعلم الاجتماع وعلم النفس...⁴).

2. الصور النمطية les stéréotypes

إن الصور النمطية عبارة عن "تمثيلات اجتماعية تنتقل في الحياة اليومية. إنها تصورات جماعية توجّه إلى الآخر كجماعة، كشخصية جماعية en tant que personnalité collective. إن للصور النمطية الجماعية (الوطنية والاثنية الخ) وظائف عديدة بالنسبة إلى الجماعة التي تحملها. فهي تيسر التواصل بين أعضاء الجماعة، لأنها توقّر لهم أطراً مرجعية جاهزة تهيكل بطريقة دالة العالم في خارج الجماعة، موقع الشعوب والاثنيات الأخرى. فهي تساهم في الانسجام الاجتماعي وتنهي معنى "نحن" (شعورنا نحن)، يربط القيم الموحدة لمجموعة مقارنة بتلك التي لدى الآخرين"⁵. أي أن الصور النمطية تشكل ممارسة عامة في حياة البشر، فنحن نرى الآخرين كواقع وكصور، كما يرانا الآخرون بالطريقة ذاتها: واقعا وصورا. وليس معنى ذلك أن الواقع شيء والصور شيء آخر، بل ثمة تداخلات والتباسات عديدة، فأحيانا ما تكون الصورة التي نكوّنها عن الآخر أكثر تأثيراً في الواقع لأنها هي التي تحدّد مواقفنا وسلوكياتنا إزاء هذا الآخر"⁶. ويعدّ والتر ليبمان Walter Lippman من أشهر الصحفيين السياسيين

¹ انتوني غيدنز، المرجع السابق، ص 331

² يوروميد للهجرة 2: الهجرة النسائية بين دول البحر الأبيض المتوسط، ص 9 منشور عن الموقع <https://library.eunighbours.eu/sites/>

³ عبد الكريم الماجري؛ المرجع السابق، ص 21

⁴ المرجع نفسه، ص 23

⁵ Jan Berting ; Identités collectives et images de l'autre : les pièges de la pensée collectiviste, Hermès, 30,2001, p46

⁶ يسري مصطفى؛ الصور النمطية: الآخر في مرآة الذات، عن الموقع ceoss-eg.org/wp.../2016/.

في القرن العشرين، الذين تحدّثوا عن الأفكار النمطية. وقد أوضح لنا ليمان مفهوم الأفكار النمطية، حيث تعني -حسب رأيه- الصورة الموجودة في أذهاننا¹.

وهي بالنسبة إلى "المتخصّصين من علماء النفس الاجتماعيين لا تختلف كثيرا عمّا أشار إليه "ليمان" فهي تعني الصور والمعتقدات التي نتمسك بها عن الآخرين أفرادا أو جماعات، وتتكوّن من مجموعة من السمّات أو الخصائص (قد تكون إيجابية أو سلبية) التي تميّز جماعات معيّنة². ولذلك "يعتبر مفهوم الصور النمطية" أحد المفاهيم الأساسية المرتبطة بتعقيدات العلاقة بين الذات والآخر، شأنه في ذلك شأن العديد من المفاهيم الأخرى مثل العنصرية والتعصب والتحيز. ولكن ما يجعل من مفهوم الصور النمطية مختلفا هو أنّه لا ينطوي على فعل مادّي مباشر، وإنّما هو فعل ثقافي ذهني يتمثّل في تشكيل صورة عن الآخر غالبا ما تكون سلبية ولكنها يمكن أن تكون إيجابية³. وفي السنوات الأخيرة صارت هذه الصور النمطية عاملا مؤثرا في النظرة إلى الهجرة.

II. في مشهد متنافر: بين التضحية بالغالي والنفيس من أجل الوصول إلى الضفة الأخرى، وبين الجدران المتنامية

لم يعرف العالم من قبل مثل هذا التنامي للهجرة ولأسيما منها الهجرة غير الشرعية، التي يقدم فيها الشباب من بلدان الجنوب على ركوب البحر، وعبور الصحاري ومختلف التضاريس الطبيعية ومواجهة المخاطر المختلفة بحثا عن الخلاص في بلاد الشمال. ولذلك غدت أخبار قوارب المهاجرين خاصة في السنوات الأخيرة مكونا أساسيا من مكونات نشرات الأخبار في العالم، سواء عند رسوؤها على شواطئ أوروبا أو عند غرقها وهلاك من كانوا على متنها.

وبطبيعة الحال ليست الهجرة البحرية - التي شكّل في الغالب البحر المتوسط في السنين الأخيرة مسرحها الرئيسي، حيث كان عام 2015 الأكثر دموية في مياه البحر المتوسط على الإطلاق، ووفقا للمفوضية العليا للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، توفي 3605 شخصا/أو فقدوا خلال محاولة العبور من شاطئ إلى آخر، بينما وصل 950.617 شخصا إلى شواطئ أوروبا وكلا الرقمين يمثلان مستويات قياسية محزنة⁴ - الهجرة الوحيدة، ذلك أن الحدود البرية بدورها كانت من معابر الهجرة الأساسية الأمر الذي ولّد ردّة فعل عند بعض الدول التي "أقدمت على تحصين حدودها، وعلى استخدام القوة مثل استخدام القنابل المسيلة للدموع والطلقا المطاطية أثناء تسيير دوريات حماية لحدودها لمنع أي عمليات دخول غير مأذون بها⁵، والأمر لم يقف عند هذا الحدّ. فقد "أقامت دول مثل النمسا وبلغاريا وفرنسا واليونان والمجر وإسرائيل ومقدونيا واسبانيا وتركيا والولايات المتحدة حواجز وأسوارا للتحكم بشكل أفضل في الدخول إليها وبالتالي عدم السماح بدخول "مهاجرين غير نظاميين" بما في ذلك اللاجئين⁶. وقد نجم عن هذه النزعة الحمائية للحدود، تنامي الجدران حيث تطوّرت في أماكن مختلفة من العالم من عشرة سنة 1945 لتتجاوز الـ 75 جدارا سنة 2017 مشكلة ما طوله 40000 كلم⁷. وقد "بنت الدول الأوروبية لوحدها 12 جدارا بهدف الوقوف في وجه المهاجرين، حيث أقامت اسبانيا جدارين حدوديين والمجر ثلاثة جدران بينما بنت كل من بلغاريا

¹ أحمد زايد؛ سيكولوجية العلاقات بين الجماعات: قضايا في الهوية الاجتماعية وتصنيف الذات، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عالم المعرفة عدد 326، أبريل 2006، ص 127

² المرجع نفسه، ص 127

³ يسري مصطفى؛ المرجع السابق.

⁴ يان كلوديسفولكل؛ الهجرة غير الشرعية: لماذا يموت العديد من الناس مياه المتوسط؟، مجلة الديمقراطية، عدد 61، يناير 2016، ص 84

⁵ ريدريس REDRESS؛ التدفق الجماعي للاجئين و إعادة القسرية وحظر التعذيب، 2016، ص 30

⁶ المرجع نفسه، الصفحة ذاتها.

⁷ Brugère (F) ;& Le blanc (G) ; Quelle hospitalité pour les migrants ? , Sciences Humaines, Hors-série, N°22, Mai-Juin 2017, p48

واليونان وفرنسا والنمسا وسلوفينيا واستونيا، إضافة إلى مقدونيا (الدولة غير العضوة في الاتحاد الأوروبي) جدارا واحدا¹. ولا يزال الرئيس الأمريكي "ترامب" يخوض صراعا مع الكونغرس ذي الأغلبية الديمقراطية من أجل تمويل بناء جدار على الحدود الأمريكية مع المكسيك.

III . صور نمطية متقاطعة حدّ التضارب

تبدو للمتأمل في الصور النمطية المتصلة بالهجرة صورتان متناقضتان تتأتى الأولى من التصورات التي بناها الشباب المهاجر أو الراغب في الهجرة من البلدان النامية إلى بلاد الشمال المتقدمة. وفي المقابل بُنيت الصورة الثانية من طرف جزء مهمّ من ساكنة بلدان الشمال رأى في الهجرة خطرا على مواطن شغل الشباب التي غدت شحيحة بسبب الأزمات التي تعاني منها اقتصاديات كثيرة في تلك البلدان، كما رأى في المهاجرين خطرا على النسيج الاجتماعي والثقافي لتلك البلدان.

1. الصّور النمطية المبنية من قبل الشباب: بلاد الفرص والحرية تحتضن الرّجولة

أظهرت المقابلات التي أجريناها مع بعض الشباب بجهة بني خداش (بالجنوب الشرقي التونسي) بعد حادثة مركب قرقنة² والتي أدت إلى وفاة عدد من شبّان الجهة الراغبين في الهجرة تصميمهم القطعي على الهجرة، مشدّدين على أنّهم لن يتردّدوا في مغادرة البلاد متى سنحت لهم الظروف.

بمعنى أنّهم مصمّمون على الهجرة بطرق شرعية وغير شرعية مهما كانت المخاطر المحدقة بهم، وأنّهم على استعداد لممارسة أية مهنة هناك بما في ذلك المهن التي يرفضون القيام بها في بلدهم أو في بلدتهم مثل العمل الفلاحي، أو العمل في قطاع البناء... الخ. ويبرز هذا الإصرار بعوامل مختلفة قائلين في أوروبا (بلاد الشمال) الدخل محترم، حيث بإمكان الإنسان أن يوقّر من المال ما يخوّل له اقتناء سيارة، ومساعدة عائلته، فضلا عن بناء مسكن والزواج، بل إن الزواج من امرأة أوروبية مطلوب أيضا. وتبدو هذه الصورة انعكاسا لما يراه الشباب عند عودة أقرانهم المهاجرين، والذين نجحوا في الوصول إلى الشمال بطرق شرعية أو غير شرعية.

تبدو الصورة النمطية التي رُسمت في أذهان الشباب عن مجموعات المهاجرين مختزلة في النّجاحات التي حُققت من قبل بعضهم بالمهجر والتي خوّلت لهم احتلال منزلة اجتماعية محترمة في مجتمعاتهم عند عودتهم.

وبتعبير آخر، صارت صورة المهاجر مبدّلة ومفضّلة على صور فئات أخرى. وفي هذا السياق بيّن نجيب بوطالب أن صورة المعلّم على سبيل المثال، بدأت بمرور الزمن "تخترق بتضمينات سلبية لدى الرأي العام المحلي. ولم يعد مطمح الأطفال الصغار حينما يسألهم الكبار أن يصبحوا معلّمين وأساتذة (رمز السلطة والاحترام والوقار والأناقة...) كما تقهقر نموذج "العريس المعلّم" عند الفتيات لصالح "العريس المحامي" و"العريس الطبيب" ثم "العريس التاجر" وقس على ذلك "العريس المهاجر"³.

¹ 12 جدارا أوروبيا تقف في وجه المهاجرين عن الموقع www.aljazeera.net

² جدد الحادثة في شهر جوان 2018، وتحديدًا يوم 2 جوان 2018، وقد أسفرت عن غرق مركب يحمل عددا كبيرا من المهاجرين وقد أدّى الحادث إلى وفاة العشرات من بينهم 14 شابا من بني خداش مثلما سبقت الإشارة إلى ذلك.

³ محمد نجيب بوطالب؛ الأبعاد الاجتماعية والثقافية لأزمة القدوة: أنموذج القدوة في المدرسة العربية المعاصرة (حالة التعليم في تونس)، مجلّة مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، خارج السلسلة عدد4، تونس 2005، ص 279

لقد أدت المنزلة التي غدا عليها بعض المهاجرين من الدوافع المباشرة إلى الهجرة ولكنها ليست المكوّن الوحيد لصورة المهاجر ولصورة البلدان المهاجر إليها، فهناك صورة أخذة في التبلور، وهي صورة الرجولة والتي بدأت في التشكّل مع الهجرة غير الشرعيّة أي تلك الهجرة التي يدخل فيها المهاجرون "البلاد بدون تأشيرات أو أذونات مسبقة أو لاحقة"¹.

وبذلك تشكّل الهجرة غير الشرعيّة تحديًا لرجولة فُقدت بسبب الفقر والحاجة، وقلة ذات اليد، وأيضا بسبب الكبت وبسبب استبداد ثقافيّ وسياسيّ حال دون تمكين الشباب من إثبات الذات. وبعبارة أخرى لا تفضي الهجرة غير الشرعيّة إلى إثبات الذات وتأكيدّها في وجه الحيف الذي بات مُسلّطًا على الشباب في بلدانهم الأصليّة فحسب، بل إلى تأكيد الرجولة والفحولة، فهي عنوان الشجاعة. وتعبير مغاير "إن هذه الرجولة تدفعهم بالفعل نحو اختيار سبل صعبة ومسدودة"²، ذلك أنه وحده الشجاع "الراجل" يستطيع ركوب البحر والمغامرة لينال ما يريد، وفي هذا استحضار لصورة الرجولة في المجتمع التونسيّ وفي المجتمع العربيّ عامة- التي يماثل فيها "النموذج المفترض للرجولة، لأن يكونوا أقوياء، قُساء وعدوانيين منطقيين وغيرها، ولأن يكونوا العاملين على تحصيل القوت عن طريق العمل وقوامين على النساء، كما يعتمد هذا الفعل بالمقابل على إخفاء مشاعر الضعف في أنفسهم وكتبها"³. وهذا يعني أن ركوب الصعاب (البحر) والهجرة غير الشرعيّة تنزّل في سياق تحقيق الذات وإثبات الرجولة في فضاء يعترف بالحقوق والمساواة التي افتقدت في المجتمعات الأصليّة. إن إثبات الرجولة ليس بالأمر اليسير أو الهين، ومن ثمّ جاز ركوب المخاطر لأجله.

وبناء على ما تقدّم، أمكن القول إن دوافع الشباب إلى الهجرة عديدة منها ما يتعلّق بالظروف الاقتصادية والاجتماعية ومنها ما يتصل بصورة المهاجر العائد بسيارة صيفا، والذي حقّق رجولته، فاستطاع مغالبة الزمن الصعب الذي كبّل شريحة واسعة من أقرانه، ومنها أيضا عامل الرغبة في تحقيق الذات وإثباتها بعد أن تعدّر ذلك في المجتمع الأم، ولعلّ هذه الدوافع مجتمعة وغيرها تبرّر بروز بعض الظواهر من قبيل "الزواج الأبيض" حيث يقبل شابّ على الارتباط قانونا فقط بشابّة من المقيمات بالمهجر دون أن يتمّ البناء، وذلك سعيا لتيسير التحاقه ببلاد المهجر، حيث يتمّ الطلاق بمجرد وصول الشاب واستقراره بذلك البلد، مقابل أن تحصل الشابّة على مقدار مالي.

و فضلا عن ذلك كلّه، صارت الهجرة إلى الغرب رمزا للتحرّر متعدّد الأبعاد: التحرّر من الفقر والحاجة والحرمان فجّلّ الذين يركبون المخاطر يرون في الهجرة سبيلا وحيدا للتغلّب على واقع قاس حرمهم من عيش كريم يطمحون إليه. والتحرّر من الظلم والاستبداد، فهذه الفئة الشابّة المهاجرة تقبل على مغادرة الديار متدمّرة لا فقط من الواقع المادّي الصعب وإنما أيضا من غياب من ينصتون إليها، ومن يأخذون بوجهات نظرها ومن يساعدها على أن تكون نشيطة وفاعلة في الحياة العامّة. فالتسلّط والاستبداد كابوس آخر خيم على شباب البلاد النامية فدفعهم إلى البحث عن التحرّر والخلاص من تسلط متعدّد الأبعاد: اجتماعي وسياسي وحتى ثقافي على الرغم من انتشار تكنولوجيا المعلومات والاتصال والتي حدّت -ولو إلى حد- من وطأة ذلك الاستبداد.

وتبدو المفارقة كبيرة بالنسبة إلى شباب بلدان كانت مستعمرة. فمن كان في نظر الآباء والأجداد رمزا للظلم والتسلّط والاستبداد بات اليوم في نظر الأحفاد رمزا للحريّة والخلاص والانعتاق. لم يعد المستعمر السابق منبوذا ومكروها بل على نقیض ذلك صار رمزا لتأكيد الذات وتحقيق الأحلام. ويكتمل هذا المشهد المرتبك والمتناقض من خلال هجرة النخب والمتقّفين في

¹ ورد عند محمد زيان؛ أزمة الرجولة والهجرة غير الشرعيّة نحو أوروبا: رؤية سوسيولوجيّة للدفاع عن القيم التقليديّة لدى الشباب الجزائري، إضافات العددان 43-44 صيف-خريف 2018، ص 182.

² المرجع نفسه، ص 183.

³ المرجع نفسه، ص 184.

المجالات المختلفة والتي ترى البقاء في البلدان الأصلية عاملا معيقا لإبداعاتها. بمعنى آخر، إن الصوّر النمطية التي بناها شباب البلدان النامية عن العالم الآخر هي صور تجمع بين الرغبة في تحقيق الذات، وبين القطع مع واقع مرير على جميع الأصعدة، وبين فضاء آخر تسوده الحرية وتُتاح فيه فرص الإبداع ولكن الوصول إليه ليس يسيرا، ومع ذلك فهو يستحق العناء والمكابدة لأنه فضاء الحرية والكرامة (العيش الكريم). ولكن تلك الصورة النمطية لا تعبر اهتماما لما يعانيه هؤلاء المهاجرون في بلاد المهجر التي رسمت بدورها للمهاجرين صورا نمطية جعلتهم في غالب الأحيان رمزا للأعمال الدنيئة وللتخريب.

جدير بالذكر أن الصورة النمطية التي بناها شباب العالم النامي للهجرة، وتحديدًا شباب العالمين العربي والإسلامي رافقتها صورة نمطية أخرى تجسّدت فيما يعرف بـ "الهجرة إلى الآخرة".

أي الهجرة إلى أماكن القتال للدفاع عن الأمة والدين. وقد لعبت عدة عوامل دورا فاعلا في تكريس تلك الصورة النمطية عن هؤلاء المقاتلين "المجاهدين". "ففي مطلع الثمانينات وبعد الاحتلال السوفياتي لأفغانستان تنادت الحكومات العربية والولايات المتحدة الأمريكية ومعظم الحركات الإسلامية معا للذود عن "أرض الإسلام" التي احتلها "الكفار الشيوعيون". وحظي هذا النداء بالدعم والتأييد المالي والإعلامي والسياسي. وقُدّم للمتطوعين الشباب الذين جاؤوا من بلدان إسلامية وعربية مختلفة السلاح والعتاد والتدريب، ورفع الإعلام الرسمي العربي وحتى الأجنبي من شأنهم، ومن شأن "الشهادة في سبيل الله" وسمّاهم من دون تردّد "المجاهدين" تأكيدا للمكانة الرفيعة واعترافا بنبل مهمتهم السامية². بمعنى أن صورة نمطية وضعت عن طريق الإعلام الرسمي العربي كما الغربي لأولئك الذين بادروا إلى تلبية دعوة الهجرة إلى "الآخرة". غير أن تلك الصورة سرعان ما تراجعت وخفت بريقها، فـ "تحرير أفغانستان أعقبه تبرؤ من هؤلاء "المجاهدين". فلم يرغب أحد في عودتهم إلى بلدانهم، وأسقطت تلك المكانة والهالة التي نسبت إليهم وتحولّ العائدون من أفغانستان إلى مطاردين في أصقاع الأرض ونشأ ما عرف بظاهرة الأفغان العرب"³.

من هذا المنطلق، يكون من الوجيه القول إن الصوّر النمطية لامست المهاجرين بنوعهم: المهاجرون إلى الآخرة (الذين رسمت لهم صورة المجاهدين، الغيورين المدافعين عن الدين)، و"المهاجرون إلى الدنيا"⁴ الذين يرون في الهجرة خلاصا من واقعهم المرير وسبيلا للتحرّر من العراقيل التي تكبلهم على جميع الأصعدة. غير أن الصورة الثانية، أي تلك التي تتصل بتمثّل الشباب المهاجرين لبلاد المهجر، هي التي تهتمنا في هذه الورقة مثلما تم التطرّق إليه أعلاه، وإن كان بين الصور نوع من العلاقة التي بدأت بالبروز في السنوات الأخيرة من خلال إقدام شباب من البلدان المغاربية والعربية والإسلامية على ارتكاب أعمال عنف تحت يافطة محاربة الكفّار حتى في ديارهم.

2. الوافد ليس مختلفا فقط إنه خطر داهم:

في مقال نشر بمجلة Sciences Humaines، وحمل عنوان نهاية الضيافة la fin de l'hospitalité بيّنت الكاتبة كيف أن المهاجرين يمثّلون سنة 2017 3.5 بالمائة من ساكنة العالم⁵، وأنهم غالبا ما يستقبلون بشكل سيء والسبب الكامن وراء ذلك صورة نمطية رُسمت لهم.

¹ طلال عتريسي؛ الشباب العربي بين هجرتين، شؤون عربية عدد132، شتاء 2007، ص 68.

² المرجع نفسه، ص 68.

³ المرجع نفسه، ص 68.

⁴ العبارة لصاحب المقال نفسه، ووردت في المقال ذاته.

⁵ Brugère (F) ; la fin de l'hospitalité, Sciences Humaines, N°292, Mai2017, p46

تبدو صورة المهاجرين اليوم، والتي تمّ الاشتغال عليها في الخطاب الشعبويّ لأحزاب اليمين المتطرف وثيقة الصلة بأصولهم وبتقافتهم الأصلية، إذ كثيراً ما ارتبطت تلك الصورة برفض قيم الشمال، وبالانتصار إلى المجموعات المنغلقة عن نفسها والتي لا تتردّد في ممارسة العنف ضد السكان الأصليين. وبعبارة أخرى تعكس طريقة استقبال المهاجرين عامة والمهاجرين غير الشرعيين بصورة خاصة موقفاً تختزله صورة نمطيّة مفادها أن الغرباء الوافدين لا يهدّدون الشباب اقتصادياً فقط باعتبارهم ينافسونهم على مواطن الشغل وإنما يهدّدون النسيج المجتمعي لبلدان الشمال، وهو نسيج له خصوصيته.

ما لاشك فيه أن هذه النظرة إلى الغرباء تثير إشكالا كبيرا باعتبارها تعكس صورة سلبية للغريب الوافد، صورة تختزله في الجانب السلبي فحسب، ومن ثم تعيق التواصل معه وتفهمه. وبعبارة أخرى، تقوم تلك الصورة على جملة من القوالب من قبيل الآخر المتعصّب وغير المتسامح ومن قبيل الآخر الكسول الذي لا يعمل، ومن قبيل الآخر الطامع في خيرات الشمال، ومن قبيل الآخر الخطير المهّدّد لحياة الناس القادر على ارتكاب أبشع الجرائم (اغتيال أبرياء... الخ)، الأمر الذي عمل على ترسيخ تلك الصورة النمطيّة السلبية للمهاجرين. وقد نصّ تقرير المقرّر الخاص المعني بحقوق الإنسان للمهاجرين بشأن خطة لتيسير التنقل البشري لعام 2035 أنه "على خلفيّة المناخ الاقتصادي السيء وصعود الأحزاب القوميّة الشعبويّة والهجمات الإرهابيّة المأساويّة، تزايد كره الأجانب وخطاب الكراهيّة، ممّا أدى إلى اتّجاه تصاعدي بارز في التصورات السلبية عن المهاجرين وشكّل حجر عثرة أمام وضع سياسات أكثر كفاءة تستند إلى الأدلّة وحقوق الإنسان".¹

ولعلّ الخطر يكمن في أن انتشار تلك الصوّر سيتحوّل إلى جدران نفسيّة بعد أن شُيّدت الجدران الاسمنتية والحديدية (الأسلاك الشائكة) على الحدود. وإذا كانت هذه الأخيرة قابلة للزوال في صورة توقيع اتفاقيات ما، فإن الحواجز النفسيّة يصعب تخطّيها على المدى القصير وحتى المتوسط لأنّها تتعلّق بالمواقف والاتّجاهات، ومن هنا تبرز خطورة الصوّر النمطيّة التي رُسمت في بلدان الشمال لآخر الغريب، الوافد طمعا في الثروات والذي لن يتردّد في ممارسة أبشع الأعمال للتعبير عن وجوده، بل وللإفصاح عن حقه. وممّا لا جدال فيه، أن هذه الصور تتغذّى من وقائع وأحداث من قبيل التحرش الجماعي بالنساء (ليلة رأس السنة الميلادية سنة 2015) ومن قبيل أحداث يوم الجمعة الأسود في 13 نوفمبر 2015 التي "صعقت المجتمع الفرنسي بمدى وحشيّتها وعمى أهدافها...".² وإذا ما أضفنا إلى ذلك "عاملا مباشرا آخر للخوف من الغريب وللترهيب من الأجنبي"³ وهو التعصّب الذي أبداه بعض أفراد الجاليات المسلمة، نفهم كيف تستثمر أحزاب اليمين المتطرف تلك الصورة النمطيّة التي رُسمت للمهاجرين.

تعمل أحزاب اليمين المتطرف على استغلال تلك الصور النمطيّة السلبية للمهاجرين لأجل كسب المزيد من الأنصار، ومن ثم الفوز في الانتخابات. وهي بذلك لا تتردّد في العمل بشئ الطرق على ترسيخ تلك الصور النمطيّة عن المهاجرين لدى الرأي العام في تلك البلدان. ومثل هذا التوجّه، والذي يكسب تلك التيارات أنصارا جددا يجعل من الهجرة عائق تواصل بين البشر لا عامل تقارب يساعد على بناء المشترك. وبعبارة مغايرة، توظّف الأحزاب اليمينيّة في الغرب تلك الصور النمطيّة لكسب مؤيدين جدد لها، ولتحقيق الفوز في الانتخابات، والذي قد يمكّنها لاحقا من منع الهجرة أو حتى ترحيل أعداد كبيرة من المهاجرين، ولكنها تتناسى أن ترسيخ مثل تلك الأفكار النمطيّة من شأنه أن يؤدّي إلى نتائج قد تصل إلى تبرير العدوان على أولئك

¹ الجمعية العامة؛ مجلس حقوق الإنسان؛ تقرير المقرّر الخاص بحقوق الإنسان للمهاجرين بشأن خطة لتيسير التنقل البشري لعام 2035 ، أفريل 2017، ص 6.

² سلام الكواكي؛ اللجوء والهجرة في الغرب: استغلال سلمي من يمين عنصري وفشل للأحزاب التقليدية، مجلة الديمقراطية العدد 61/2016، ص 81.

³ المرجع نفسه، الصفحة ذاتها.

المهاجرين وحرمانهم من حقوقهم كبشر. وضمن هذا السياق تتأثّر خطورة الأفكار النمطية التي تعمل التيارات اليمينية في الغرب على نشرها وترسيخها لدى شرائح واسعة من مجتمعاتها. فهذه الأفكار ووظائف اجتماعية منها التبرير¹، بمعنى توظّف تلك الصور النمطية في تبرير ما يلحق بالمهاجرين من تهمة وحتى من اعتداءات بالعنف. ولهذه الأفكار النمطية آثار طويلة المدى تتجسّم في تلك الجواجز النفسية بين الأفراد والجماعات والشعوب التي تنعكس في مواقف وسلوكيات عنصرية، فضلا عن ذلك فإنّ هذه الأفكار النمطية تتناسى "حقيقة أن المهاجرين هم أولا وقبل كل شيء بشر لهم حقوق الإنسان"². بمعنى أن هذا العالم الذي فشل في تحقيق الحق في التنمية³ لفئات عريضة من ساكنة الجنوب، نجده اليوم وبسبب الاشتغال على الصور النمطية ينتهك حقا آخر من حقوق الإنسان وهو حرية التنقل.

ملاحظات ختامية:

- الهجرة مسألة مركّبة، وبدأت منذ سنة 2000 تأخذ اهتماما خاصا في المجتمع الدولي.
- تبدو الطبيعة المركبة لمسألة الهجرة من خلال تصادم الصور النمطية وتضاربها، فالصور التي رسمها الشباب لبلاد المهجر لا تقابلها صور تيسر قبولهم، بل صور تجعلهم موضع تهمة شتى منها ما يتعلّق بافتكاح مواطن الشغل من أهلها، ومنها ما يتصل بالاعتصاب ومنها أيضا ما يرتبط بالإرهاب والعنف.
- الهجرة مسألة تحتاج إلى مقارنة نفسية - اجتماعية، لأنها غدت عنوان تضارب صور نمطية يتطلّب التغلّب عليها دون الاشتغال على بناء ثقافة الاستقبال وتديير التنوع التي تسمح فعلا ببناء عالم متعدّد الثقافات واللغات وينتصر للقيم الإنسانية مثل العدالة والمساواة والتسامح ونبت كلّ أشكال التمييز....
- الصور النمطية حصيلة ثقافة، وعليه فإن تغييرها يستدعي بناء ثقافة مغايرة تعيد تشكيل الموقف من الآخر، وهي ثقافة تؤكّد على أهمية التواصل والتفاعل مع الآخر، وذلك في انسجام مع الطابع الكوني لحقوق الإنسان. بمعنى أن ما تحتاجه البشرية اليوم هو ثقافة ترسخ النظرة الإيجابية للآخر، وتساعد فعلا على العيش في إطار الاختلاف

¹ أحمد زايد؛ سيكولوجية العلاقات بين الجماهير، مرجع سابق، ص 131.

² صندوق الأمم المتحدة للسكان؛ حالة سكان العالم 2006 عبور إلى الأمل: النساء والهجرة الدولية، ص 2.

³ لقد اعتمدت الجمعية العامة للأمم المتحدة إعلان الحق في التنمية بموجب القرار 41/128 المؤرخ في 4 كانون الأول/ ديسمبر 1986. وقد جاء في المادة الأولى من الإعلان أن "الحق في التنمية حق من حقوق الإنسان غير قابل للتصرف...".

والتعدد. وقد يكون للمؤسسات التربوية والتعليمية دور لا فقط في تأهيل يد عاملة مختصة وإنما أيضا في ترسيخ ثقافة التسامح مع الآخر والتعايش معه، دون أن تكون المؤسسات الوحيدة المعنية بذلك.

قائمة المصادر والمراجع:

1. أحمد زايد سيكولوجية العلاقات بين الجماعات: قضايا في الهوية الاجتماعية وتصنيف الذات، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عالم المعرفة عدد326، أبريل 2006.
2. انتوني غيدنز؛ علم الاجتماع (مع مدخلات عربية)، ترجمة فايز الصياغ، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2005.
3. جمال الدين محمد ابن منظور؛ لسان العرب، المجلد السادس، بيروت، دار صادر، د/ت
4. الجمعية العامة للأمم المتحدة؛ إعلان الحق في التنمية ديسمبر 1986.
5. الجمعية العامة للأمم المتحدة؛ مجلس حقوق الإنسان؛ تقرير المقرر الخاص المعني بحقوق الانسان للمهاجرين بشأن خطة لتيسير التنقل البشري لعام 2035 ، أبريل 2017.
6. سلام الكواكي؛ اللجوء والهجرة في الغرب: استغلال سلمي من يمين عنصري وفشل للأحزاب التقليدية، مجلة الديمقراطية العدد61/2016
7. صندوق الأمم المتحدة للسكان؛ حالة سكان العالم 2006 عبور إلى الأمل: النساء والهجرة الدولية 2006.
8. طلال عتريسي؛ الشباب العربي بين هجرتين، شؤون عربية عدد132، شتاء 2007.
9. الطاهر لبيب/(محرر)؛ صورة الآخر: العربي ناظرا ومنظورا إليه، بيروت مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الاولى 1999.
10. عبد الكريم الماجري؛ هجرة الجزائريين والطرابلسيين والمغاربة الجواننة إلى تونس 1831-1937 ، دراسة تاريخية لإشكالية الاستعمار والهجرة وتشكل الجاليات المغاربية بتونس وخصوصياتها الاجتماعية والقانونية، تونس، الشركة التونسية للنشر وتنمية فنون الرسم، 2010.
11. عبد المؤمن؛ ظاهرة الهجرة السرية والإرهاب وأثرها على العلاقات الأورو مغاربية، دفاتر السياسة والقانون، العدد العاشر، جانفي 2014.
12. محمد زيان؛ أزمة الرجولة والهجرة غير الشرعية نحو أوروبا: رؤية سوسيولوجية للدفاع عن القيم التقليدية لدى الشباب الجزائري، إضافات العددان 43-44 صيف-خريف 2018.
13. محمد نجيب بوطالب؛ الأبعاد الاجتماعية والثقافية لأزمة القدوة: أنموذج القدوة في المدرسة العربية المعاصرة (حالة التعليم في تونس)، مجلة مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، خارج السلسلة عدد4، تونس 2005.
14. يان كلوديسفولكل؛ الهجرة غير الشرعية: لماذا يموت العديد من الناس مياه المتوسط؟، مجلة الديمقراطية، عدد61، يناير 2016.
15. مصطفى (يسري)؛ الصور النمطية: الآخر في مرآة الذات، منشور بالموقع ./2016/wp.../ceoss-eg.org

16. يوروميد للهجرة؛ الهجرة النسائية بين دول البحر الأبيض المتوسط، منشور بالموقع

<https://library.euneighbours.eu/sites/>

17. Berting (J) ; Identités collectives et images de l'autre : les pièges de la pensée collectiviste, Hermès, 30,2001

18. Brugère (F) ; la fin de l'hospitalité, Sciences Humaines, N°292, Mai2017

19. Brugère (F) ;& Le blanc (G) ; Quelle hospitalité pour les migrants ? , Sciences Humaines, Hors-série, N°22, Mai-Juin 2017.

دور الأوبئة والجوائح المائية في الهجرات البشرية بالمغرب خلال العصر الحديث

The role of epidemics and water pandemics in human migrations in Morocco during the modern era

ط.د. سعيد إدحمان/جامعة القاضي عياض، المملكة المغربية

Said Idhmane/PhD Researcher at the Faculty of Letters and Human Sciences, Cadi Ayyad University, Morocco

ملخص :

لقد بات من المعروف أن المغرب كغيره من بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط قد عرف زمرة من الأوبئة والجوائح المائية خلال العصر الحديث، والتي تركت آثارا متعددة على المشهد السياسي والبنى الاقتصادية والاجتماعية، فلطالما كان للظروف الطبيعية أثر حاسم في مجريات الأحداث في أي مجتمع ضعيف التحكم في القوى الطبيعية.

من هذا المنطلق سوف نتطرق في ورقتنا البحثية إلى ظاهرة سوسولوجية مهمة كانت تخرج من رحم هذه الكوارث الطبيعية، ألا وهي مسألة الهجرات البشرية التي كانت يشهدها المغرب، والتي تُعبر عن وقع هذه الإزم وأبعادها الخطيرة التي تتجسد في لجوء الأناسي إلى الفرار من بلاد القحط والوباء طلبا للنجاة من موت محقق، خاصة في فترة تاريخية تراجع فيها ظل السلطة الحاكمة على أراضيها، وضعفت أركانها واختلت أيما اختلال؛ وذلك لعدة عوامل سياسية، وسوسيو اقتصادية، وبنوية، وطبيعية، وبالتالي ضيق هامش تحرك الدولة وهشاشة تدابيرها لمواجهة تداعيات هذه الجوائح والأوبئة التي كانت تنيخ بكلها في مختلف أرجاء البلاد.

الكلمات المفتاحية: الأوبئة – الجوائح المائية – الهجرات البشرية – العصر الحديث

Abstract :

It has become known that Morocco has known a group of epidemics and water pandemics during the modern era, which have left diverse effects on the political, economic and social conditions. From this standpoint, we will analysis in our research paper a sociological phenomenon that was emerging from the womb of these natural disasters, mainly the issue of human migrations that were witnessing in Morocco, which expresses the impact of these crises and their dangerous dimensions that are embodied in the resort of population to flee from the countries of the drought and the epidemic in demand In order to escape certain death, especially in a historical period in which, the governed authority faded due to several political, socio-economic factors, and thus narrowed the margin of state movement and the fragility of its procedures to face the effects of these disasters that blow all parts of the country.

Key words : Epidemics—human migrations – water pandemics - The modern era.

مقدمة :

يعتبر موضوع الهجرة في تاريخ المغرب من أهم المواضيع التي تدخل ضمن ما يعرف بـ"الديمغرافيا التاريخية"، فعلى الرغم من أنه يثير الفضول العلمي للعديد من الدارسين والمهتمين بهذا الحقل المعرفي، إلا أن ما كتب عنه من دراسات ليست كافية لتشفي غليل الباحث، وهذا يرتبط ارتباطا وثيقا بعوز المادة المصدرية، فقد بات من المعلوم أن كتابة التاريخ الديمغرافي لم تحقق طفرة تُذكر، تحاكي التراكم الذي حققته الدراسات الديمغرافية في أوروبا اعتمادا على المناهج الكمية في دراسة دينامية السكان في بُعدها التاريخي لوجود العتاد المعرفي الكفيل بتحقيق ذلك، متمثلا في سجلات الكنائس، ووثائق الحالة المدنية، إلى جانب الإحصائيات المرتبطة بالمناحي السوسيو اقتصادية. فقد استغلت مدرسة "الحواليات" أكثر أيما استغلال التناهج الذي حصل بين التاريخ والديمغرافيا، ووظف نتائجه في تفسير الحدث التاريخي كما فعل كل من Meuvret و Goubert و Baehrel. على أن الصعوبة تزداد عندنا نرنو رصد الهجرة في علاقتها بالجوائح المائية والأوبئة. ولقد حاولنا من خلال هذا العمل سبر أغوار الاسطغرافية التاريخية والأبحاث الأكاديمية بغية تتبع أثر الأوبئة والجوائح المائية في التحركات البشرية بمغرب العصر الحديث.

لقد شكلت حركية السكان في المجال أثناء الأزمات الديمغرافية مشهدا مألوفا خلال هذه الفترة التاريخية، حيث كانت تقف مجموعة من الاعتبارات الموضوعية، وخاصة منها موجات الجفاف الحادة، وراء هجرة الأفراد والجماعات إلى المناطق التي لم تمسها الأزمة، أو التي شهدتها، لكن بصورة أخف وطأة.

وقد بات من المعروف أن جنوب البلاد، سواء في المناطق الجبلية أو المناطق الصحراوية تعتبر خزانات بشرية تنطلق منها هجرات جماعية إلى السهول لتعميرها، وترميم النقص الديمغرافي الذي عرفته. حيث فسر أحد الباحثين هذه المسألة، بالإشارة إلى أن هزالة الموارد التي تعاني منها الجبال والمناطق الصحراوية، لا يمكنها سد الحاجة من الطعام لسكانة تتكاثر أعدادها بوتيرة سريعة جدا، ما يدفعهم لاختيار الهجرة إلى السهول¹.

على أن القول بالتكاثر السكاني السريع في هذه المناطق، التي تعاني من صعوبة الظروف الإيكولوجية ينطوي على مبالغة، فالسهول الخصبة في الأوقات العادية هي التي توفر البيئة المواتية لحدوث تكاثر سكاني بهذه الوتيرة المذكورة.

ولحسن الحظ أن المادة المصدرية تقدم لنا إشارات تاريخية عن علاقة القحوط والأوبئة بالتحركات البشرية من قبيل قحط ووباء عام 1521 م، وما أسفر عنه من انتقال بعض القبائل من جنوب البلاد نحو شمالي تانسيفت كحربيل، واستقرار قبيلة تيكنة في السهل شرقي شيشاوة، في حين أن السباعيين استوطنوا سفح الأطلس الكبير بين شيشاوة وإمنتانوت²، وذلك ملأ النقص السكاني الذي شهدته هذه المجالات بفعل المجاعة والوباء³.

كما كان من نتائج الجفاف والوباء الذي عرفه المغرب ما بين أعوام 1005-1016 هـ/ وسنة 1598 - 1608 م، إطلاق العنان لهجرات قوية خاصة من قبل ساكنة مراكش وتارودانت، حيث تفرق سكان هاتين المدينتين نحو البادية والجبال، لأن الطاعون

¹ - حالي محمد، " المجتمع والأزمات الديمغرافية في تاريخ المغرب في القرن الثامن عشر (1727 – 1757) : مساهمة في الديمغرافيا التاريخية"، محاكاة للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2013، م.س، ص 190.

² - Rosenberger Bernard et TrikiHamid , « Famines et épidémies au Maroc aux XVI^e et XVII^e, Hesp-Tam, Vol XVI », fasc unique, 1973, pp : 140 - 142 .

³ -دي طويرسدبيكو، " تاريخ الشرفاء"، تعريب محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، 1988. صص 64- 65 .

الذي عرفته هذه الفترة " كان أكثر وقوعه بهم و انقراض جل أعيانهم حتى استولى الخراب من ذلك على الحاضرتين. ثم لم يزل يعود إليهم سنة وهم يفرون منه مدة من اثني عشر عاما¹، حيث لجأوا إلى " الغابات وسكنوا تحت أشجارها"².

ولعبت الندرة المائية دورا مهما - على الأقل منذ القرن 15م - في التحرك الواسع للقبائل المعقلية الصحراوية نحو الشمال الغربي في صورة موجات بشرية متوالية، فأصبحت قبيلة بني حسن في القرن 16م عند خنك الغريان [بين ميسور وكيكو]، وتحت تأثير نفس الظروف، وصلت زعير هي الأخرى إلى سهل أدخستان [قرب خنيفرة]، وقد انتشرت في نهاية القرن 16م فيما بين تگررّة Tigragra ومولاي بوعزة³.

ثم ساهمت نفس الظروف المناخية في مغرب القرن 17م إلى تواصل تحركات قبائل بني حسن، حيث تجاوزت منطقة كيكو، وانتشرت قرب منطقة صفرو، ثم تقدمت إلى ملوية العليا، لتتجه بعد ذلك إلى نهري سبو وأم الربيع في نهاية ق 17م، حيث توجد السهول الخصبة⁴.

وما يؤكد الترابط بين العامل المناخي والهجرات البشرية، شهادة مصدرية أوردها صاحب الاستقصا؛ تحيل إلى أن قبيلة الأوداية المعقلية، دخلت إلى سهل سوس تحت تأثير جفاف حل بمناطق تمركزهم بجنوب شرق المغرب، وتفرقت انطلاقا من هذا السهل، حيث اتجهت كل مجموعة منهم إلى قبيلة فاستوطنت بها⁵.

وتحت ضغط نفس الصعوبات الطبيعية، حلت مجموعات سكانية أخرى كآيتيفلما نوايتأومالو إلى ملوية العليا واتخذوها موطناً لهم، وبدورها انتقلت قبائل أيت إدراسن⁶ الصنهاجية بعد ذلك من تافيلالت وأعالى زين وغريس إلى الشمال الشرقي⁷، في حين استوطنت قبائل آيتسغروشن وبني مطير (قبائل صنهاجية) وزيان حول ولباس ومولاي بوعزة، ومشارف منطقة خنيفرة⁸. ولا يمكن الحديث عن مسألة الهجرات من الجنوب نحو الشمال، بمعزل عن نقيضها، حيث تتيح لنا الإشارات التي أوردها صاحب " الإحياء والإنعاش " بخصوص المجاعة الكبرى لعام 1071 - 1072 هـ / 1661 - 1662م، الفرصة لتوضيح هذا الجانب، فقد كان من تداعيات هذه الأزمة، أن أُطلقت العنان لموجات بشرية قادمة من شمال البلاد صوب جنوبها؛ لأن سكان الواحات كانوا أقل تضررا من سكان باقي الجهات، فكان الناس يفدون على درعة لاقتناء التمور، أما دادسوتدغة فكانت توفر

¹ - التمنارتي أبو زيد عبد الرحمن، " الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة "، تحقيق الزيد الراضي، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط 2، 2007، ص 111.

² - نفسه، ص 161.

³ - Colin (G.S)، « Origine Arabe des grands mouvements de population berbères dans le Moyen Atlas » ; Hesp- Tam, T. XXV, 2^e et 3^e trimestre ; p : 266.

⁴ - Ibi, p:267-268.

⁵ - يقول الناصري: " لما فتح المولى إلى إسماعيل رحمه الله مدينة مراكش الفتح الثاني...خرج إلى الصيد بالبسيط المعروف بالبحيرة من أحواز مراكش، فرأى أعرابياً يرعى غنما له..فساله فانتسب له إلى: ودي، كغني: قبيلة من عرب معقل بالصحراء، وأخبره بأنهم دخلوا من بلاد القبلة بسبب جذب أصابهم، قال: دخلنا بنجع كبير فافترقنا وذهبت كل طائفة منا إلى قبيلة فنزلت عليها، ونحن نزول مع الشبانات ". الناصري أحمد أبو العباس، " الاستقص الأخبار دول المغرب الأقصى "، ج 3، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1997، ص 51.

⁶ - تضم اتحادية أيتادراسن قبائل: آيت يوسي- آيت عياش- آيت إحاند - آيتأوفلا - آيت نظير (بني مطير) وإمجاط.

⁷ - راجع: السبتي عبد الأحد، " بين الزطاط وقاطع الطريق: أمن الطرق في مغرب ما قبل الاستعمار"، دار توبقال للنشر، ط 1، 2009، ص 271-273.

⁸ - Brignon Jean et autres, « histoire du Maroc », Hatier, Paris, 1967, p : 262.

لهم أنواعا من الربيع والشعير واللفت¹. وجدير بالذكر أن سلوك الادخار وآلية تدبير الأقوات في المناطق الجنوبية بصفة عامة، كان يساعد على التخفيف من حدة المجاعة.

هذا ولم تتوقف هذه الهجرة نحو الجنوب إلا عندما عادت التساقطات إلى شمال وغرب البلاد، آنذاك عادت القبائل إلى مناطقها، "فملوية لما أمطرت صارت كلها مرتعا فليس يلحقهم في جلب الربيع كبير كلفة"². بل انطلقت هجرة مضادة من الجنوب إلى الشمال، "إذ رجع من بلاد الصحراء... كل من فر إليها هاربا منها كما هرب إليها فكيف لا وقد سمعوا بخصب بلاد الغرب وأزغار وتادلا وهرب منها أيضا كثير من بواديهما"³.

وهنا لابد من الإشارة إلى أن قبائل كروان وحلفاءها آيت يمور- ذات الأصل الصحراوي- قضت الشتاء 1072 هـ/ 1662 م في منطقة تادلة، لأن هذه الأخيرة تعرضت لفراغ سكاني حاد بفعل هذه المجاعة، ومن المحتمل حسب إحدى الدراسات أن يكون استقرار هاته القبائل بتادلا وشمال الأطلس، يعود في الأصل إلى دور هذه المناطق الجنوبية التي نجت نسبيا من هذه الكارثة، كخزان بشري لترميم هذا الفراغ الديمغرافي⁴.

ولا ننسى بأن الخصائص الطبيعية للمناطق الشبه الجافة والصحراوية، كانت تجعلها محصنة إلى حد كبير من انتشار الأوبئة. فالباحث الإيطالي أتيليو غوديو Gaudio Attlio يؤكد على أن ساكنة الجبال والصحاري يعيشون في حالة من "الحرارة المرتفعة، أو البرد الشديد"، الشيء الذي منحهم "مناعة طبيعية مكنتهم من اتقاء هذه الأوبئة، وأتاحت لهم الصمود أمام تقلبات الجو واكتساب قوة بدنية استثنائية"⁵. مضيفا بأن الخصوصية البدوية للمجالات الصحراوية وعزلتها، تشرح قلة الأمراض والأوبئة، وتجعل من تفشيها في صورة عدوى، مسألة بالغة الصعوبة؛ إلا أن دخول مرحلة الاستقرار بالمدن وفر البيئة المواتية لانتشار هذه الآفات، حيث يقول أن "الصحراويين نادرا ما يصابون بالمرض نتيجة مرحلة البداوة الأولى، أما خلال مرحلة الاستقرار بالمدن فقد أصبح إنسان الصحراء يعرف أمراضا جديدة مرتبطة بالمدينة، حتى أضحي هناك تمييز بين أمراض المدن وأمراض البادية"⁶.

وعلى النقيض من ذلك، فإن رطوبة مناخ السهول الأطلنتية وقلة برودتها، كانت تخلق ظروفًا نموذجية لانتشار الأوبئة، كما أن هناك عاملا آخر كان يعمل على تفعيل آلية اشتغال الطاعون، ألا وهو غنى هذه السهول بالحبوب، ذلك أن الجرذان تتناسل

¹ - العياشي عبد الله بن عمر، "الإحياء والانتعاش في تراجم سادات زاوية آيت عياش"، مخطوط، الخزنة العامة بالرباط، رقم 1433 د.، ص 132.

² - نفسه، ص 133

³ - نفسه، ص 132.

⁴ - Rosenberger et Triki, « op.cit », pp : 22 – 23.

⁵ - AttlioGaudio, « Le Sahara Espagnol, fin d'un mythe coloniale », ARRESSALA, Rabat, 1975, p : 363.

⁶ - AttlioGaudio, « op.cit .. », p : 364.

أشار روزنبرجي والتريكي إلى أن البرودة النسبية للجبال، وأنشطتهم الرعوية تحصنهم إلى حد كبير من الأوبئة، إضافة إلى انعزالهم عن الجماعات السكانية، يجعل من انتقال العدوى أمرا صعبا، ما يتيح لها سد الفراغ البشري الذي تشهده السهول بعد تعرضها للكوارث الديمغرافية. راجع :

Rosenberger et Triki, « Famines... », 2^e partie, op.cit, pp : 40-42.

فيها بشكل واسع فتندشر الوباء وتسبب خسائر واضحة في الأرواح¹؛ بالتالي فإن ساكنة المناطق الجبلية وشبه الصحراوية كانت تقوم بوظيفة تعمير هذه الجهات، كما حصل في سنوات 1523-21م، 1662-61م، 1681-80م - 1738-37م².

وهنا لا بد من لفت النظر إلى أن بعض الفترات التاريخية، شكلت حالات استثنائية، لم تسلم فيها حتى المناطق الجنوبية من الوفيات بفعل القحوط وما نتج عنها، كما هو الشأن بالنسبة للفترة ما بين سنة 1598م وعام 1608م، ذلك أن الطاعون " عم سهل المغرب وجبله حتى أفنى أكثر الناس"³. وبصورة أشد وقعا ما عرفه المجال الواحي والصحراوي سنة 1089 هـ / 1678 م،

¹ - تزامن وباء 1742 - 1742 مع الخسائر التي تسبب فيها الجردان على القطاع الفلاحي، حيث يقول القادري عن أحداث عام 1153 هـ: "وفي أوائل هذا العام ظهرت نقمة الفار، سلطه الله على الزرع والبحائر والذرة والرمان، فكان يظهر منه في الفدادين فكان يترك الاندر الذي يخرص بمائة وسق لا يأخذ منه ربه شيئا لا قليلا ولا كثيرا، وكذلك في فدادين الفول والبحائر وفدادين الذرة والأجنات العجب العجاب، وكثرت إذابته حتى أعيا الناس بكل حيلة، فبدأ بأكل السنبل في الفدادين وهو قائم وفي الأندر وهو محصود، وأشجار الأعناب والتين والخوخ والرمان وغير ذلك. والحاصل أن كل ما ينفع به من جميع أنواع الخضر الربيعية والصيفية والخريفية والزرع والثمار كان يأكله، ولم يسلم منه ولا من نعمته إلا القليل النادر". القادري نشر المثنائي لأهل القرن الحادي عشر والثاني"، ج 4، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1977، ص ص 25 - 26.

أما ابن زيدان فيقول عن أحداث عام 1154 هـ: "وفي العام سلط الله الفار على الزرع والقطاني والبحائر والفواكه الخريفية في سائر البلاد". "إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس"، ج 4، تحقيق علي عمر، نشر: مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، 2008، ص 486.

سجل دانيال نوان Noin بأن الأوبئة التي عرفها المغرب في هذه الفترة، كانت أشد تأثيرا على المناطق السهلية منها في الجبال، لأن السهول هي التي تضم مقر التجمعات الحضرية والقروية، ومقر للمواسم والأسواق، ونقطة انطلاق للمحاور التجارية، مما يجعلها تشكل تربة خصبة لتنشيط حركية العدوى. أما الجبال فتتمتع بحصانة نسبية لأن سكانها يعيشون على اقتصاد مغلق. راجع:

- Noin Daniel, « la population rurale du Maroc », T: I, Paris, 1970. p: 267.

للمزيد حول دور القوارض والبراغيث في انتشار الطواعين راجع دراسة: شعابي رضوان، "صورة المغرب في كتابات الأطباء الفرنسيين 1912 - 1956"، أصل هذا العمل أطروحة جامعية لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ المعاصر تحت إشراف د. سمير بوزويطة، منشورات جمعية البحث والتوثيق، مطابع الرباط نت، ط 1، 2016، ص ص 190 - 193.

² - كتاب "التواريخ أو تاريخ فاس"، تأليف أخبار عائلة ابن دنان الغرناطية الفاسية، ترجمة وتقديم شهير عبد العزيز، منشورات ك.أ.ع. إ. تطوان- جامعة عبد المالك السعدي، مطبعة الخليج العربي، ط 2، 2007. ص 62.

- Rosenberger et Triki, « Famines... », suite, p: 40 - 41.

استيتو محمد، "من وسائل مواجهة الفقراء للمجاعات في المغرب خلال العصر الحديث (نماذج من القرنين 16 و 17)"، مقال ضمن ندوة المجاعات والأوبئة..، م.س، ص ص 264 - 266.

³ - الإفرائي محمد الصغير، "نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي"، تقديم وتحقيق عبد اللطيف الشاذلي، ط 1، 1998. م.س، ص 279. يقدم لنا أحمد بابا التنبكي حجم الخسائر التي عمت البلاد، بفعل هذه الوباء، والذي ابتدأ عام 1006 هـ / 1598 م، حيث يقول "وفي ذروة هذه المحن أصيبت عشيرته بوباء الطاعون فمات معظم أفرادها... وفي هذه الفترة العصبية فقد من أقاربه الأذنين ابنه محمد أو عمه عبد الله بن محمود بن أقيت.. ينظر: "نيل الإبهاج بتطريز الديباج"، م.س، ص 13.

التي " أفنى فيها الطاعون من مدغرة وتافيلالت وتوات ما لا يحصى.."¹، وفي نفس الظروف شهد المغرب عام 1091 هـ /1680م، سنة عجفاء أعقبها وباء كان شديد الوطأة على منطقة درعة².

في حقيقة الأمر، لم تكن التحركات السكانية وما تحدثه من اختلال في التعمير، تقتصر على اللجوء إلى المجالات القروية، بل كانت هناك هجرات بشرية من المدن المنكوبة إلى الحواضر التي لم تشهد الأزمة، وهي ملاحظة لم تغب عن تدوين الكتابة الاستغرافية، خصوصا في الفترات التي طال فيها أمد الكارثة، حيث يخبرنا فاجداVajda بخصوص مجاعة 21-1724م، عما أصاب ساكنة ملاح فاس من نكبات، حيث هلك عدد كبير منها، بينما فر معظم الناجين صوب مجموعة من المدن، فأصبحت أغلب الدروب فارغة، والحوانيت ومقفلة، وظلت الدور والأسواق مقفرة وكان كل يوم يمر ستة أو ثمانية أشخاص بأبنائهم ونساءهم وصغارهم راجلين، متوجهين إلى مدينة مكناس وإلى أمكنة أخرى³.

وهو أمر تم تسجيله أثناء تفشي الطاعون الذي تزامن مع الجفاف الحاد الذي ألم بالمغرب سنة 1150هـ/37-1738م، حيث هاجر ساكنة الحاضرة الفاسية إلى طنجة والعرانش والقصر⁴. كما أن بعض الشخصيات العلمية المرموقة التي فرت من هذه المجاعة " كمحمد بن السيد الحاج الحسن مع شيخه أبي عبد الله البناني، توجهوا صوب " ثغرتطوان، سنة خمسين ومائة وألف، في جملة الأهل والبنين والأقارب.."⁵. هذه الهجرة الاضطرارية تركت أكبر الأثر على تعمير وديمغرافية مدينة فاس؛ منظر رهيب، يُستشف من قول القادري بأنه " خلا من السكنى نحو الثلثين من فاس بالجوع والفرار"⁶.

والواضح أن مدنا أخرى عرفت بدورها هجرات بينية - صوب مدن مجاورة أو بعيدة - تبرز الزيف الديمغرافي الذي مسها في أزمة الثلاثين سنة (1727 – 1757)؛ فكلما بدأت الحواضر باسترجاع الأنفاس إلا وجاء القحط، وأعقبه الوباء كما يقدم لنا نموذج عام 1155 هـ/ 1742م حيث ترك السكان " ديارهم وبلادهم وتفرقوا في القصر ووزان والعرانش وتطوان وطنجة بعيالهم، وكثر الهرج والجوع والوباء والموت والرحيل ولا سيما أهل فاس، فكانوا أشد ضيق من الناس"⁷.

على أن هذه المدن التي شكلت محطات استقبال في هذه الظرفية الحرجة، ما لبثت أن دخلت في نكبة ديمغرافية، وذلك بفعل العدوى والتي من المرجح أن تكون قد انتقلت عن طريق هؤلاء الأفراد والجماعات القادمين من المدن المتضررة من المجاعة

1 - الرباطي الضعيف محمد بن عبد السلام، " تاريخ الضعيف: تاريخ الدولة العلوية السعيدة"، تحقيق وتعليق وتقديم أحمد العماري، نشر دار المآثورات، ط 1، 1986، ص 62 - 63.

كما يقول مويط جرمان. في نفس السياق: " بسبب الطاعون الذي سلطه على البلاد كلها، والذي بدأ عام 1678م، وأهلك نصف أولئك البرابرة. ولم ينج بعضنا أيضا من ذلك الداء..". راجع: " مويط جرمان، " رحلة الأسير مويط"، ترجمه إلى العربية محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات دار المناهل للطباعة والنشر، وزارة الثقافة، مركز الدراسات والبحوث العلوية، الرباطي، 1990، ص 39.

2 - الحضيكي، محمد بن أحمد، (ت. 1189 هـ/ 1775 م)، " طبقات الحضيكي"، ج 1، تقديم وتحقيق أحمد بومزكو، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط 1، 2006، صص 199 - 200.

3- Vajda Georges, « Un recueil de textes historiques judéo-marocains », Hesp-Tam, 2^e partie, T.XXXVI, 1^e et 2^e trim, 1949, pp: 162-163.

4 - الرباطي الضعيف، " م.س"، ص 126.

5 - الكتاني عبد الكبير بن هاشم، " زهرة الأس في بيوتات أهل فاس وتحفة الأكياس ومفاكهة الجلاس فيما غفل عنه صاحب زهرة الأس في بيوتات أهل فاس"، للكتاني محمد بن عبد الكبير بن هاشم، تحقيق الدكتور علي بن المنتصر الكتاني، جزآن، الموسوعة الكتانية لتاريخ فاس (1 - 2)، منشورات مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، ط 1، 2002، ج 1، ص 155.

6 - القادري، " نشر المثنائي"، م.س، ج 3، ص 404.

7 - الرباطي الضعيف، " م.س"، ص 141.

والوباء كمدينة فاس، وهو ما يُفهم من رسالة مؤرخة بفاتح يونيو 1742 م، تتحدث عن مصرع عدد من ساكنة القصر ووزان بفعل الطاعون، وفراغ هاتين المدينتين من ساكنتهما، لأن الأفراد الذين نجوا من الموت، توجهوا صوب مدينة العرائش¹. وقد سئل عن نساء المفقودين في المجاعات والمنتجعين في أزمة الطاعون... ما الحكم إن تزوجت بعد مضي أكثر من عدة الوفاة من غير اعتداد ثم قدم زوجها ما الحكم في ذلك². كما " سئل عن تزوج امرأة وهلك وهي الوصية عليهم من قبل والدهم، واشترطت على الزوج في عقد صداقها نفقة أولادها عشر سنين إن دامت الزوجية بينهما، وللأولاد الذكور مال تركه والدهم، ثم عجز الزوج عن نفقة أولادها وامراته والنفقة التي اشترطت عليه، فصارت هي تنفق عليهم من مال والدهم إلى الآن.. هل لأعمام الأيتام طلب الزوج بالنفقة عليهم أم لا"³.

ومن الضروري شد الانتباه إلى أن التدايعات الناجمة عن الأزمات الديمغرافية كانت تختلف حسب المجالات الجغرافية، حيث كانت تسبب دينامية بشرية حتى في الأودية الجبلية العليا للأطلس الكبير- على غرار المناطق السهلية- بحيث تجذب إليها مجموعات بشرية لتعميرها؛ إثر النقص السكاني، مما كان يُسفر عن صعوبة تمييز " المجموعات الإثنية" عن بعضها البعض في هذه الأودية⁴.

والحق أن الهجرة الداخلية لم تكن وحدها وسيلة للفرار من بلاد الجوع، فالهجرة الخارجية نحو البلدان المجاورة كانت بدورها آلية اضطرارية بحثا عن الطعام، كما هو الشأن بالنسبة لأزمة 1521 م، التي سجلت فيها هجرة عدد كبير من ساكنة دكالة ونواحيها صوب البرتغال وإسبانيا. وقد تجاوز عدد المهاجرين، خلال تلك المجاعة، 100 ألف نسمة، دخل منهم حوالي 60 ألف إلى إسبانيا حسب بعض الدراسات⁵. ومنهم من شد الرحال صوب جزر الكناري؛ حيث مثلوا القطاع الأكبر من بين الأجناس الأخرى، ثم وصل قسم آخر إلى البرتغال، وتمركزوا بلشبونة وضاحيتها⁶. وعلى الرغم من أنه لا يمكن إنكار وقع الأزمة على قبائل دكالة ونواحيها تحت أي ادعاء، فإننا نبيد تحفظنا حول هذه الأرقام، حيث يبدو في اعتقادنا بأنها لا تخلو من مُبالغة، وهي نقطة أشار إليها بعض الباحثين حينما أكدوا على أن الحالة

1- Renauld, « Les Pestes du Milieu du XVIIIème siècle.. », op.cit, p : 297.

2- السكتاني عيسى بن عبد الرحمان، " أجوبة سيدي عيسى السكتاني "، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم 2814 د.ص 14.

3- نفسه، ص 14.

4 - Montagne, Montagne Robert, « L'Aghbar et les hautes vallées du grand Atlas », Hesp-Tam, T.VII, 1^{er} trimestre, 1927», op.cit, p : 9.

في نفس السياق أشار جاك بيرك إلى أن سكساوة كانوا يستمدون مادتهم وانتماءهم من الجنوب، غير أن نزعتهم، على غرار المجموعات السكانية التي تغذيهم، تجلبهم نحو الشمال.

« les Seksawa tirent leur matière, leur substance. mais leur vocation, tout comme celle des groupes qui les alimentent, les attire vers le nord ». « Structures Sociales du haut-Atlas », sociologie d'aujourd'hui collection dirigée par Georges Balandier », 2^e édition, presses universitaires de France, Paris p : 71.

5 - Rosenberger et Triki, « Famines.. », 1^{er} partie, p : 134.

- استيتو محمد، " استيتو محمد، " الكوارث الطبيعية في تاريخ مغرب القرن 16 "، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، ك.ع.إ. ظهر المهرز، فاس، 6 - 144-1988 صص 93، 140.

الاقتصادية وأن الهجرة كانت محدودة لم تشمل غير جماعة من الفقراء، مستشهدين على ذلك بأن هذه القبائل العربية لاتزال "تقيم في مواطنها المعروفة بدكالة إلى يومنا هذا"¹.

لكن لا يمكن تحت أي حال من الأحوال الجزم بأن القبائل العربية التي تقطن حالياً بدكالة، هم من حفدة سكان هذه المنطقة في القرن 16 م، دليلنا على هذا القول هو نص أورده الناصري، جاء فيه: "واعلم أن الشاوية اليوم يطلقون على سكان تامسنا من قبائل شتى بعضها عرب وبعضها زناتة غير أن لسان الجميع عربي، وكان أصل جمهورهم من هؤلاء... ثم انضافت إليهم قبائل آخر، واختلطوا بهم فأطلق على الجميع شاوية تغليباً، وهكذا وقع في سائر عرب المغرب الأقصى المواطنين بتلوله فإنهم وقع فيهم اختلاط كبير حتى نسوا أنسابهم وأصولهم الأولى إلا في النادر، وذلك بسبب تعاقب الأعصار (كذا) وتناسخ الأجيال وتوالي المجاعات والانتجعات ووقعات الملوك بهم في كثير من الأحيان وتفريق بعضهم من بعض ونقل بعضهم إلى بلاد بعض.."². إذا كان هذا النص التاريخي الذي استشهدنا به بهم قبائل منطقة تامسنا، فإننا لا نجانب الصواب إذا قلنا بأن ما انطبق على هذه الأخيرة يسري على دكالة وغيرها من المجالات الجغرافية داخل البلاد.

وبالرجوع إلى المعدلات المرتبطة بتعداد المهاجرين من دكالة، فإننا سنجد بأنها تمثل جزءاً مهماً من إجمالي سكان هذه المنطقة، إذ أنها تصل إلى قرابة سدس ساكنتها فقد أشار أحد الباحثين إلى أن عدد سكان هذا الإطار الجغرافي بلغ في مطلع القرن 16 م أزيد من 600 ألف نسمة³.

ولا يفوتنا التأكيد على أن سقوط الأمطار بمعدلات قياسية وما يتبعها من سيول وفيضانات، كان بدوره يحدث حركية سكانية نحو مناطق أخرى، كما وقع بملاح مراكش عام 1048 هـ / 1639 م، حيث جاء في كتاب التواريخ ما نصه "دخل الماء دلواد والماء دي السما .. وطراً في ليهود هجرة عظيمة"⁴.

ولم تكن مسألة الفرار من بلاد الجوع، لتغيب عن ثنايا ما دونه النوازليون في كتب الأدب الفقهي باعتبارها مرآة تعكس الواقع المعيش، وتفصيل الحياة الاجتماعية للمجتمع؛ فكانت تُعرض العلماء لمعرفة الحكم الفقهي منها؛ "فقد سئل محمد بن عبد الله السملالي عن الفارفي زمن المسغبة هل يورث بلا حكم؟ فأجاب بأنه يورث بدونه لأن من خرج في سنة الجوع كان بمثابة الميت"⁵.

خاتمة:

وصفوة القول أن الجوائح المائية وما كان يعقبها من أوبئة ومجاعات كانت تلعب دوراً مهماً في إطلاق العنان للهجرات البشرية ونزوح الساكنة نحو الانتجاع والترحال، وبالتالي الاضطراب في التعمير وتراجع حياة الاستقرار وسيادة الاقتصاد الرعوي في مغرب العصر الحديث.

1- راجع ما ذكره الأستاذين محمد حجي ومحمد الأخضر. في هامش: ص 63 من كتاب وصف إفريقيا، للوزان الفاسي الحسن ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، جزءان، ط 2، 1983. ج 1.

2- الناصري، "الاستقصا"، م.س، ج 4، م.س، ص 67.

3- بوشرب أحمد، دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء أسفي وأزمور"، (قبل 28 غشت 1481 - أكتوبر 1541)، دار الثقافة، الدار البيضاء،³ ط 1، 1984. ص 84.

4- كتاب التواريخ، "م.س"، ص ص 49 - 50.

5- أورده السوسي محمد المختار، المعسول"، ج 5، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1961. ص 55.

وهناك جوانب أخرى يمكن البحث عنها، وكشف اللبس عنها من قبيل دور الماء في التحولات السياسية الكبرى التي عرفها تاريخ المغرب الحديث؛ فصعود العلويين للحكم وسقوط القوى السياسية المناوئة لهم (السعديون الأواخر، الزاوية الدلانية والسملاليون) في فترة وجيزة، أو ضعف جيش عبيد البخاري في أزمة الثلاثين سنة 1727 – 1757 واستتباب الأمور لصالح المولى عبد الله بن إسماعيل لا يمكن تفسيره بمعزل عن التداعيات التي خلفتها الجوائح المائية التي أناخت بكلكها في هذه الفترة .

ولذلك لاحظ كولان Colin بأن الأوبئة والقحوط ساهمت بشكل كبير في النزول المكثف للقبائل الجبلية المقيمة بالأطلس الكبير والمتوسط والريف نحو السهول الخصبة الغربية واحتلالها مكانة بارزة في تاريخ المغرب الحديث، لأنها شكلت آنذاك قوة موازية للسلطة المركزية، بل سترجع الكفة لصالحها عند تراجع ظل المخزن، واختلال أركان حكمه¹.

¹-Voir Colin (G.S), « op.cit : p : 268.

قائمة المصادر والمراجع :

1. بن زيدان عبد الرحمان، " إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس"، ج 4، تحقيق علي عمر، نشر: مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، 2008.
2. استيتو محمد، " من وسائل مواجهة الفقراء للمجاعات في المغرب خلال العصر الحديث (نماذج من القرنين 16 و 17)"، مقال ضمن ندوة المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجديدة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2004م.
3. استيتو محمد، " الكوارث الطبيعية في تاريخ المغرب القرن 16"، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب والإنسانية ظهر المهرز، فاس، 1988.
4. الإفرائي محمد الصغير، " نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي"، تقديم وتحقيق عبد اللطيف الشاذلي، ط 1، 1998.
5. بوشرب أحمد، " دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء أسفي وأزمور"، (قبل 28 غشت 1481 - أكتوبر 1541)، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط 1، 1984.
6. التمنارتي أبو زيد عبد الرحمن، " الفوائد الجمّة في إسناد علوم الأمة"، تحقيق اليزيد الراضي، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط 2، 2007.
7. حالي محمد، " المجتمع والأزمات الديمغرافية في تاريخ المغرب في القرن الثامن عشر (1727 - 1757) : مساهمة في الديمغرافيا التاريخية"، محاكاة للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2013.
8. الحضيكي، محمد بن أحمد، (ت. 1189 هـ / 1775 م)، " طبقات الحضيكي"، ج 1، تقديم وتحقيق أحمد بومزكو، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط 1، 2006.
9. دي طوريسدييغو، " تاريخ الشرفاء"، تعريب محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، 1988.
10. الرباطي الضعيف محمد بن عبد السلام، " تاريخ الضعيف: تاريخ الدولة العلوية السعيدة"، تحقيق وتعليق وتقديم أحمد العمري، نشر دار المآثورات، ط 1، 1986.
11. السبتي عبد الأحد، " بين الزطاط وقاطع الطريق: أمن الطرق في مغرب ما قبل الاستعمار"، دار توبقال للنشر، ط 1، 2009.
12. السكتاني عيسى بن عبد الرحمان، " أجوبة سيدي عيسى السكتاني"، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم 2814 د.
13. السوسي محمد المختار، " المعسول"، ج 5، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1961.
14. شعايي رضوان، " صورة المغرب في كتابات الأطباء الفرنسيين 1912 - 1956"، أصل هذا العمل أطروحة جامعية لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ المعاصر تحت إشراف د. سمير بوزويطة، منشورات جمعية البحث والتوثيق، مطابع الرباط نت، ط 1، 2016.
15. العياشي عبد الله بن عمر، " الإحياء والانتعاش في تراجم سادات زاوية آيت عياش"، مخطوط، الخزانة العامة بالرباط، رقم 1433 د.

16. القادري محمد بن الطيب، "نشر المثنائي لأهل القرن الحادي عشر والثاني"، ج 4، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1977.
17. كتاب "التواريخ أو تاريخ فاس"، تأليف أخبار عائلة ابن دنان الغرناطية الفاسية، ترجمة وتقديم شهير عبد العزيز، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان - جامعة عبد المالك السعدي، مطبعة الخليج العربي، ط 2، 2007.
18. الكتاني عبد الكبير بن هاشم، "زهرة الآس في بيوتات أهل فاس وتحفة الأكياس ومفاكهة الجلاس فيما غفل عنه صاحب زهرة الآس في بيوتات أهل فاس"، للكتاني محمد بن عبد الكبير بن هاشم، تحقيق الدكتور علي بن المنتصر الكتاني، جزءان، الموسوعة الكتانية لتاريخ فاس (1-2)، منشورات مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، ط 1، 2002.
19. مويط جرمان، "رحلة الأسير مويط"، ترجمه إلى العربية محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات دار المناهل للطباعة والنشر، وزارة الثقافة، مركز الدراسات والبحوث العلوية، الريصاني، 1990.
20. الناصري أحمد أبو العباس، "الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى"، ج 3، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1997.
21. الوزان الفاسي الحسن، "وصف إفريقيا"، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، جزءان، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ط 2، 1983.
22. AttlioGaudio, « Le Sahara Espagnol, fin d'un mythe coloniale », ARRESSALA, Rabat, 1975 .
23. Berque Jacques, « Structures Sociales du haut-Atlas », sociologie d'aujourd'hui collection dirigée par Georges Balandier », 2^e édition, presses universitaires de France, Paris.
24. Brignon Jean et autres, « histoire du Maroc », Hatier, Paris, 1967 .
25. Colin (G.S), « Origine Arabe des grands mouvements de population berbères dans le Moyen Atlas » ; Hesp-Tam, T. XXV, 2^e et 3^e trimestre, 1938.
26. Montagne Robert, « L'Aghbar et les hautes vallées du grand Atlas », HespérisTamuda, T.VII, 1^{er} trimestre, 1927 .
27. Noin Daniel, « la population rurale du Maroc », Paris, 1970 .
28. Renaud, (H.P.J), « Les Pestes du milieu du XVIII^e siècles », HespérisTamuda, T. XXVI, 4^e trim, 1939.
29. Rosenberger Bernard et TrikiHamid, « Famines et épidémies au Maroc aux XVI^e et XVII^e, Hesp-Tam, Vol XVI », fasc unique, 1973 .
30. Vajda Georges, « Un recueil de textes historiques judéo-marocains », HespérisTamuda, 2^e partie, T.XXXVI, 1^e et 2^e trim, 1949 .

المقدس بين المجتمعين، التقليدي والحديث

The sacred among the two communities, traditional and modern

د. نابتي علي/جامعة سعيدة، الجزائر

Dr. NABTI ALI / Univrsity of Saida

ملخص :

نُحاول في هذا المقال أن نفهم المقدس من خلال ممارساته المختلفة بين المجتمعين التقليدي والحديث. إنَّ الاكتفاء بحصر المقدس في مصطلحات التوافق الاجتماعي التقليدي-الموجه يُعطي الانطباع أنَّ المجتمع الحديث قد دخل مرحلة أزمة يصعب بل يتعذر فيها التمييز بين المقدس والوقائع الاجتماعية المقدسة أو تلك التي طالها التدينس. خلف النقاشات العامة حول قضايا مثل: المواطنة؛ الدين والدينية؛ معنويات المجتمع المُحِبَّة؛ العلمانية؛ تحديات التعددية الثقافية؛ الأصولية الدينية و التطرف؛ الراديكالية، تكمن المزيد من الأسئلة الأساسية بشأن المعاني المُشتركة أو أيلولتها باستمرار إلى صراع وعنّف. خلال تحليلنا سنكتشف أهمية المفاهيم السوسيولوجية للمقدس ومساهمتهما في النظرية الاجتماعية والدراسة الأكاديمية للمجتمعات المعاصرة والتقليدية سيات.

الكلمات المفتاحية: مقدس، مجتمع تقليدي، مجتمع حديث، وقائع اجتماعية.

Abstract:

In This article wetry to understand the sacred through his different practices between traditional and modern societies. A tendency to consider the sacred only in traditional consensus-oriented terms leads to the impression that modern society has entered a crisis period in which the sacred and the social facts the sacred/profane distinction make possible are in short supply. Behind public debates on issues such as citizenship; religion; secularism; the demoralization of society; the challenges of religious and cultural pluralism; religious fundamentalism and radicalization, lie more fundamental questions about what collective meanings or degenerate into on-going conflict and violence. Throughout our analysis we will explore how sociological concepts of the sacred can make an important contribution to the social theory and the academic study of contemporary and traditional societies a like.

Keywords: sacred, traditional society, modern society, social theory, academic study

مدخل:

كيف نطرح اليوم مسألة المقدّس؟ يرى نفر من المحلّلين في المجتمعات الغربية المعاصرة، التي تميل إلى الدنيوية - Sécularisation من خلال رجوعها النادر إلى الغيب لتفسير الواقع، أنّ هذه الديناميكية هي « حركة نحو مجتمع خارج عن الدّين»¹ يظل هذا الأمر صحيحاً بالنسبة لأوروبا على نحوٍ خاص، ولكنه أقل صحة بالنسبة للقارات الأخرى التي كانت محمية من التغييرات المعبرة عن الثورة العلمية الاستهلاكية والتقنية. تغيرت الحالة خلال سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين مع أبحاث علم النفس التجريبي للدّين التي جعلت التحقق من أطروحة أفول المقدّس أمراً ممكناً. بيد أنّ الإرهاصات الملحوظة على ذات المجتمعات خلال السنوات الأخيرة تُشير إلى اجتيازها لمتناقضات شديدة جعلت من العامل الديني عنصراً حاضراً بقوة لفائدة قرار عقائدي فردي وجماعي أو كملجأ هُوياتي؛ فبين « الخروج عن الدّين » المعلن من لدن البعض و« العودة إلى الدّين » المنادى بها من لدن آخرين ماذا عن المقدّس؟

تُعتبر دراسة المقدّس من الموضوعات التي نالت اهتمام علماء الاجتماع منذ وقت مبكر وقد جعل منها الكثير من العلماء محورا لأبحاثهم ومفاهيمهم عن الحياة الثقافية والاجتماعية في القرنين التاسع عشر والعشرين، ولقد ساد هذا الاتجاه في أعمال العلماء في المرحلة الكلاسيكية لعلم الاجتماع والممتدة من 1850م حتى 1920م، خلالها أصدر دورخيم وماكس فيبر على التوالي دراستهما الشاملة عن الدّين، إذ رفض كلّ على طريقته اختزال الاجتماع في العقلاني، كما دعا كل منهما إلى ضرورة إعادة التفكير في الدّين أي هذا التوجه العام لعصرهم.²

تعدّ الأنثروبولوجيا أول من حوّل الصفة الجوهرية للمقدّس إلى مفهوم متداول في العلوم الإنسانية والاجتماعية بحيث يعود الفضل في الإعداد النظري لدراسة موضوعات الديني والمقدّس إلى إميل دورخيم ومدرسته بشكل أساسي، تناول هذا العالم الفرنسي في مؤلفه الضخم الموسوم بـ الأشكال الأولية للحياة الدينية³ دراسة العبادات البدائية الأسترالية بالإضافة إلى الأساس السوسولوجي للديني، إذ حاز الكتاب على صيّت مشهود لتناوله المقدّس كنعقيض للمدّس حيث طرح ثنائية لا تقتصر فيها المفاهيم عند التعريفات الخاصة بكلّ مفهوم على حدة ولكن أيضاً العلاقة التي توحدتها. والواقع أنّ أعمال إميل دورخيم وجورج زيمل وماكس فيبر لم تحظ بتطوّر بحثي إلا بعد الحرب العالمية الثانية عندما زاد الولاء الديني خاصة في أمريكا؛ فبدأ العلماء ينظرون إلى الدّين كظاهرة اجتماعية يجب أن تُدرس وتُفسر.

انقسم مؤسسو علم الاجتماع الديني حول معرفة المقدّس والظاهرة الدينية إذ بلغ الأمر ببعضهم مثل ماكس فيبر للتأكيد على أنّ ظاهرات: المقدّس الديني من الصعوبة أن تطالها كفاءة عالم الاجتماع، إذ لا يمكنه أن يدرس سوى: لماذا هذا التنوع في الاعتقادات والعبادات والطقوس ومدى علاقتها بالمجتمع والثقافة وكذا في مسار حركة التاريخ؟ تعتبر المدرسة الفرنسية لعلم الاجتماع (دورخيم - Durkheim؛ موس - Mauss؛ ايبار - Hubert) صاحبة السبق في الاشتغال على المقدّس من خلال تغذية البحث السوسولوجي بمعلومات إثنولوجية جمّة حيث توصلوا إلى أنّ التعاطي العلمي مع المقدّس لا يجب أن يبقى حبيس تعريف واحد.

يشهد اختلاف مفاهيم المقدّس في العلوم الإنسانية والاجتماعية الغربية وتعدّها منذ نهاية القرن التاسع عشر على صعوبة تناول المفاهيمي لحقيقة هي، في آن واحد، ذاتية وموضوعية تنطوي كذلك على تجربة حسّاسة واعتقادات

1. Voir : Marcel GAUCHET: "Le désenchantement du monde: Une histoire politique de la religion", édition Gallimard, Paris, 1985.

2. محمد الجودة وآخرون: الانسان والمقدّس، دار محمد علي الحامي للنشر، تونس، دط، 1994، ص63.

3. Camille TAROT, "Le symbolique et le sacré", édition La Découverte, Paris, 2008, pp 275287.

ميتافيزيقية وثنولوجية متجذرة في الديني. فسح التعبير البدائي للمقدّس المجال أمام العلوم الإنسانية لبناء خطاب حول أهمية التعرف إلى السلبيّ (دنس، رجس، تهديدات، الخ.) كعلامات على ما وراء المعلوم وإلى تحوّله إلى قطبيات ايجابية ومفيدة. تجد اليوم الانتقادات المتفاقمة الموجهة لأعمال دورخيم ومدرسته حدودها عند النقطة المتعلقة بأنّ لا شيء يسمح بتأكيد وجود مقدّس في كلّ المجتمعات بوصفه ميدانا متماسكا وموافقا للمواصفات السالفة الذكر ليس إلّا.¹ منذ عام 1940م بدأت بحوث ودراسات جديدة استمرت حتى الآن لمعرفة شكل وظائف الدّين على المستوى الفردي والمجتمعي وأصبحت النظرة إلى الدّين ليس على أساس صدقه أو زيفه ولكن على أساس أنّها ظاهرة اجتماعية.²

1-الزمان والفضاء في الوعي الأسطوري للمجتمع التقليدي:

يتقلب الفكر الأسطوري بين قطبين متضادّين: المقدّس والمدنّس وبفضلهما يبني الإنسان التقليدي عقليته وينسج فضائه الجغرافي والزمني حتى يتمكن من استحضار الزّمن المقدّس، الزمن الجوهري، زمان الأجداد لمكان مقدّس يحاول الاقتراب من ذلك بتلاوة الأساطير وممارسة الطقوس ليصبح معاصرا لأجداده بحيث تمكنه مركزية المكان المقدّس كذلك من استرجاع المعرفة المقدّسة والتي تتلخص وظيفتها في حماية وجودها الأرضي ووضع النّظام والانسجام الضروريين لبلوغ المماثلة مع الكون. يميّز الإنسان البدائي الزمن والفضاء المدنّسين اللّذين يؤطران وجوده الاعتيادي؛ فالفضاء المدنّس يرسم الحدود الفيزيائية بين العالم المعلوم والعالم غير المعلوم وبذلك فإنّ الزمن المدنّس، يتبع الفضاء المدنّس وهو خطي لا ينعكس (يسير في اتجاه واحد). يؤسس اقتحام المقدّس، والذي يمثل قطيعةً في فضاء المدنّس، قيام الزمن والفضاء المقدّسين إذ يستحضرها الإنسان البدائي بانتظام في فترات صارمة مُخصصة لهذا الغرض، ففي كلّ احتفال موسمي يعاين إلياد – Eliade مايلي: «نجد نفس الزمن المقدّس، نفسه ذلك الذي ظهر في احتفال السنّة الماضية أو في الاحتفال الذي مر عليه قرن: إنّ الزمان المُنشأ والمقدّس (...). المُحيّن من جديد بالاحتفال. بمعنى آخر، فإنّنا نجد في الاحتفال الظهور الأوّل للزمان المقدّس.»³

خلافا للزمن المدنّس، الموصوف بالخطية وعدم الانعكاس، فإنّ الزمن المقدّس دائري، ينعكس ويُسترجع ليتجلى بالموازاة مع الوجود الاعتيادي ويتقدم عليه بوصفه حقيقة أسطورية وأبدية. ضمن هذا السّياق فإنّ أهمية الأساطير هي أكثر من بديهية⁴ ليس فقط كونها حاملا للعلم المقدّس، ولكن هي الوسيلة الوحيدة لنقله، لهذا فإنّ الرزنامة الطقوسية تستوجب تجديد الكون بانتظام حتى يتمكن من مواجهة قوى الهباء الهدامة. فضلا عن ذلك فإنّ نقل العلم المقدّس للأجيال يستري أهمية بالغة لدى الإنسان البدائي لهذا تؤدي الذاكرة دورا حاسما في سير العقلية البدائية بفضلهما يحافظ إنسان المجتمعات البدائية على ماضيه الديني ويقيم هويته الثقافية. وكذلك تعدّ الذاكرة مكانا للقاء مظهريّ الوجود الإنساني: المظهر الملموس والمدنّس والمظهر الخيالي والمقدّس، بهذا المعنى، تُمثل الأسطورة أولى أشكال إعادة تأليف ونقل الماضي الجمعي. لخص جان بيار فرنا - Jean Vernant Pierre حديثه عن المظاهر الأسطورية للذاكرة مشيرا إلى أنّ الصوّر التي تعكسها الأساطير تخص مباشرة تاريخا للذاكرة.⁵

يرتبط تخليد التواريخ المقدّسة بأصل ميلاد الرواية الشفوية التي عرفت أوجها في مرحلة الشعر الملحمي البطولي. وتتجلى الوظيفة الأساسية للذاكرة، بوصفها تجربة عقلية، في تنقل الإنسان البدائي من الزمن المدنّس إلى الزمن المقدّس لأجداده حيث

1. Camille TAROT, "Le symbolique et le sacré", Op. Cit, p 48.

2. أحمد الخشاب: الاجتماع الديني: مفاهيمه النظرية وتطبيقاته العلمية، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، دط، 1970، ص ص 25-26.

3. Mircea ELIADE, "Le sacré et le profane", réédition, coll. Folio Essais, éditions Gallimard, Paris, 1987, p 64.

4. Mircea ELIADE, "Aspects du mythe", coll. Folio essais, éd., Gallimard, Paris, 1957, p 15.

5. Jean Pierre VERNANT, Mythe et pensée chez les Grecs, éd. Poche, éd., La Découverte, 2005, pp 109136.

حازت على هذا الدور الرأسمال في المجتمع البدائي كونها الوسيلة الوحيدة في النقل الثقافي عبر الشفوي؛ يشير جان-بيار فارنا إلى العديد من الآلهة عند اليونان « تحمل اسما لوظيفة سيكولوجية » مثل Mnemosune إلهة الذاكرة.

« الأسطورة هي العنصر المبدع بامتياز »¹ إذ تشتغل كفاءتها على فئات مختلفة للفضاء والزمان وذلك بتطبيق منطقتين مختلفتين، الفضاء والحلم، فهما يسمحان بالتّظنر إلى الأسطورة على أنها ثمرة الوثبة الخلاقة للفطرة الروحانية الإنسانية. قارن بعض منظري الأسطورة ككارل كيرني- Kérenyi Carle أو جوزيف كامبال – Joseph Campbell أنظمة الأسطورة بالشعر والموسيقى حيث رافعوا على أنّ الثلاثة نابعة عن تعبير واحد مُعبر عنه في شكل رمز، إذ أنّ الرّمز يجمع التظاهرتين المتعارضتين للزوج: العقلية الصادرة عن الفكر، وغير العقلية المعادلة للصورة. يُجمل كامبال – Campbell بأنّ الأسطورة لا يمكن تأليفها إلاّ « في وعي فنان »²

يمنح المظهر الدّيني للفكر الأسطوري / للأساطير عمقها الأنطولوجي، وهي شاهدة على الفضاء والزمان المقدّسين اللّذين يُظهرهما الإنسان في الاحتفالات الدينية بهذا المعنى : « تدلّ الأسطورة في الأصل على الكلمة الحقّة، الخطاب الذي يساوي مطلقا، لهذا فإنّ الأسطورة مواتية في المقام الأوّل للأشياء الرّبّانية، التي لا تحتاج إلى دليل ولكن تُعطى مباشرة أو موحى بها. »³

1.1. الزمن الأسطوري:

يتصرف الإنسان الدّيني بإجراء تقويم مزدوج للزمن الذي يمرّ، إذ يتعامل مع الزمن الاجتماعي والزمن الأسطوري الكبير. يعرف زمن الأنشطة الاقتصادية توقفات بفعل قطائع تواريخ محدّدة في الرّزنامة بحيث يعود إليها الإنسان لتفعيل علاقات متميّزة مع المقدّس. يرتبط اختيار تلك الجزئيات الزّمنية المقدّسة بعلاقة مع تلك السباحة الكونية الكبرى؛ يُنظر إلى الرّمزية القمرية الشّمسية أو اعتدال الرّبيع والخريف بوصفها أزمنة كبيرة الشّدة لجميع تقسيمات الرّزمن، خاصة تلك المتصلة بعادات أو معايير زمن الحرث في المجتمعات التقليدية التي تمتاز بتبعيتها للوسط الطبيعي وخضوعها لقوانينه وامثالها لتوترته، فالإنسان التقليدي ينسجم مع البيئة كلّما استسلم لإيعاز الرّزمن الكوني وخضع له، فهو بذلك يستلهم الحكمة والمهارة. يتمظهر الرّزمن التقليدي بوصفه دوريا غير قابل للانفصال عن الفضاء أو حتى الأرض نجد تأثيره في الهندسة المعمارية وفي احتلال المكان وفي السلوكيات الاجتماعية فالطقوس كلّها موافقة ومطابقة للنظام الكوني باحترام مقنّن يطبعه التقديس.⁴

يدخل إدراك الرّزمن في الوسط الاجتماعي التقليدي ضمن النّظام الطبيعي للأشياء ويتفرع من تعاقب التوتيرات الطبيعية التي تنقلت من مراقبة الإنسان (تعاقب الفصول، تعاقب الليل والنهار... إلخ.) لهذا فإنّ أي محاولة تحليلية ترمي قياسا لهذا الزمن ستفقد دلالتها، فليس بوسع الإنسان تعديل الظواهر والتوتيرات الطبيعية فهو لا يستطيع التأثير في الزمن بل نجده يدعن لهذا الإطار الرّماني الطبيعي ويسعى إلى مطابقته. يُحيل هذا الإدراك على رفض القطيعة بين الزمان الطبيعي وزمن الأنشطة، كما يحيل كذلك على رفض آخر للقطيعة وهو مخصص حصريا لأنشطة العمل ووقت آخر مخصص لأنشطة خارج العمل "لا عمل"، تُمكننا مُحصلة هذا الرفض المزدوج من فهم حدّة مفهوم الرّزمن غير القابل للتّمييز الزمني والمفاضلة في المجتمعات التقليدية.

1. Walter Friedrich OTTO, "Essais sur le mythe", Transeuroperepress, Mauvezin, 1987, p 31.

2. Voir: Joseph CAMPBELL, "The Masks of God", Penguin Books, 1979.

3. Macel MAUSS, "Les fonctions sociales du sacré", presentation de Victor Karadi, éd. De Minuit, 1968, p 112.

4. Abderrahmane MOUSSAOUI, "Espace et sacré au Sahara", CNRS EDITIONS, 2002, p 269.

ساهم عالم الإناسة الأمريكي إدوارد. ت. هول - E. T. Hall بوضع مقارنة ثقافية لإدراك الزّمان من خلال إلقاءه الضّوء على مفهوم "لا تميز" الزّمني بتحليل مُقارن للسلوكيات في علاقتها مع الزمن عند الأمريكيين وعند هنود نيومكسيكو.¹ ركّز هول في دراسة نموذج المتعلق بالتمثل الاجتماعي للزّمن على فهم أوضح وجيّد لثقافتهم الأمريكية الشمالية، فجاء بمفهومين: المفهوم الأول سمّاه الإحاديّة والأحاديّة في العمل « monochronie » وهو النّظام الأوربي الذي يقضي بقيام الإنسان سوى بشيء واحد، أما المفهوم الثّاني فأطلق عليه تسمية « polychronie » وهو النّظام الذي يقوم على إنجاز عدة أشياء في آن واحد إذ يلتزم الأفراد فيه بإتمام بنود العقد بغض النّظر عن الانخراط في توقيت متفق عليه سلفاً فلا مجال فيه لاحترام المواعيد وهو ما يُعرضه للإهمال أو الإلغاء حيث وصفه هول بالمهزوز في فائدته ومردوديته لأنّ الفرد لا يُحقق إلاّ مفاضلة ضعيفة للزّمن بالنسبة للأنشطة التي ينجزها يومياً.²

لا يُؤسّس منطق مناقشة الزّمن في المجتمعات التّقليدية على مفاضلة وتفريق واضحين أو على تعارض قطعي بين أنشطة العمل المنتج للمواد الاستهلاكية وباقي الأنشطة (احتفالات...) فالمسألة تتوقف على مساهمة كلّ منهما في الحفاظ والاستمرار في الحياة. إذاً، عدم القدرة على إجراء تمييز زمني هو قائم على غياب قطعية ما بين العمل المنتج والأنشطة العائلية والجمعية الدينية.

2.1. حدود الأفق الزّمني.³

يعتبر الأفق الزّمني ميدانا مهماً في تحليل السلوكيات ومدى ارتباطها بالزّمن في الوسط التّقليدي، فهو يسمح بتأمين التّمثيل الاجتماعي للزمن في علاقته مع ثلوث البارز: الماضي، الحاضر والمستقبل. يمارس الماضي على الأفراد في الثقافة التّقليدية جاذبية لا تُقاوم فهو يمثل مجمل الأحداث الماضية أو الشّخصيات المساهمة في تأليف الذاكرة الجماعية، والتي تسمح بتقوية المحافظة على التّقاليد والأعراف: أساس كلّ ثقافة.

يتجلى سلطان تحديد الأفق الزّمني عند الإنسان التّقليدي من خلال الدّور المؤثر للماضي على التّمثيل الاجتماعي للزمن إذ يتعدى وظيفته العادية المُتمثلة في ضبط الأحداث الحاضرة والمستقبلية إلى وظيفة تحبس الفرد ضمن دائرة زمنية مُفرغة، تجعله يُصدق بأنّ الحاضر والمستقبل ما هما إلاّ إعادة إنتاج ما قد سلف لهذا السّبب نعتقد بأنّ كلّ مبادرة أو محاولة تستهدف تعديل أو تبديل هذا النّظام الزمني الدائم تُسمي حظوظها في النّجاح ضئيلة.

2- الضّبط الزّمني الاجتماعي:

1.2. الإنتاج والاستهلاك:

على العكس من المجتمعات التّقليدية فإنّ المجتمعات الصّناعية المعاصرة الرّبحية تسعى إلى بلوغ هدفها الأساسي الرّامي إلى التّمكن لسيطرة الإنسان على الأشياء، ونتيجة لهذه النزعة غزى العمل الفضاء والزمن الاجتماعي، وأصبح مصدراً للسعادة الجماعية من خلال تكييف الآلة الإنتاجية والتبادل بمراعاة جموع المستهلكين، وتفادياً للزمن الميّت كتبذير الطاقة أو المال، إضاعة أو تراكم لا طائل منه للمنتجات لهذه الأسباب أحدث المجتمع الصناعي تماثلاً في مواصفات الإنتاج من خلال تكثيف أشكال ومعايير العمل حسب معايير تُراعي التّفعية والمردودية. لقد عمل العالم الصناعي على تقسيم الوظيفة الاقتصادية إلى

¹ إدوارد تويتشيل هول: اللّغة الصامته، تر: لميس فؤاد يحيي، الأهلية للنشر والتوزيع، عمّان (الأردن)، ط1، 2007، صص 180-207.

المرجع نفسه، صص 195-198.²

³ Voir : Edward T. HALL, "La danse de la vie: temps culturel, temps vécu", éd. du Seuil, Paris, 1984.

فروع ثنائية (منتج ومالك لقدرات الإنتاج) بتحويل المنتجات إلى سلع مجهولة وبتقليص فعل الاستهلاك إلى امتلاك سلعة محددة بسعرها لا بقيمتها. بهذا أصبح العمل الاجتماعي مُستلبا والعالم الاقتصادي محددا بتبادلات مجردة.¹

تكمن أصالة الدورة الاقتصادية التقليدية في دعمها لقيم التعاون والتكافل الاجتماعي وهو ما يؤدي إلى تقوية الروابط المجتمعية بين أفراد العائلة والأهم منه بين أفراد المجتمع المحلي، ويجعل من التبادل عملية أخذ وعطاء، حيث أنّ هذه الظاهرة هي نقطة تقاطع بين المجتمعات التقليدية في الغرب ونظيرتها في الشرق، إذ أنّ جزءا كبيرا من المنتجات والمحاصيل يتم توجيهها لطقوس ومهرجانات الألعاب بحيث تُستهلك بطريقة غير مُنتجة، في المنطق الاقتصادي ولكنها مُنتجة وفعالة في المنطق القيمي المجتمعي.

تُج مؤسّسة المقدّس على تكثيف العمل وجمع الثروة مثلما تدعو إليه الجهة المعنية بالاقتصاد فصيانه أماكن العبادة وتنظيم المراسيم والمواسم الدينية كلّها أشغال وترتيبات تتطلب مالا وفيرا وأيدي عاملة يتم تسخيرها في تشييد دور العبادة ومختلف ملاحقها ولعلّ هذا ما يُفسر حيازة المراكز الدينية على ثروة مالية هائلة. هناك من يعيب على هذا المجال الاقتصادي الإمعان في الإسراف والتبذير للثروات المدخرة عوض التكفل الحقيقي والدائم بالانشغالات الاقتصادية للإنسان، لقد أصبح على العكس من ذلك، مكانا للتظاهرات غير المنتجة، ومغنا للمجانية وللتدمير العبي للثروات. هكذا إذن، عندما تحتك القيم الاقتصادية بالضغط الاجتماعي للمقدّس لا يصبح العمل مجرد مصدر للملك ومطيّة للحيازة، ولكن كذلك فرصة للهبات والعطايا وهو ما يُضفي جمالية على الذات الكريمة. بهذا يكون الإنسان قد اجتاز إلى نوع من «التمييز» ليس بكمية الأملاك التي يذخرها ولكن بنوعية أولئك الذين ينفقون من أجل محبة الإنسان ومحبة الله.

2.2. العنف والمقدّس:

تصطدم أشكال التواجد الاجتماعي لا محالة بتيارات صراعية: عنف ماديّ تنافس على أملاك، لهذا فإنّ كلّ ثقافة تنطوي على وظيفة كبح الضغط كما عبّر عنه فرويد - Freud. لقد دفع هذا التصور بالإنسان حسب ميرسيا إلياد - Mircea Eliade إلى قبول القسوة والقتل كجزء لا يتجزأ من كيانه المعيشي والأکید أنّ التعذيب والقتل، ليست سلوكيات خاصة وحصريّة على "البدائيين" غير أنّ الفرق يكمن خاصة في أنّ هذه الظاهرة السلوكية العنيفة عند البدائيين لديها قيمة دينية² يُستمال العنف بالمقدّس من خلال تحريك الطقوس التي تمتص قدرا كبيرا من هذه الطاقة والتي بدورها قد يصبح العنف عرضة لحركة غير متوقعة وغير مراقبة؛ فبعض الثقافات أو بالأقل بعض الطقوس تقوم على تأنيس العنف، وتتمحور حول خطوة تمتاز بالانتظام والصفاء ورباطة الجأش.

أوضح ر. جيرار - R. Girard بأنّ الطّقس القرباني يمكن أن يفسر بوصفه عملية تنظيمية للعنف الأصليّ تنعكس على الأضحية، التي تصبح كبش الفداء حيثي سمح هذا السيناريو بإطلاق العنان للعنف وتحويله إلى نظام آخر يمنحه معنى. قد يتشكّل الاحتفال من طّقس عالي التركيز لعنف حقيقي ورمزي يُفعل عبر مسارات تتمظهر في هيئة: ألعاب مصارعة، إباحة جنسية، إسراف غذائي، تقوية الحياة الوجدانية بالرقصات... إلخ. تكون كلّ هذه التعابير تحت رقابة التقليد الأسطوري وفي حدود فضاء - زمن مُتعارف عليه مسبقا، هناك إذاً رزنامة تسمح بتخصيص فوارق زمنية للاحتفالات المقدّسة يتم خلالها كسر النظام المألوف والإفراط بإدماج العنف داخل المقدّس إذ يُحقق المجتمع التقليدي نوعا من الاتفاق بين دوام اجتماعي

1. Voir: Omar AKTOUF, "Le travail industriel contre l'homme?", ENAL / OPU, Alger, 1986.

2. Mircea ELIADE, "Aspects du mythe", op, cit. p. 177.

وقوة تدمير لا تقهر.¹ والملاحظ أنّ الأساطير لا تسمح فقط بوضع النظام الإنساني تحت سلطة بُعد سامي غير مرئي ولكن أيضا بإثارة عمليات تنظيم وضبط داخل المجال الاجتماعي لإقرار توازن بين التوترات المتناقضة والمهدّدة. يتمظهر التحالف بين الإفراط والقاعدة في العنف المقدّس في بعض أشكال العنف الجماعي مثل الحرب حيث أنّ هذه الصّراعات الحقيقية (القتال من أجل أقاليم وأمالك) تجد مكانا لها في التماذج الأسطورية والتي تستجيب إلى ترميز طقسي لا يُعتبر فيه التّجاوز علامة خدعة أو قوة ولكن تدنيس. في بعض الحالات وبفضل قدرته النفاذية للمقدّس يصبح العنف بحق «عنفا مؤسّسا» يجد فيه المقدّس بالتبادل مثيرا انفعاليا ودينامية طاقتية لتمام ترميزه الطقوسي.²

3- المقدّس في العصر الحديث:

عرّف العصر الحديث ظهورا لعدد من عمليات التّعاطي مع المقدّس حيث ارتكزت في مجملها على إبطال صفة القداسة وإعادة القداسة في آن واحد وذلك بإعادة تركيب، غير مسبوق لأجزاء من المقدّس السّابق. ولئن قابل البعض هذه التغيّرات بالأسف، ورأى فيها البعض الآخر علامات لصحة الثقافة، فإنّ تلك العمليات بمنظور آخر تُلقِي الضّوء على سلوكيات وطموحات الإنسان الحديث. يرى العديد من الباحثين في علم الاجتماع الديني بأنّ إبداع طقوس جديدة في علاقة إنسان اليوم بالمقدّس تفيد أيضا بطريقة فعالة أو وهمية في المقاومة أو الإفشال وقطع الطريق أمام دعوات إبطال صفة القداسة الدّينية أو حصرها في برنامج جيو-سياسي كما رسمه الأمريكي صامويل هينتينغتون - Samuel Huntington بحيث قسّم العالم إلى مجالات مسيكة ومُتنافرة محددة بالمقياس الديني فقط.³

نُدج هنا حدس روني جيرارد - René Girard الذي تُلخصه مقولته الشهيرة في خواتم مؤلّفه الموسوم بـ: «العنف والمقدّس»: إنّ الاتجاه نحو مَعِي المقدّس والغائه كليّة يُحضر لعودة المقدّس خلسة، ليس بمُتعال لكن بتجربة ماثلة، في شكل العنف ومعرفة العنف.⁴ ولعلّ هذا الإصرار على البقاء أو التجدّد نابع من كون أنّ المقدّس «مفهوم متعدد العناصر» قابل للنقاش تحتفظ كلّ دلالة من الدلالات التي يستردها بمعناها مما يُشكّل محورا يمكن تحليله. بالنسبة لـ ج. ايليل - J. Ellul «على العموم، يتحدث المقدّس عن محورين لكلّ منهما قطبين: الأول للاحترام والنظام أما الآخر للمخالفة: الأول محور يجمع: تقني-جنس؛ الثاني محور يجمع: الدولة - الأمة - الثورة.»⁵

من جهة أخرى، تعرف المجتمعات الحديثة انفجارا في السلوكيات العنيفة المُندسّطة من جديد لمقدّس المخالفة والانتهاك فالكثير من التّصرفات كالتهمك الجنسي، الفوضى الاجتماعية، انتفاضة أقلييات جراء عنصرية عرقية أو إقصاء ثقافي أو ديني.. إلخ، تحيل على قدسية وجدان وانجذاب، ومن جهة أخرى، يتجسد المقدّس في الإعجاب بقوة غالبية (دولة محافظة أو شمولية) كما يتجسد في الحاجة إلى طقوس جماعية مضبوطة وإلى تراتبية كرزمية (أحزاب؛ نقابات؛ نحل - Sectes، طرق دينية) تعمل على إعادة تحيين طقوس احتفالية أو حفلا لجمعيات القداس.

رينيه جيرار: كبح الفداء، ترجمة: منار رشدي أنور، دار الشرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة، 1998، صص 52-57.

2. Voir: Michel MAFFESOLI, "Essais sur la violence", Librairie des Méridiens, 1984.

3. Voir : Samuel HUNTINGTON, traduction française sous le titre: "Le choc des civilisations", éd. Odile Jacob, Paris, 1997.

4. René GIRARD, "la violence et le sacré", réédition, Albin Michel Hachette littérature, Paris, 1990, p 480.

5. Jacques ELLUL, "Les nouveaux possédés", Fayard, 1973, p 94.

غالبا ما تنشأ أشكال التقديس هذه ضمن حراك اعتباطي دون أن تعثر على طلائع رمزية لعبادات تقليدية كما يقول ر. كايوا : « يحدث كل شيء كما لو كان يكفي لتحويل جماد ما أو سبب ما أو كائن ما إلى مقدّس يُنظر إليه كغاية سامية، يُكرّس له الأوفياء حياتهم، بمعنى، يندرون له وقتهم وجهودهم ومصالحهم وطموحاتهم.»¹

إنّ إبطال صفة التقديس لا يمكن الكشف عنها فقط بالتحوّلات التي طرأت على الدّين، هنالك تمت عوامل أخرى مثل تطور المجتمع المدني والاحتكام إلى العقل التقني والعلمي، والذي جعل الرجوع شيئا فشيئا إلى المقدّس عملا غير مجدي ولا طائل منه، لقد وصفت الكثير من التحليلات النتائج السلبية الناجمة من تحلّل نظرة العالم التقليدي: بأنّها فراغ روحي من جهة وخلل وظيفي للثقافة من جهة أخرى. ارتبط إجلاء البعد الرمزي والمقدّس دوما بتقليص مزدوج لعمق العالم وبتعقيد المجتمع. يتراجع العالم التقليدي عندما يفقد الفضاء والزمان المُشكّلان له سلطتهما على المفاضلة النوعية فلقد أطلق م. فيير- M. Weber عبارة: فكّ السّحر عن العالم - du Mondedésenchantement واصفا إياها بالعملية المرافقة لغزو التقانة والعلم للطبيعة.² وحتى النظريات التي تتمحور حول فكرة "مركزية الأرض - géocentriques" تم إخضاعها في الآن ذاته لقوانين أدت إلى إجلاء السّري والمُذهل، لقد أصبح الفضاء الذي تسعى فيه تحت «سلطان الكمية»³ بفعل وضع مخطط وظيفي ومُنظم للمدن وقنوات للحركة مُركزة، ساهمت في توحيد وتنسيق الفضاء، حتى أضحت الأماكن المقدّسة تقع بعيدا عن مركز المدينة بعدما كانت تُمثل وضعية المركز بسبب التقليل من قيمتها المقدّسة والرمزية. كذلك فقدّ الزمان تجذره الإيقاعي الطبيعي وأصبح مُجردا مُنمطا ومُقتنا بمثابة أداة لقياس الظاهرات أو تنظيم الأنشطة الجماعية، لقد أصبح أكثر صلاحية في قياس المردودية والثّمّن والسّرعَة أو تحطيم الأرقام القياسية.

أدى تآنيس الطبيعة وتنميط الحياة الاجتماعية إلى تغليب كفة الحضارة الصناعية، والتي فرضت على الإنسان تناقضات أفضت إلى دخوله في صراعات "بين اجتماعية" في ظل زيادة أوقات العمل، والتي ساهمت في تصاعد شبيهة التملك المادي والتباهي بزينة الأملك الاقتصادية. أظهر مُنظرون تقليديون من ثوربين (ج. دوبور - G. Debord، فانايغام - R. Vaneighem) واثنوغرافيين (أ. فراقناك - A.-Varagnac) وسوسولوجيين (ج. فريدمان - G.-Friedman) كيف ساهمت طرائق حياة المجتمع الصناعي بمعايير اقتصادية في إفراغ أشغال الإنتاج من تقاليدها ومن بُعدها الإبداعي ومن حرمانها في الاتصال مع مادة مشحونة بأحلام اليقظة، حدث كلّ هذا بالقطيعة مع الاحتفالات أو طقوس العبور⁴ لقد أدى تفكير البيئة الإنسانية إلى الحدّ من معنى الترفيه والمجاني والرمزي، بدت هذه التحوّلات العميقة لإطار الحياة والعمل والأشكال الاجتماعية أو القيم الجماعية بالنسبة للكثيرين علامة على موت المقدّس.

1.3. إعادة صفة التقديس والحدّات:

1.1.3. الأديان السياسية:

أدى البحث الطوباوي عن مجتمع كامل بأوربا إلى التبشير بتقديس معاصر لمجال السياسي حيث أصبح بالإمكان الحديث عن الميلاد الحقيقي لما سمّاه ر. أرون - R. Aron منذ 1943م بالأديان الدنيوية - Séculières: « وهي المذاهب التي حلّت في قلوب معاصرينا محل إيمان قد توارى نحو الأسفل، مذاهب ترنو إلى أفق مستقبل بعيد في شكل نظام اجتماعي مأمول لإنقاذ

1. Roger CAILLOIS, "Le mythe et L'homme", Folioéssais, Gallimard, 1972, p29.

2. Voir: Max WEBER, "Le savant et Le politique", éd. Plon, 1959.

3. Voir : René GUENON, "Le Règne de la quantité et le signe des temps", coll, idées n° 224, 1970.

4. Camille TAROT, "Le symbolique et le sacré", Op. Cit, pp1619.

الإنسانية.¹ وهذا ظهرت مذاهب سياسية أو أجهزة حكومية سعت إلى التكفل الكلي بالوجود الإنساني لإيصاله إلى حالة جماعية من القداسة ليس فقط بتوجيه الحقل الزمني، ولكن كذلك الوجهة الروحية لكل واحد، فمنذ القرن الماضي تم استثمار هذه المهمة الدينية، الدولة- الأمة، على صعيد طبقة اجتماعية أو عرق «سامي».

تتمتع الجماعة الوطنية بشخصية تاريخية بمساعدة الأساطير الأصلية والأبطال المؤسسين حيث تُجَيِّ هذه الذكريات بانتظام بواسطة حفلات مشحونة ببعث الحياة الاجتماعية، وتُوحّد الأمة الاختلافات بين المجموعات والجماعات الجزئية وتُنَبِّي قوة انتمايية نَحْنِيّة. من هنا تفرض ذاتها على الأمم الأخرى بوصفها عالماً مقدّساً يُعارض عالماً مدنّساً بل نجساً؛ وتندرج هذه الغلبة تحت مفهوم الهيمنة كما تصوره أنطونيو غرامشي-Antonio Gramsci في القدرة التي تتمتع بها جماعة اجتماعية لممارسة التوجه الثقافي والأخلاقي للمجتمع ككل، وبناء نظام من التحالفات الاجتماعية حول مشروعها، وهو ما أطلق عليه مصطلح "الكتلة التاريخية".²

يرى م. رودينسون-M. Rodinson بأنّ الأيديولوجية الوطنية «تعمل على كشف صراعات مجموعة مع مجموعات أخرى في معركة أبدية بين الخير والشر». ³ «تستطيع كذلك باعتبارها قوة سامية أن تُلزم عناصرها بإخلاص وتضحية دون قيد أو شرط في نفس مصاف القوى الخفية في مجال الديني. لا يُرجى مستقبلاً لأمة بالأساس من مشروع عقلائي ولكن يتماهى مع مهمة مقدّسة متواجدة منذ أصولها ضمن إرث مُشكّل من مجموعة من القيم المستمرة بوفاء، حيث أصبح الدفاع عنها واجباً مقدّساً. لقد أدى انفجار الوطنيات إلى توسيع وانتشار حقيقي لديانات دنيوية على الصّعيد العالمي اتخذت من الأمة بوتقة لإحالة الرمزية الدينية.⁴ ظهرت أنظمة سياسية، منذ بداية القرن العشرين، ذات أيديولوجية متجذرة في الفلسفة الماركسية قامت بتطوير تقويم شبه ديني للطبقات الاجتماعية، عندما قامت تقديسات الدولة أو الأمة بتدشيط مُخَيِّلة من نوع واحدٍ وممتكّل، قامت تقديسات الطبقة الاجتماعية أو ذات العرق الخالص بالترويج لمُخَيِّلة ثنائية.

ظهرت في امتداد الأطروحات الدروينية حول الاصطفاء الطبيعي ومفهوم العرق في سوسيولوجيا القرن التاسع عشر، ميثولوجيات سياسية مؤسّسة على غلبة العرق الخالص؛ لقد عملت الأيديولوجية النازية بألمانيا على التّحريض والدعوة إلى قدوم إمبراطورية خفية في تاريخ الشعب الألماني يتزعمها خلف خالص من العرق الآري الأسطوري مختار سلفاً، أقام هذا المشروع ديناً سياسياً حقيقياً حيث عزّر الحكم الهتلري قبل الحرب العالمية الثانية الدعائم الكبرى لمقدّس إثنى مبني على تأليف ميثولوجيا الأصول العرقية وتكثيف الطقوس الجماعية المُوجّهة لتمجيد وتعظيم الطبيعة، الدّم والموت، إذ تزعم هذا الشّحن بالمدارس أئمة كبار على رأس الحزب الوطني الاشتراكي ومنظمات المسارّة وحركات الشّباب بطقوس العبور وعبادة "الفهرور-Führer" بفضل حفلات جماعية عظيمة؛ ينتهي دين هذا الشعب المُوحّد بالدّم والنبوءة الألفية عند تطهّر جماعي بالتّخلص من جميع الفئات الاثنية النّجسة الملوثة والمدنّسة لإقليم المقدّس (على غرار اليهود والغجر والمعاقين والشواذ جنسياً).⁵ أظهرت ح. أرونت- H.Arendt بمعينة ج. ب. سيرونو- J.P. Sironneau كيف أنّ المجتمع الشمولي ينتظم بوساطة دين دنيوي،

1. Jean-Jacques WUNENBURGER, "Le Sacré", sixième éd, puf Que saisje?, Paris, 2009, p 109.

2. أرمان وميشال ماتلار: تاريخ نظريات الاتصال، تر: نصر الدين لعياضي والصادق رايح، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2005، ص 121.

3. Jean-Jacques WUNENBURGER, "Le Sacré", Op. Cit, p 110.

4. Jean-Jacques WUNENBURGER, "Le Sacré", Op. Cit, p 110.

5. ينظر: محمّد فؤاد شكر: ألمانيا النازية: دراسة في التاريخ الأوربي المعاصر (1939-1945)، مؤسسة هندواي، المملكة المتحدة، 2017.

تقود فيه عبادة شخصية القائد هرم الحزب الواحد بالدعاية والطقوس الجماعية إلى بلوغ جماهير راضية بتضحيات قاسية مفروضة من لدن مشاريع لتحويل الإنسانية وإقرار عصر جديد.¹

2.1.3. المخيال المجتمعي:

تمكنت المجتمعات الغربية المتطورة بتوسيع حضارة مادية مبنية على المتعة التي فاضت بخيرات النمو الاقتصادي وتعميم الرفاهية، لقد عرفت مختلف تقنيات السعادة إفراطا خياليا في التقييم، بحيث مكنت الإنسان من توسيع بنك أحلامه وولوج مُثيرات انفعالية جديدة وكذا تعويض الحرمان ونسيان حدود وضعه.

لقد أصبح تمديد «مجتمع الاستهلاك» بأشياءه السريعة الزوال أمرا مرغوبا بفعل جاذبية وإغواء الإشهار وما يمتاز به من فنيات في توزيع الصور والأصوات؛ أدى التسويق الإعلامي للثقافة إلى إفراز عمليات هُيام بالفنانين والأشياء وكذلك طقوس فوران تشاركي يوماً ويُحاكي الأنشطة الحيوية اللبعية للاحتفاء بالمقدس الديني.² منذ سنوات 1970 م اشتهرت أشكال جديدة للتجارب الوجودية مصحوبة بأساطير وطقوس جديدة حيث عدت أشكالا للتقديس التناوبي يمكن أن نشير إلى:

© **النشوة المحصلة من العلاج النفسي:** لم يعد الإنسان الحالي يتحمل ضغوطات الحياة المعاصرة خاصة في البلدان المتطورة، فأصبح ينشد العلاج والراحة النفسية حيث أضحي هذا الهدف مُتاحا له بفضل جدول واسع من تقنيات التطبيق الحيوي، والتي شهدت تطورا في البيئة الحضارية الأمريكية. ومن أبرز ألوان هذا العلاج ما يُعرف بإيديولوجيا «الجنون المقدس» إذ تُسهّم مع غيرها من العلاقات في تعميم الرغبة في التدريب وتغيير الذات وهي أنشطة تنتهي للطقوس المقدسة. وانتشار مختصين ومختصات في التنمية البشرية؛

© **الاستحواذ الطائفي (النحلي):** يتزعمه قواد كاريزميين يدعون حيازتهم لمفاتيح الحكمة أو القدرة على الإنقاذ يعدون المرشحين الجدد بالحقيقة المُجددة. تُعرف هذه الطوائف (النحل) غالبا بتقنياتها النفسية واستعمالها لعقاقير مُزيفة كما أنّ أنشطتها المالية تحوم حولها الشكوك، ويبدو أنّ علمها التلفيقي أخذ في التكاثر على حساب خفوت نجم الكنائس التقليدية. ضمن ذات السياق، نسجل الانتشار المذهل لما يُسمى "الرقية الشرعية بالقرآن" بحيث أصبح ما يُسمى بالرقاة يستقبلون المرضى في عيادات خاصة وفق مواعيد ولديهم بطاقات زيارة، وبعضهم يملك قنوات فضائية فيما يلجأ الكثير منهم إلى الانترنت لفتح قناة على اليوتيوب، يعرض هؤلاء حصصا لمعالجة مس الجان والصرع وغيرها من الأمراض النفسية، لقد أصبحوا منافسين حقيقيين للأطباء النفسانيين في البلدان الغربية.

© **الانجذاب إلى اللعب:** الملاحظ في المعيش اليومي أنّ الكثير من الأنشطة الفردية أو الجماعية ذات التعابير المُرتبطة بنوبات تعذر المشي التشنجي - paroxystiques هي امتداد أو محاكاة الطقوس المقدسة أو بدائلها، في هذا الإطار تبحث فئات عريضة من سكان العالم عن التعلق إلى حدّ الهوس بوسائل تقنية للنقل (سيارة، دراجة نارية... إلخ) أو تكنولوجيات حديثة للاتصال وإعادة الإنتاج الإلكتروني (حفلات موسيقية، وسائط الإنترنت) أو أنواع الرياضة، تجد بيئة للتنفيس والפורان تماثل الاحتفالات الدينية البدائية.

¹. Voir: Hannah ARENDT, Le système totalitaire, Seuil, Paris, 1972. Pour Jean-Pierre Sironneau, voir: "Sécularisation et religions politiques", Mouton, Paris, 1982.

². Hannah ARENDT, "Condition de l'homme moderne", traduction française G. Fradier, éd. Pocket, 1992, pp 183-184.

© الحياة البديلة: على حُطى الرفض العام للهيئات الحكومية خلال سنوات 1968م تم انبعاث تجارب الطوائف الطوباوية، حاولت حركات بديلة من شيوخيين متحررين، حركات نسوية، دعاة السّلم وحماة البيئة، وضع قيد التنفيذ طريقة حياة مستقلة غالبا ما تكتمل هذه التجارب بموحيات أيديولوجية أو أسطورية شبه دينية تُحيل على الرهينة والاعتزال.

3.1.3. البيئة والطب البديل: بفعل الضعف الذي اعترى المسيحية المؤسساتية في الغرب أضحى التقديس متصلبا مما دفع بفئات من المجتمع إلى الطبيعة في هيئة حركات بيئية، وفي التوسيع الذي تعرفه بعض أنواع التطبيب البديلة إلى جانب الطب العلمي التعاقدى. أدت الأخطار والخسائر التي أحدثتها التنمية المسعورة للمجتمعات الصناعية إلى انتقاد لاذع لهذا الاستغلال الفاحش للثروات الطبيعية وتلويث المناخ والمناظر الطبيعية. إذ تم التعبير عن هذا الرفض بالدفاع عن التنمية المستدامة من خلال أشكال عديدة انطلقت من مقارنة توضع الإنسان في صلب الانشغالات وتطالب بالعودة إلى قياس صحيح في نمو المجتمع المادي والحفاظ على البيئة لضمان حياة أكثر إنسانية تستهدف الوصول إلى مقارنة " بيو-مركزية " ترمي إلى إلحاق الأنشطة التقنية للإنسانية باحترام طبيعة تُضبط بوصفها جملة حية ذات توازن ذاتي، جعلها الإنسان مريضة. موازاة مع ما قد سبق، تم توجيه الانتقادات للطب العلمي باتهامه بنسيان القدرة الشفائية المُودعة في الطبيعة وتفضيله لعلاجات عدائية وغالبا عاجزة.

لقد أدى ذلك إلى إعادة تقويم عدد من العلاجات وأنواع التطبيب البديلة بالرجوع إلى الطب التقليدي الما قبل علمي أي، الطب الطبيعي والذي يلجأ أصحابه في الغالب إلى تنشيط وتفعيل مُخيلة مُقدّسة بحيث تستمد بعض العلاجات طقوسها من حركات دينية تدعي التأثير في آن واحد على جسد وروح الأوفياء (أعمال سحرية، انخراط رعشي وعلاجات كرمية... إلخ) وعلاجات أخرى مُتصلة بجواهر ظنينة لديها قدرات خفية (أحجار، ماء طين... إلخ) مُعبئة بالمقدّس.

نؤشر من جديد إلى الانتشار المذهل بالبلدان العربية للطب البديل بالأعشاب ومشروباتها وزيتها ومربياتها وخلطاتها فتحوّلت إلى صيدليات تنشط كمنافس شرس لصيدليات العقاقير العصرية وأصبح لهذا الطب البديل إعلاما خاصا به. بل أصبحت العامة من الشعب، رجالا ونساء، لا تتورع عن تقديم وصفات علاجية ومُكمّلات غذائية عبر الأنترنت ليس أملا في شفاء الناس ولكن للحصول على المال من شركة جوجل، كما لا تكاد تخلو بعض الفضائيات والاذاعات من برامج مكرّسة لمثل هذا النوع من العلاج.

يبقى الغموض في الأخير يلف كلّ هذه المحاولات الرامية إلى إضفاء صفة التقديس فمن ناحية، هي تشهد على الحاجة إلى تجاوز عالم دُجّن فيه الإنسان، ورغبة في عدم تنميط الوجود وجعله فجأ يراوح نصوص التكيّف الأمرة والإلزامية ومن ناحية أخرى هي حوامل لمظاهر خداعة وأفكار وهمية في حدود بقائها على العموم غريبة عن كلّ ما له علاقة بعالم الغيب، فهي تدفع الإنسان لينتج مرآة لنفسه.

خاتمة:

إنّ المكانة والقانون الممنوحان للمقدّس لا ينفكان عن تطوّر الأديان في التاريخ، لاسيما في أيامنا. لقد تضمنت أيضا الفورة الحالية للأديان، والتي اعتقد بعض مفكري الغرب أنها في طريقها إلى الأفول بلا رجعة، أشكالا جديدة من المواجهة ومن التعايش في ما بينها. وضعت تلك التوترات، في كل منها بين الليبرالية والأصولية الصلبة، المُقدّس من جديد في الواجهة الأولى للأحداث الثقافية المُعاصرة. لقد أصبح أكثر من أي وقت مضى مثار انتقادات عنيفة غالبا ما تُخلطه مع المخاطر الدينية، خاصة عندما يتم تسيّسه، وإعادة استثماراته الكبرى التي تكون إما « نتاج علاقة جديدة بالعالم وبمدخل إلى الماضي - الحاضر، المستقبل.»¹

1. PierreBOURDIEU, "Raisons pratiques sur la théorie de l'action", éd.Seuil,Paris, 1994, p 148.

أو تضيق أحياناً في شكل نزعة توفيقية غير مسبوقه. ومع ذلك، هل يجب أن نحكم على المقدّس فقط بقياس هذا الاستلزام بالطواهر الدينية التي تستخدمه كأداة بكل المعاني إلى غاية رسم كاريكاتير أو العكس؟ إنّ المخرج من هذه «العودة إلى الديني»، التي لا تزال غير المتوقعة سيطبع بدون شك المقدّس بحمولة ثقيلة، ايجابية أو سلبية. يمكن أن يكون هذا التذبذب دعوة نهائية تجعلنا على يقظة أمام ما قد يكون اللغز الأعلى، الذي يكون المقدّس علامته. ربما يتطلب المقدّس أقل علوم، أيضاً أقل معارف، غير الصمت، أو تسليم مطلق. ليس هنا كأدنى شك أنّ المقدّس يُحدّث دوماً معنى في كلّ مرة يجد الانسان فيها نفسه أمام جمال منظر طبيعي، أو بهاء طلوع القمر. المؤكّد، أنّ جميع المجتمعات تفرز فضائلها المقدّسة، هناك رموز وكيانات مقدّسة تمتلك قوة إلزامية دون أن تكون دينية بالضرورة. ولما كان لأيّ نشاط اجتماعي ووظائف مقدّسة مُمكنة، فقد يكون هنا كقائمة ضخمة لما يُشكّل المقدّس في المخزون الثقافي لأيّ مجتمع، حيث «تُحرك السّلطة أشكال مسرحية الحياة الاجتماعية ولا يتم إيجاد الشيء إلا في الصورة التي تُظهِره مدعاة للافتخار من ناحية، ومن ناحية أخرى، يعمل التمثيل كماكنة تُحوّل الاحترام والتقدير المفضي للادعان، إلى أداة مُنتجة لتناقض استبطاني.»¹

قائمة المصادر والمراجع:

أ/ المصادر:

1. القرآن الكريم: برواية ورش عن نافع من طريق الشّاطبية، دار ابن الجوزي، القاهرة، 2016.

ب/ المراجع باللغة العربية:

2. أحمد الخشاب: الاجتماع الديني: مفاهيمه النظرية وتطبيقاته العلمية، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، 1970.

3. أرمان وميشال ماتلار: تاريخ نظريات الاتصال، تر: نصر الدين لعياضي والصادق رايح، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2005.

4. إدوارد تويتشيل هول: اللّغة الصامتة، تر: لميس فؤاد اليحيى، الأهلية للنشر والتوزيع، عمّان (الأردن)، ط1، 2007.

5. محمد الجودة وآخرون: الإنسان والمقدّس، دار محمد علي الحامي للنشر، تونس، 1994.

6. رينيه جيرار: كبش الفداء، ترجمة: منار رشدي أنور، دار الشرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة، 1998.

7. محمّد فؤاد شكر: ألمانيا النازية: دراسة في التاريخ الأوربي المعاصر (1939-1945)، المملكة المتحدة، مؤسسة هندواي، 2017.

ج/ المراجع باللغة الأجنبية:

8. Abderrahmane MOUSSAOUI, "Espace et sacré au Sahara", CNRS EDITIONS, 2002.

9. Camille TAROT, "Le symbolique et le sacré", La Découverte, Paris, 2008.

10. Edward T. HALL, "La danse de la vie: temps culturel, temps vécu", éd. du Seuil, Paris, 1984.

11. Hannah ARENDT, "Le système totalitaire", Seuil, Paris, 1972.

12. Hannah ARENDT, "Condition de l'homme moderne", trad., G. Fradier, éd. Pocket, 1992.

¹. Jérôme MONNET, "La ville et son double: La parabole de Mexico", éd. Nathan, 1993, p 41.

13. Jacques ELLUL, "Les nouveaux possédés", Fayard, 1973.
14. Jean-Jacques WUNENBURGER, "Le Sacré", sixième éd, Paris: puf Que saisje?, 2009.
15. Jean-Pierre SIRONNEAU, "Sécularisation et religions politiques", Mouton, Paris, 1982.
16. Jean PierreVERNANT, "Mythe et pensée chez les Grecs", éd. Poche, Ed. La Découverte, 2005.
17. Jérôme MONNET, "La ville et son double: La parabole de Mexico", éd. Nathan, 1993.
18. Joseph CAMPBELL, "The Masks of God", London, Penguin Books, 1979.
19. Marcel GAUCHET, "Le désenchantement du monde: Une histoire politique de la religion", Gallimard, Paris, 1985.
20. Marcel MAUSS, "Les fonctions sociaux du sacré", presentation de Victor Karadi, éd. De Minuit, 1968.
21. Max WEBER, "Le savant et Le politique", éd. Plon, 1959.
22. Mircea ELIADE, "Aspects du mythe", coll. Folio essais, Gallimard, 1957.
23. Mircea ELIADE, "Le sacré et le profane", réédition, coll. Folio Essais, Editions Gallimard, Paris, 1987.
24. Omar AKTOUF, "Le travail industriel contre l'homme?", ENAL / OPU, Alger, 1986.
25. Pierre BOURDIEU, "Raisons pratiques sur la théorie de l'action", éd, Seuil, Paris, 1994.
26. René GIRARD, "la violence et le sacré", réédition, Albin Michel Hachette littérature, Paris, 1990.
27. René GUENON, "Le Règne de la quantité et le signe des temps", coll, idées n° 224, 1970.
28. Roger CAILLOIS, "Le mythe et L'homme", Folio essais, Gallimard, 1972.
29. Samuel HUNTINGTON, traduction française sous le titre: "Le choc des civilisations", éd. Odile Jacob, Paris, 1997.
30. Walter Friedrich OTTO, "Essais sur le mythe", Transeuroperepress, Mauvezin, 1987.

العائلات التلمسانية ودورها في الحفاظ على وثائق الشيخ ابن يوسف السنوسي المخطوطة

Tlemcen families and their role in preserving the manuscript documents of sheikh ibn Yusuf Al Snoussi

د/إبراهيم الهلالي: أستاذ بحث- أ - /- مركز الدراسات الأندلسية، تلمسان

CNRPAH)(Center for Andalusian Studies Tlemcen Dr. Ibrahim elhelali: Professor of Research - A -;

ملخص:

من خلال هذه الورقة البحثية، والموسومة ب: العائلات التلمسانية ودورها في الحفاظ على وثائق الشيخ ابن يوسف السنوسي المخطوطة، انتقبت بعض العينات من أسماء العائلات التلمسانية التي قادها شرف الأصل إلى الحفاظ على التراث الإسلامي عامة، وتراث الشيخ ابن يوسف السنوسي بصفة خاصة، ولقد عرفت منذ أمد بعيد باهتمامها بالمخطوطات، وتخزين الكتب ونشر العلم، فلقد كانت تملك في خزائنها عددا هائلا من المؤلفات وخاصة منها الوثائق المخطوطة التي تقدر بالمتئات.

الكلمات المفتاحية: العائلات، الأسماء، الوثائق، الشيخ السنوسي، المخطوطات، التراث.

Abstract:

Through this simple intervention entitled: 'Tlemcen families and their role in preserving the manuscript documents of sheikh ibn yusuf al snoussi', I have chosen some samples from the names of Tlemcen families which the original honor led them to preserve the Islamic patrimony in general and the heritage of Sheikh Ibn Yusuf Al-Sunousi in particular way. They had interested for a long time in manuscripts, books storage and the dissemination of science. They had in her stores an enormous number of works, especially the hundreds of manuscript documents.

key words: sheikh al senoussi, families, manuscripts, heritage , names.

تمهيد:

لقد عاصر الإمام السنوسي دولة بني زيان بتلمسان، وشهد من أحوالها المتقلّبة الشيء الكثير، حيث تراوحت بين خضوعها للحفصيين بتونس، أو للمرنيين بالمغرب، وتعرّضها للهجمات الإسبانية، واستمرّ ذلك بعد وفاة الإمام السنوسي ولم يحسم هذا الاضطراب إلاّ معيى العثمانيين الذين وضعوا حدًا لهذه الدولة، ورسوموا حدود الجزائر الحالية تقريبًا، حيث اعتبروا أراضي بني زيان إيالة كاملة من إيالات المغرب، ونقلوا العاصمة من تلمسان إلى الجزائر.

وقد كان لتلمسان أن تنعم في فترة الحفصيين، وخاصة في عهد الأمير الحفصي أبي عمر عثمان باستقرار كبير ظهر أثره في الحركة العلمية التي عاشتها تلمسان في تلك الفترة والتي شهدها السنوسي صغيرًا وأسهم فيها كبيرًا.

ولكنّ الأمر الذي كان يعصر قلوب أهل تلمسان ويقضّ مضاجعهم هو المأساة التي كان يعيشها إخوانهم الأندلسيون في مواجهة الزحف النصراني القادم من الشمال.

وعندما ولد الإمام السنوسي كان قد بقي للمسلمين إمارة واحدة بالأندلس وهي إمارة بني الأحمر بغرناطة والحصون التي تتبعها¹.

1/نسبه ومولده: هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن عمر شعيب السنوسي، وبه اشتهر نسبة لقبيلة من البربر بالمغرب والحسني، نسبة للحسن بن علي بن أبي طالب من جهة أم أبيه، وكان مولده بعد الثلاثين وثمانمائة بسنتين (832هـ)².

يلقب بالسنوسي، نسبة إلى سنوسة قبيلة من البربر بالمغرب، وتعرف هذه المنطقة اليوم ببني سنوس (أولاد السنوسي) وتبعد عن تلمسان بأربعين كيلومتر³.

يعود أصل سكان منطقة بني سنوس إلى البربر، المنتمين إلى قبيلة زناته الكبرى التي استوطنت في عصر الممالك البربرية إقليم تلمسان كله تقريبًا فاختلقت الآراء وتضارب آراء المؤرخين، رغم اتفاقهم حول القبيلة الأم التي ينتمي إليها السنوسيون وحول القبيلة الفرعية التي انحدر منها هؤلاء، يرى البعض أن سكان بني سنوس ينحدرون من قبيلة بني حبيب معللين ذلك بوجود آثار إقامتهم في المنطقة ويحفظ ذكراهم من طرف الأساطير. لما كانت هذه القبيلة قد استوطنت بني سنوس في القرن الثامن الميلادي وكانت قبيلة بن يفرن التي يذكرها النسابة باسم بني يفري بني صلتين، قد استوطنت المنطقة قبلهم فيرى البعض الآخر أن سكان منطقة بني سنوس ينتمون إلى هذه الأخيرة. فقد كان بنو يفرن في عهد الفتح الإسلامي، منتشرين في افريقية، و المغرب الأوسط، ثم انتشروا في الناحية الغربية لبلاد المغرب⁴.

و يشكك ألفرد بل في هذا النسب قائلا " أن يكون هؤلاء البربر الذين يسكنون اليوم وادي تافنة و الخميس من قبيلة بني حبيب... فإنك ذلك مالا نستطيع الجزم". مرجحا ما ذكره ابن خلدون عن بني سنوس، إحدى بطون كومية، ولهم ولاء في بني

¹ حسين مؤنس، تاريخ المغرب و حضارته، دار العصر الحديث، ط1، بيروت، 1992 ص 123.

² أبي القاسم محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ج:1، مؤسسة الرسالة بيروت، ط2، 1985، ص 176.

³ عبد العزيز الصغير الدخان، الإمام العلامة محمد بن يوسف السنوسي وجهوده في خدمة الحديث النبوي الشريف، دار كراداه للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 2010/2011 ص 74.

⁴ محمد حمداوي: البنيات الأسرية ومتطلباتها الوظيفية في منطقة بني سنوس، في النصف الأول من القرن العشرين (قرى العزايل نموذجًا) مخطوط، أطروحة دكتوراه، جامعة وهران 2005، ص 130.

كفي (الجماعة التي ينتسب إليها عبد المؤمن بن علي المؤسس الحقيقي لدولة الموحدين). ولما فعل بنو كفي إلى المغرب (في عصر الموحدين، القرن الثاني عشر)¹.

لقد تم اعتناق السنوسيين للإسلام على يد السلطان إدريس الأول، الذي غزا المغرب الأقصى و المغرب الأوسط عام مئة و ثلاثة وسبعين للهجرة، وهو ما يشير إليه عبد الله التنسي بقوله: " فلما استوثق له الملك و تمت دعوته، زحف إلى البربر الذين كانوا بالمغرب كفارا، فأسلموا على يديه طوعا و كرها، فافتتح "تامسنا" و "تادلا" و "شالة"، ثم زحف في سنة ثلاث و سبعين إلى تلمسان، و بها أميرها محمد بن خزر المغراوي، فخرج إليه مباحيا مطيعا فأمنه و أبقاه أميرا بتلمسان و رجع إلى مدينة و ليلى". و قد جاء المنطقة ضمن الهجرات اللاحقة للإسلام عدة قبائل معظمها من فيقيق و استقرت في ضواحي بني سنوس².

وقد استدرك الإمام الزيدي على الشيرازي اسم سنوسة، فقال: (ومما يستدرك عليه: سنوسة، قبيلة من البرابرة في المغرب وإلهم نسب الولي الصالح أبو عبد الله محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي، لأنه نزل عندهم وقيل: بل هو منهم، وأمه شريفة حسنية، كذا حققه سيدي محمد بن إبراهيم الملاي في المواهب القدوسية، ووجد بخطه على شرح الأجرومية له: السنوسي العيسي الشريف القرشي القصار.

ويلقب أيضا بالحسني نسبة للحسن بن علي بن أبي طالب من جهة أم أبيه، وهو تلمساني أيضا نسبة إلى تلمسان، المدينة التاريخية العظيمة³.

1.1/ نشأته: نشأ الإمام السنوسي خيرا مباركا فاضلا صالحا، تربى وأخذ العلم بداية عن أبيه أبي يعقوب يوسف، عالم تلمسان وصالحها وزاهدها وكبير علمائها، ثم بعده على خيرة علماء عصره؛ أخذ عنهم علم المعقول والمنقول وأدب الولاية، فانتفع بعلمهم وبركة دعائهم، وتصدر لمجالس العلم وأدى ما تلقاه منها على أحسن وجه.

2.1/ مؤلفاته: صنف إمامنا في مختلف الفنون، فصنف في التصوف والحديث والطب وفي العقيدة وعلم الكلام منها:

"عقيدة أهل التوحيد والتسديد المخرجة من ظلمات الجهل وربقة التقليد، المرغمة أنف كل مبتدع عنيد"; وتسمى العقيدة الكبرى، المشهورة بكبرى السنوسي، وشرحها وسمّاها: "عمدة أهل التوفيق والتسديد في عقيدة أهل التوحيد".

"أم البراهين" وهي العقيدة الصغرى؛ وهي المشهورة بالسنوسية الصغرى.

"المقدمات في التوحيد": وهي مقدمات على العقيدة الصغرى، ثم شرحها، وهي ثمان مقدمات في أصولي الفقه والدين وشرح كلمتي الشهادة.

"شرح أسماء الله الحسنى": حيث يفسر الاسم، ثم يذكر حظ العبد منه. وهو هذا الكتاب المحقق، هذا إلى غيرها من المؤلفات الكثيرة.

وفاته: وتوفي رحمه الله يوم الأحد ثامن عشر جمادى الأخيرة عام خمسة وتسعين وثمانمائة (895هـ)⁴.

¹ ألفرد بل، بني سنوس ومساجدها في بداية القرن 20، تقديم وتعريب: محمد حمداوي دار النشر والتوزيع، وهران، 2001، ص 51.

² المرجع السابق، ص 133. ينظر أيضا: أبو عبد الله التنيسي، "تاريخ دولة الأدراسة (من كتاب الدر و العقيان)", تحقيق وتقديم عبد الحميد حاجيات، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص 35.

³ عبد العزيز الصغير الدخان، المرجع السابق، ص 74.

⁴ علال بوربيق، المواهب القدسية في المناقب السنوسية للإمام أبي عبد الله محمد بن عمر الملاي التلمساني، تحقيق وتعليق: علال بوربيق، بحث مقدم للمشاركة في المسابقة الدولية لإحياء التراث، الجزائر، 2008.

عاش الإمام محمد بن يوسف السنوسي في القرن الخامس عشر الميلادي¹، وهو عهد عرفت فيه الحواضر الإسلامية والمغرب الأوسط منها، وضعا غير مستقر، لاسيما في مجال العقيدة التي كان المسلمون لا يفهمونها على حقيقتها بفعل الجمود الفكري والاجتهادي الذي اصطبغت الحياة العقلية للأمة - حينئذ - فقد كان مفهوم شهادة التوحيد بعيدا عن أرواح العامة لأنهم لم يكونوا يفهمون أبعادها الروحية قبل التلفظية، ولم يقفوا على أسرارها النورانية المتصلة بحقيقة الكينونة الشمولية للعقيدة الإسلامية؛ فقد "كانوا يؤمنون بالله والرسول أشد الإيمان ولكن إيمانهم لم تكن تترتب عليه كل آثاره لأنه كان إيمانا عن وراثة، لا يمكن أن يصدر عنه إلا تدين منحرف وحياة لا تعرف غايتها، ولا يعرف صاحبها ما هي الطريق التي يجب عليه أن يسلكها ليجعل منها حياة لها معناها الحق أو حياة له بها قيمة الوجود"².

لقد تميز عصر السنوسي بنجاح الفكر الأشعري في مستويات عديدة، ونجح فقهاء نظار في ربط فن المنطق بالتخريج الفقهي، وقد مثل كتاب الحدود لابن عرفة الورف جومي نقطة تحول كبيرة عند علماء الفقه والأصول شبيهة بما وجده كتاب الإرشاد للجويني عند علماء الغرب الإسلامي من القبول والتفنن في شرحه ونظمه كما فعل الضير السرقسطي في منظومته التعليمية التنبيه والإرشاد³، كما قام المازري بتقعيد وشرح برهان الأصول للجويني من ذاكرته، وهي دلالة على عمق الجويني في الاعتماد على كبار الأشاعرة³.

إن المظهر الذي ظهرت به عقائد السنوسي في هذه المرحلة بوأها مكانة عالية في عملية تعليم العقيدة الأشعرية وتكريسها عقيدة رسمية للبلاد، وذلك نظراً لبساطة مضامينها ومراعاتها للشروط الموضوعية لهذه الفترة، اجتماعيا وفكريا، فكانت بحق مرآة تعكس مستوى التطور العقدي الذي عرفه الغرب الإسلامي في هذه المرحلة، والذي طبعه تقهقر وتراجع نوعي إذ ما قورن بالمرحلة السابقة لا سيما في مرحلة الترسيم والتغلغل، فأصبحت عاد السنوي إلزامية في المدارس والجوامع وقام المدرسون بتكريسها عن طريق تدريسها للغار والكبار، وكانت الصغرى إلزامية فتلقن للصغار لحفظها عن ظهر قلب وهذا دليل على هيمنة هذه العقيدة بالضبط على النظام التعليمي بالغرب الإسلامي، لم يسبق لعقيدة أن مارستها فيما قبل.

وأصبح السنوسي ظاهرة في كل الغرب الإسلامي وفي العالم السني الأشعري حتى غدت المرجعية الكلامية وينتصر لها الشراح إذا اختلفوا في أمر يخص علوم التوحيد.

ويمكن القول إجمالا أن كل ما كان يحوم حول العقيدة الأشعرية وتعليمها وتكريسها في هذه المرحلة كان يجد مرجعته في أقوال السنوسي وتوجهاته، ولهذا السبب أخذ هذا الرجل صفة الإمام من طرف جميع من جاء بعده وهذه صفة لا يأخذها في المذهب الأشعري إلا من وصل مرتبة عالية في الاطلاع والاجتهاد داخل المذهب⁴.

¹ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، 1830/1500، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط1، 1998، ص 95-98.

ينظر: عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى منتصف القرن العشرين منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1971، ص 189/190.

² الربيع ميمون، الإمام السنوسي عالم تلمسان، مجلة حوليات، جامعة الجزائر، ع 7، 1993، ص 28.

³ يوسف احنانة، تطور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي، المملكة المغربية منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1424هـ/2003م، ص 83.

⁴ المرجع السابق، ص 207.

2/ العائلات التلمسانية، والأسماء المحافظة على تراث الشيخ السنوسي:

لقد حازت مؤلفات السنوسي عند العلماء قبولا كبيرا وأنزلوها من أنفسهم منزلة عظيمة لذلك، فلا عجب أن تكثر المؤلفات والمصنفات في شأنها، فلا يحصى كم من شارح لها وناظم، ومختصر لها ومفصل، ومقيد حولها الفوائد وجامع حولها الشوارد والفرائد، وهذا من أبلغ الأدلة على قيمة هذا الإمام وقيمة مؤلفاته التي سارت بها الركبان وصارت حديثا في الزمان والمكان، وقد كان لعقيدته الصغرى المسماة بأمر البراهين من ذلك النصيب الأوفر والاهتمام الأكبر سواء في شرحها ابتداء، أو نظمها، أو التعليقات والحواشي على شرح السنوسي لها¹.

ومن اشتغل بشرح كتب السنوسي وشروحها من أهل الجزائر عامة وتلمسان خاصة، فلقد أولى علماؤها لها عناية كبيرة واهتموا بها اهتماما بالغا، فكانت لهم عليها شروح واختصاصات لمؤلفات هذا العالم الكبير، الذي شرفت به الجزائر قديما وحديثا².

1/ إتحاق المغري في تكميل شرح الصغرى، للإمام أحمد بن محمد المقرئ التلمساني المتوفى سنة 1041هـ.

2/ حاشية شرح أم البراهين،، للإمام أحمد بن محمد، المقرئ، التلمساني.

3/ شرح أم البراهين (العقيدة الصغرى)، للإمام محمد بن عمر بن إبراهيم التلمساني.

4/ شرح متن السنوسية، لابن الشريف التلمساني: عبد الله بن محمد بن أحمد، التلمساني المالكي، المتوفى سنة: 892هـ غريقا في البحر، منصرفه من مالقة إلى بلده تلمسان.

5/ نظم صغرى الصغرى، لتلميذ السنوسي أحمد بن محمد الورنيدي، المعروف بابن الحاج³.

إن الحديث عن العائلات السنوسية تثير الكثير من التساؤلات، من حيث ارتباطها بالشيخ ابن يوسف السنوسي، ومن حيث الانتساب إلى بني سنوس كأصل أول، هذا؛ وخشية الوقوع في شبكة التخمينات المجردة، انتقينا من المصادر الحية نماذج ممن يتوفر على شرط الاعتقاد أو الثقة في الرواية، وعلى هذا الأساس أقمنا الكلام على شجرة بني سنوس وما يتفرع عنها من عائلات، فصنفتنا هذه العائلات طبقات وخصصنا لبعض العينات منها ولغيرها حديثا⁴. كان لنا فيه؛ أن نسأل: ما أصل سنوس؟ ومن هم أهلها الأصليون؟ وبأية منطقة أوطنوا؟ وماذا بقي منهم من عائلات؟ وكيف استطاعت بعض الأسر التلمسانية وغيرها الحفاظ على ذكر السنوسي ووثائقه المخطوطة؟

يعود أصلهم البربري إلى منابت واسينية زناتية، وبني سنوس قبيلة تقطن بجبل يسمى أسنوس أو أسنوس⁵ وعلى هذا الأساس وقعت نسبة كل مقيم بهذه المنطقة إلى جبل أسنوس بحيث يكون اسم الواحد على الشكل التالي: سنوسي سنوساوي، ابن سنوس، ويكون الجمع على الصورة التالية: سنوسيون (سناوسة)، بنو سنوس (بني سنوس)، سنوساويون (سنوساوة).

¹ عبد العزيز الصغير الدخان، المرجع السابق، ص 210.

² المرجع نفسه، ص 236.

³ المرجع السابق، ص 236/246.

⁴ جمال الدين بوقلي حسن، ابن يوسف السنوسي في الذاكرة الشعبية وفي الواقع (مخطوط) معهد الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان، 1997/1417 ص 68.

⁵ عبد الملك بن عبد القادر بن علي، الفوائد الجبلية في تاريخ العائلة السنوسية الحاكمة بليبيا، ج 1، دار الجزائر، دمشق، (دت)، ص 07.

أما العائلات السنوسية والعائلات المحافظة على تراث الشيخ السنوسي، فيمكن في هذا الإطار، تصنيف هذه العائلات إلى شجرتين: الشجرة العائلية السنوسية وشجرة بعض العائلات أو الأسماء المحافظة على ذكر الشيخ وتراثه، وتمثل كليهما طبقتان:

أ/ الشجرة العائلية الخاصة بالسنوسة

ب/ طبقة العائلات المعاصرة للشيخ

من الأسماء التي يذكرها أصحاب السير، وتكاد تغيب عن الذاكرة الشعبية أربعة أعلام: الأول: الشيخ بوبدر بن السنوسي، الذي كان عمدة في إمداد الرواة بالأخبار ومصدرا ينهل منه التلامذة في سرد الأحاديث والمسموعات جاء في البستان: يقول سيدي عبد الرحمان السنوسي، أنه حدثني الشيخ الصالح سيدي بوبدر بن السنوسي¹.

الثاني: عبد الرحمان السنوسي المعروف بالرقعي صاحب كتاب "فتح الجليل في أدوية العليل وكان هذا الرجل المرجع الذي يعول عليه علي التالوتي أخو الشيخ ابن يوسف السنوسي لأمه، في رؤيته الأولياء وفتوحاته، وكان الشيخ السنوسي يروي بدوره عن أخيه هذا، فضلاً عما كان يخبره به والده أبو يعقوب يوسف.

الثالث: محمد بن يحي السنوسي المعروف بعلمه الواسع، وخاصة في علم التوحيد، لقد كان عارفاً به ومدرساً له.

الرابع: هو محمد بن محمد بن يحي السنوسي، اشتهر بالوجد يحي وهو ابن محمد بن يحي السابق الذكر. أخذ عن والده التوحيد، وله قدم في الولاية.

هذه بعض العائلات من الرواة والمحافظة على التاريخ، ذكرناها ليس لوجودها في كتب السير والتراجم، بقدر ما هو لبقاء بعض آثارها في ذاكرة الناس اليوم².

أما طبقة العائلات أو الأسماء الحالية، نصنفها ونرتبها حسب قربها من كلمة "سنوس" في الاشتقاق والنسبة.

الفئة الأولى:

1/ سنوس وهي العائلات التي حافظت على أصل الكلمة كما هي والتي تنتشر في مناطق القطر الجزائري، وخاصة في تلمسان.

2/ سنوسي وهي العائلات التي تنسب نفسها إلى منطقة سنوس، وانتشارها عبر الوطن أوسع من العائلات الأولى، ومن المدن التي تقيم فيها، نذكر تلمسان، ندرومة، سبدو.

3/ سنوسي أول: ونظراً إلى اتساع النسيج العائلي لدى السنوسة وتعقده، فصلت الإدارة الفرنسية بين "فرق داخل العائلة الواحدة فأعطت رقم (1) لهذا، ورقم (2) لذلك، وأصبح تسلسل الذرية ينضوي تحت هذين الرقمين.

4/ سنوسي ثاني: وهي الفرقة العائلية التي تشترك مع سنوسي أول في الجد الواحد، وكلاهما معروفة في مدينة تلمسان³.

¹ جمال الدين بوقلي حسن، المرجع السابق، ص 68.

² المرجع نفسه، ص 69/68.

³ جمال الدين بوقلي حسن، المرجع السابق، ص 70.

الفئة الثانية: إذا كانت بعض الأسماء قد تعربت من حيث انتسابها إلى المكان أو للعائلة في الفئة الأولى، فإن أسماء الفئة الثانية تنفرد بإلحاق المسمى بالاسم سواء كان اسم مكان أو اسم شخص، عن طريق البنوة البيولوجية أو الاجتماعية فيكون المسمى ابنا للاسم الأصلي عن طريق هذه الكلمة: "بن" أو هذا الحرف "ب" بحذف النون تخفيفاً.

1/ بن سنوس، ومعناه بالحرف العربي ولد سنوس، وفي مدينة تلمسان نجد عددا من عائلات يحمل هذا الاسم.

2/ بن سنوسي، ومعنى النسبة عند العرب هو حفيد سنوس، أو ولد من ينتهي إلى سنوس وهي عائلات لها انتشار واسع في تلمسان و الرمثي.

3/ بسنوسي: في شأن هذه العائلة نرى أنه لا أصل لقول بعضهم أن الاسم مركب من باي وسنوسي، رغم احترام العثمانيين لضريح السنوسي في فتراتهم الأخيرة، ولا أساس لاعتبار الاسم مركبا من بني و سنوسي، فكل ما هنالك هو أن الاسم خضع لحركات اللسان وأحكام السمع، إضافة إلى ما تفرضه قواعد اللغة العربية¹.

إن الذاكرة على ثلاثة مستويات: المستوى الفردي، المستوى الجماعي والمستوى الشعبي. يرى كثير من علماء الاجتماع المعاصرين أن ذاكرة الفرد ليست ظاهرة فيزيولوجية ولا ظاهرة نفسية، وذلك لأن الذكرى لا توجد في شكل آثار مادية على مستوى الخلايا العصبية كما ذهب إلى ذلك "ريبو"، ولا في شكل آثار نفسية على مستوى اللاشعور كما تصور "برغسون" إنها في الواقع، ما تحافظ عليه الأطر الاجتماعية، على حدّ تعبير "هالفاكس"².

أي ما تخزنه أشياء المحيط الثقافي من أبنية وطرقات، ولغة ومرويات، المنطوق منها والمكتوب، وأنسجة عائلية وعادات... ولهذا، فمن يعيش بعيدا عن محيطه الثقافي وأطره الاجتماعية يحس بالغبرة، لأن ليس فيه ما يذكره بماضيه الحميم، حتى إذا عاد إليه بعد فترة طويلة، شعر برجوع ذكرياته تدريجياً³.

أما طبقة العائلات التلمسانية المحافظة على تراث السنوسي، فتعد عائلة بن منصور من العائلات التلمسانية التي قادها شرف الأصل إلى الحفاظ على التراث الإسلامي جملة وذكر السنوسي التلمساني خاصة، فهي عائلة محبة للتراث، حفظت نسبا عن طريق ما خلفه الأجداد من تأليف، ولقد أنجبت عددا من العلماء الصالحين، أمثال: سيدي عبد الله وسيدي علي، دفيني عين الحوت، وسيدي محمد بن سيدي بن علي بن سيدي العربي.

ولقد كان سيدي عبد الله معجبا بالعقيدة الصغرى لعصره السنوسي، وكان يعتمد عليها في تجديد الإيمان ويدعوا إليها فتوارث الأبناء عن الأجداد العديد من الكتب المطبوعة والمخطوطة، إلا أنه خيئ بعضها في مطامير عند احتلال فرنسا للجزائر، وحول المهاجرون فيما يبدو بعضها الآخر، وكتبها لأسر أخرى إلى مدينة فاس بالمغرب الأقصى، ولم يبق منها إلا النزر القليل⁴.

إذن، إن الذين ينتسبون إلى منطقة بني سنوس والذين يتعلقون باسمها عن طريق الانحدار أو الاشتقاق اللغوي، أو عن طريق الارتباط، والعائلات المحافظة على ذكر السنوسي بغرض التيمن به، والانتساب إليه أو خدمة للتراث باسم التراث أو

¹ المرجع السابق، ص 71/70.

² جمال الدين بوقلي حسن، قضايا فلسفية، ط5، م. و. ك، الجزائر، 1991، ص 303.

³ جمال الدين بوقلي حسن، قضايا فلسفية، ص 303.

جمال الدين بوقلي حسن، ابن يوسف السنوسي في الذاكرة الشعبية ص 77/76.

باسم الشرف، معالم من المخزونات الاجتماعية مكنتنا من تحديد مكانة الشيخ السنوسي لدى العائلات التلمسانية ومدى تحديه للزمان من خلالها¹.

إن تحقيق المخطوط لأبد له من منهج صحيح، وأكاديمي يُعتمَدُ من ذوي الاختصاص رأيت من المناسب أن أجمع بعض المعلومات المهمة الخاصة بالعائلات التلمسانية المحافظة على تراث السنوسي عامة، والمخطوط خاصة، أما خدمة هذه المخطوطات فميدانه واسع، ولا بد أن تكون لدينا خطة استراتيجية لإنقاذ هذه المخطوطات، من أخطار وإهمال تعرضت لها في القرون الأخيرة.

أما الكتب التي تركها الشيخ السنوسي ليست كلها مخطوطة، وليست كلها مطبوعة وليست كل المطبوعة منها محققة، وما استطاع الباحثون اليوم أن يحققوه منها جملة، فيه جزء مخطوط أصلاً، وفيه ما أعيد تحقيقه من جديد بهدف النشر وتعميم الفائدة أو التدقيق وفق الطريقة العلمية الحديثة، ومن العناوين التي تمّ تحقيقها أوهي في طريق التحقيق، جاءت كالتالي: أولاً: نصرة الفقير في الرد على أبي الحسن الصغير، وقد تولى تحقيقه الأستاذ جمال الدين بوقلي حسن.

ثانياً: شرح أم البراهين، وقد طبعه وحققه الشيخ مصطفى محمد الغماري، ونشره سنة 1989

ثالثاً: شرح المختصر في المنطق، للأستاذ سعيد علوان، وهو عمل أنجز من خلال رسالة ماجستير للسنة الجامعية 1990/1989.

رابعاً: العقائد الثلاثية: الكبرى والوسطى والصغرى، متنا وشرحا، وهذه الكتب الثلاثة تعد جزءاً من المشروع الذي رسمه لأعضاء وحدة البحث، الأستاذ الربيع ميمون سنة: 1994.

خامساً: عمدة ذوي الألباب في علم الإسطرلاب، ويشكل تحقيق هذا المخطوط مشروع رسالة ماجستير أو مجرد بحث، سعى إلى تحقيقه الأستاذ محمد باغلي².

وقد كان حضور مؤلفات الإمام السنوسي في التوحيد حضوراً لافتاً، إذ سيطرت مؤلفاته على دارجي علم الكلام – حينئذ -، ولم يكن ذلك مقصوداً على الجزائر وحدها بل تجاوزها إلى معظم الأقطار العربية والإسلامية وأهم مؤلفات السنوسي المشار إليها هي ما يعرف بالعقائد السنوسية، وهي العقيدة الصغرى والعقيدة الوسطى والعقيدة الكبرى، ولكن أهم الجميع هي الأولى لوضوحها واختصارها، وهي المعروفة أحياناً باسم (أم البراهين). وليس معنى هذا أن العقيدتين الأخريين لم يهتم بها الدارسون، ولكن معناه أن جهودهم قد تركزت في التدريس والشرح حول العقيدة الصغرى، ويلها العقيدة الوسطى فالكبرى³.

خاتمة:

ختاماً لهذه الورقة ما يسعني إلا القول، وكما خلده جورج مارسي في كتابه "تلمسان": "إن سيدي السنوسي هو أحد أمجاد الفكر الإسلامي، والممثل الأخير لعهد الذهب"، فالإمام محمد بن يوسف السنوسي يعد من أقطاب الأشعرية في المغرب الأوسط، والشمال الإفريقي عموماً، ولقد كان لمؤلفاته في العقيدة، والمعروفة بالعقائد (الصغرى، الوسطى الكبرى) صدى

¹ المرجع نفسه، ص 83.

² جمال الدين بوقلي حسن، قضايا فلسفية، ص 324/325.

³ أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 93.

واسعا في المنظومة العقديّة بالمنطقة، مما حمل العديد من العلماء على شرحها والتعليق عليها، أو نظمها شعرا لتسهيل حفظها على طلبة العلم.

والعائلات المحافظة على ذكر السنوسي بغرض التيمّن به، والانتساب إليه أو خدمة للتراث باسم التراث، أو باسم الشرف، معالم من المخزونات الاجتماعية مكنتنا من تحديد مكانة الشيخ السنوسي لدى العائلات التلمسانية.

وبالتالي لا بد أن تكون لدى هذه الأخيرة خطة استراتيجية لإنقاذ هذه المخطوطات، من الأخطار والإهمال التي تعرضت لها، حفاظا على الذاكرة الجمعية.

قائمة المراجع:

1. احنانة يوسف، تطور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي، المملكة المغربية منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1424هـ/2003م.
2. الحفناوي محمد أبي القاسم، تعريف الخلف برجال السلف، ج:1، مؤسسة الرسالة بيروت، ط2، 1985.
3. الدخان عبد العزيز الصغير، الإمام العلامة محمد بن يوسف السنوسي وجهوده في خدمة الحديث النبوي الشريف، دار كراداد للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 2010/2011.
4. التنيسي أبو عبد الله، "تاريخ دولة الأدارسة (من كتاب الدر و العقيان)"، تحقيق وتقديم عبد الحميد حاجيات، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984.
5. بل ألفرد، بني سنوس ومساجدها في بداية القرن 20، تقديم وتعريب: محمد حمداوي دار النشر والتوزيع، وهران، 2001.
6. بوقلي جمال الدين حسن، ابن يوسف السنوسي في الذاكرة الشعبية وفي الواقع (مخطوط) معهد الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان، 1417/1997.
7. بن علي بن عبد القادر عبد المالك، الفوائد الجبلية في تاريخ العائلة السنوسية الحاكمة بليبيا، ج1، دار الجزائر، دمشق، (دت).
8. بوربيق علال، المواهب القدسية في المناقب السنوسية للإمام أبي عبد الله محمد بن عمر الماللي التلمساني، تحقيق وتعليق: علال بوربيق، بحث مقدم للمشاركة في المسابقة الدولية لإحياء التراث، الجزائر، 2008.
9. حمداوي محمد، البنيات الأسرية ومتطلباتها الوظيفية في منطقة بني سنوس، في النصف الأول من القرن العشرين (قرى العزايل نموذجا) مخطوط، أطروحة دكتوراه، جامعة وهران، 2005.
10. سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، 1500/1830، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط1، 1998.
11. مؤنس حسين، تاريخ المغرب و حضارته، دار العصر الحديث، ط1، بيروت، 1992 ص 123.
12. الربيع ميمون، الإمام السنوسي عالم تلمسان، مجلة حوليات، جامعة الجزائر، ع7 1993.
13. نويهض عادل، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى منتصف القرن العشرين منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1971.

الجزائر في عيون الرحالة المغاربة خلال الفترة الحديثة "الرحالة أبو القاسم الزياني نموذجاً"

Algeria in the eyes of Moroccan travelers during the modern period the traveler "Abou El-Kacem El-Zayani as a model"

د. نصيرة كلة/جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر

Algeria Dr. Nacera kella / Abou bekr belkaid university, Tlemcen ,

ملخص:

من بين الكتابات المغربية التي نُسجت على منوال الرحلات ومن أشهرهم خلال الفترة الحديثة الرحلة الموسومة بـ "الترجمة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا وما تخللها من الأمصار، والمدن والقرى والقفار، والبحر والجبال والأنهار والعيون والمعادن والآبار وغير ذلك من عجائب خواص الحيوانات والأحجار وما يؤيد ذلك من التفسير والآثار ونازل الفقه وشواهد الأشعار"، للعالم والمؤرخ المغربي أبي القاسم الزياني.

وتضم "الترجمة الكبرى..." ثلاثة رحلات: الأولى كانت للحج عام 1169هـ/1755م، والثانية سفارية عام 1200هـ/1786م، والثالثة سياحية إلى إسطنبول عام 1206هـ/1791م التي يتحدث فيها الزياني عن الجزائر.

جمع فيها الرحالة أوصاف ما شاهده في رحلاته الثلاث من الأمصار والبحار، وأخبار من لقيه من السادات وذوي العلم والجاه، بحيث يجوز لنا أن نعتبرها فهرسة لأنها رحلة ذات طابع جغرافي، فهي شبه موسوعة لأنها تضم معلومات جد متنوعة وكفي للدلالة على ذلك عنوانها، وما يهمننا الرحلة الثالثة التي تحدث فيها عن الجزائر، حيث يُعرفنا فيها بالتل ومدنه وبمكانة تلمسان والعاصمة وقسنطينة وبمنزلة محمد الكبير باي وهران، وحسن باي قسنطينة وبالحوالة الاجتماعية للجزائر في أواخر القرن الثامن عشر (العهد العثماني).

الكلمات المفتاحية: الرحلة – الرحالة – أبو القاسم الزياني - الترجمة الكبرى – الجزائر.

Abstract:

the most important one among these Moroccan writings which were modelled on travels in this recent period was named "the great translation in the world news by land and sea" by the Moroccan scholar and historian Abi el kacem el ziyani.

"The great translation..." involves three travels: the first was for the pilgrimage 1755, the second the journey 1786, and the third sightseeing in Istanbul 1791 where he has spoken about Algeria.

He had gathered all what he had seen in these three travels, and what he had met as personality and scholars, we may consider it as a catalog for its geographical nature. It is a semi-encyclopedia because it involves a lot of diverse information its title what concerns us in the third journey in which he spoke about Algeria, where he knew us position of Tlemcen, the capital and Constantine and the place of Mohamed the great, the bay of Oran, Hassan bay Constantine and the social situation of Algeria in the last 18th century (ottoman era).

Key words: travel – traveler – Abou El kacim El ziyani – great translation – Algeria.

مقدمة:

ظلت الكتابات التاريخية حول الجزائر وأقاليمها ومدنها خلال الفترة الحديثة، حكرا على كتابات وتقارير الضباط والقناصل والأسرى الفرنسيين، الذين رافقوا الحملة الفرنسية في الجزائر، ولم يتسنى للكتابات الجزائرية البروز في ظل هذا الاكتساح الكبير للكتابات الفرنسية بصفة خاصة والأوروبية بصفة عامة، لكن هذه الكتابات ظلت ناقصة، حيث اقتصر على بعض الجوانب فقط كالقرصنة، الأسرى...، وهي في الواقع غير كافية للاطلاع على أحوال الجزائر وكتابة تاريخها في الفترة الحديثة، لهذا يجب علينا العودة إلى المصادر العربية والتنقيب فيها، خاصة كتب الرحلات والجغرافية، لأنها تعتبر من المصادر المهمة.

تُعد الرحلة كتابة ملتبسة، وهي سفر واقعي أو متخيل يسمح بالسفر عبر المكان، والأجناس والأنساق والكلمات حوارا تحليليا وتفسيرا، ولاشك أن هذه الوظيفة التي يمتلكها الرحالة تقضي وجوده وانتشاره عبر مراحل الرحلة ذهابا وإيابا، مما يسمح باستيعاب مختلف المكونات الأخرى وإدماجها في سياق البنية المهيمنة، بنية السفر والارتحال، وعلى هذا المنوال نُسجل واحدة من الرحلات المهمة الموسومة بـ "الترجمانة الكبرى في أخبار المعموربرا وبحرا..." للرحالة المغربي "أبي القاسم الزياني"، دون لنا مشاهداته عن الجزائر وأقاليمها ومدنها خلال العهد العثماني، لهذا نتساءل ماهي الصورة التي رسمها المؤرخ المغربي أبي القاسم الزياني عن الجزائر خلال رحلته، و إلى أي حد تمكن من تشخيص الواقع الجزائري في الفترة الحديثة (خلال العهد العثماني).

وتكمن أهمية هذه الرحلة أنها تعتبر مختصر و فهرسة جغرافية و موسوعة صغيرة، ضمت أخبارا عديدة في مختلف الفنون والمواضيع، حيث خصص الرحالة أبو القاسم الزياني عدّة صفحات لرحلته إلى الجزائر في كتابه "الترجمانة الكبرى في أخبار المعموربرا وبحرا..."، وقد حقق الكاتب المغربي عبد الكريم الفيلاي الطبعة الأولى سنة 1967م و الطبعة الثانية سنة 1991م.

و في هذا الإطار اعتمدنا على عدّة مصادر و مراجع متعلقة بالموضوع، و لقد قمنا أولا بتسليط الضوء على جوانب من حياة المؤرخ المغربي أبي القاسم الزياني، وكذا أهم إنتاجاته الفكرية و ذلك بهدف الإلمام بكل جوانب هذا الرحالة العظيم، ثم تطرقنا بعدها إلى دوافع و مضمون هذه الرحلة و أهميتها بالنسبة لتاريخ الجزائر في الفترة الحديثة.

1. مصطلح الرحلة وأنواعها:

- لغة:

جاء في لسان العرب أن الرحلة مأخوذة من مادة: "... رحل، بمعنى الإشخاص والإزعاج، والرحلة من الإبل: البعير القوي على الأسفار والأحمال...، وارتحل البعير رحلة، سار فمضى، ثم جرى ذلك في المنطق، حتى قيل: ارتحل القوم عن المكان ارتحالا..."¹.

¹ - محمد مكرم بن علي بن منظور، لسان العرب، المجلد 3، الجزء 24، دار الصادر، بيروت، 1990م، ص 1609.

- اصطلاحاً :

- لقد عرّف الرحلة الإمام الغزالي فقال: "...هي نوع حركة ومخالطة، أو نوع مخالطة مع زيادة تعب ومشقة"¹، حيث جعل الرحلة عبارة عن احتكاك بالآخر بعد الجهد والتعب.²

- كما عرفها نواب عواطف محمد عبد الرزاق بقوله: "هي فن من الفنون، برع فيه الرحالة المسلمون، وخاصة المغاربة والأندلسيين، لكثرة دوافعهم في القيام بمثل هذه الرحلات، فأصبحت فناً قائماً بذاته من حيث تدوينه بأسلوب مُميز، يشمل تاريخ الخروج والوصول"³.

- الرحلة نوع من الحركة فيها مخالطة للناس، وهي قديمة قدم الإنسان، إذ عرفت منذ العصور القديمة، ومع الاختلاف في دوافع الرحيل، واختلاف وسائل السفر، وتوجهات الرحالة الفردية ونزعاتهم الشخصية، فإنها تبقى المرأة للسيدات الحضارية للعصر الذي عاشوا فيه، والبلاد التي وصلوا إليها، لذلك هي مصدر مهم لوصف الثقافات الإنسانية.⁴

وقد ورد مصطلح الرحلة في القرآن الكريم حيث يقول المولى عز وجل بعد بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿لِيَأْلَافَ قُرَيْشٍ (1) لِيَأْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (2) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (3) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ (4) وَأَمَمَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (5)﴾ صدق الله العظيم - سورة قريش -

- دوافع وأنواع الرحلة:

تكون الرحلة بدوافع تحفز الشخص المتنقل بالقيام برحلته، والانتقال من مكانه إلى مكان آخر لغرض معين، فتكون إما بدافع علمي أو ديني أو تجاري، أو دافع جهادي وسياسي بغية تحقيق الهدف وهي أنواع⁵ منها:

✓ **الرحلة العلمية:** هي ذلك السفر الذي يقوم به الإنسان من أجل طلب العلم والاستزادة منه، وكثيرة هي الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة الحاثية على طلب العلم، ويرى العلامة ابن خلدون أن الرحلة في طلب العلم ولقاء المشيخة تزيد في اكتمال التعليم ورسوخها في ذهن طالب العلم، ولهذا السبب نجد أن العلماء المسلمين اهتموا بها كثيراً⁶، فقد حث الرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم على الارتحال في طلب العلم، حيث نجد هذا في الحديث النبوي الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله عليه وسلم قال: {من سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أجنحتَها لطالب العلم رضىً بما يصنع،...}⁷. رواه أبو داود والترمذي -

¹- أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، أعداد ودراسة: اصلاح عبد السلام الرفاعي، ط1، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، 1988م، ص ص 220-227.

²- عبد الجليل شقرون، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب، لابن عمار أبي العباس احمد دراسة وتحقيق، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه في تحقيق المخطوطات، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، السنة الجامعية 2016-2017، ص 12.

³- عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية دراسة تحليلية مقارنة، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1996، ص 76.

⁴- فاروق عمر، الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية، ط2، مكتبة المثق، بغداد، 1977، ص 49.

⁵- للوقوف أكثر على أنواع الرحلات وأقسامها ينظر: عبد الله كروم، الرحلات بإقليم توات: دراسة أدبية للرحلات المخطوطة بخزانة توات، دحلب للنشر، الجزائر، 2007، ص ص 34-41.

⁶- عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، تحقيق: عبد السلام الشداد، الجزء 3، ط1، خزانة ابن خلدون، الدار البيضاء، المغرب، 2005، ص 226.

⁷- محي الدين أبي زكريا بن شرف النووي، صحيح مسلم بشرح النووي، تحقيق: محمد سيد عبد رب الرسول، الجزء 21، مكتبة أبو بكر الصديق للنشر والتوزيع، القاهرة، 2006م، ص ص 17-18.

ومنه فان مفهوم الرحلة العلمية هو ارتحال الطالب لغرض التزود من العلوم، وبلقاء المشيخة والعلماء والجلوس إلى الشيوخ للاستماع لدروسهم في الحلقات، ولكشف أمور علمية حتى يتم حصول كمال التعلم والمعرفة،¹ وهي إحدى السبل لكسب العلم، فكان العلماء والطلبة يتنقلون إلى أماكن معينة لتحصيل العلم.

✓ **الرحلة الدينية (الحجّية):** أو الرحلة الحجازية وهي رحلة لأداء فريضة الحج، ومنها يغتنم العالم أو طالب العلم فرصة بالتقائه بالعلماء ويتحصل على العلوم أثناء مسيره، حيث يقول "أبو القاسم سعد الله" أن الرحلة الحجازية أو الحجية هي تلك الرحلة التي يتجه من خلالها صاحبها إلى البقاع المقدسة بنية أداء فريضة الحج، وهي رحلة تشد فيها الرحال إلى مكة المكرمة من أجل إتمام الركن الخامس من أركان الإسلام، كما أنها ليست كغيرها من الرحلات باعتبارها ذات علاقة بعقيدة الإنسان ودينه، وهي مفروضة على كل قادر عليها من المسلمين، فالحج لمن استطاع إليه سبيلا، يعتبر هذا النوع من الرحلات الأكثر هيمنة على الرحلات المغاربية خلال العهد العثماني بل عبر مختلف العصور التي تلت الفتح الإسلامي.²

حيث تعتبر رحلات الحجيج محطة من محطات تواصل وترباط الشعوب المغاربية ببعضها البعض، من خلال المظاهر الإنسانية والأخوية والثقافية التي تتجسد أثناء هذا السفر الشاق والطويل إلى البقاع المقدسة، حيث تعد مسلكا لمتين أو أواصر المحبة والمودة بين ركب الحجيج بشكل أكبر، بل هو فرصة سانحة لتلاقي وتعارف العلماء والمثقفين، حيث يسمح لهم بالتبادل المعرفي وتلقي المزيد من التكوين العلمي واكتشاف التطورات والأنشطة الثقافية المختلفة بمختلف الأماكن التي يحلون بها.³

✓ **الرحلة التجارية:** تتم عن طريق قوافل تجارية المتنقلة بين البلدان فيرافقها علماء، وهؤلاء العلماء يجدون فرصة لنهل العلوم أثناء تنقل القافلة بين الحواضر.

✓ **الرحلة الاضطرابية:** وتتم عن طريق الهجرة الناتجة عن ظلم الحكام أو الحروب، فيضطّر العلماء و السكان إلى الهجرة.⁴

✓ **الرحلة الاستطلاعية:** وتعني الإبحار والمغامرة.

✓ **الرحلة السفارية:** من أجل عقد معاهدات صداقة و اتفاقيات تجارية و كذلك لتحرير و تبادل الأسرى.

2. التعريف بصاحب الرحلة:

- نسبة:

هو أبو عبد الله القاسم بن أحمد بن علي بن إبراهيم الزباني، ينتهي نسب الزباني إلى "صنهاج" جبل قبائل صنهاجة البربرية، وينتمي إلى قبيلة "زيان" وبالتحديد إلى "آيت مالو"، إحدى المجموعات القبلية الكبرى، التي كانت تنتشر بجبال الأطلس المتوسط جنوبي مدينة مكناس، كان جدّه علي بن إبراهيم يقطن على مقربة من مدينة خنيفرة، وكان يحظى هناك بوجاهة كبيرة بين

¹- قادة الأحمر، عبد الرزاق عطلاوي، "التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس في أدبيات الرحلة العلمية الجزائرية (1913-1954)"، مجلة آفاق فكرية، المجلد 3، العدد 7، الجزائر، 2017، ص 244.

²- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء 2، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص 388.

³- أرزقي شويتام، "العلاقات الثقافية الجزائرية المغاربية (الفترة العثمانية)"، مجلة الدراسات التاريخية، العدد 1433، جامعة الجزائر 2، 2011، ص 81.

⁴- عبد الجليل شقرون، المرجع السابق، ص 13-18.

أبناء عشيرته، لما اشتهر به من مكارم الأخلاق و تضلع في العلوم¹، وقد انتقل والده أحمد من العاصمة الإسماعيلية مكناس الى مدينة فاس فاستوطنها وهناك ولد أبو القاسم².

- ولادته :

ولد بمدينة فاس سنة 1147هـ/ 1734م³، وبها نشأ وتكوّن، وتزامن ذلك مع الظروف العصيبة التي مرّ بها المغرب عقب وفاة السلطان إسماعيل⁴.

- نشأته :

نشأ بفاس وتعلم بالقرويين على يد كبار علماءها وفقهائها، وقد كان من نوابغ طلابها وأنبه رجالها و علماءها، وفي سنة 1169هـ/ 1755م هاجر الى الحجاز مع والده، حيث تعرض لعدّة نكبات مهولة، عاد الى المغرب بعد أن استفاد من إقامته بمصر سنة 1171هـ/ 1757م، وبعد عودته من الديار المقدسة دخل في خدمة السلطان محمد بن عبد الله⁵، الذي عينه كاتب للقصر الملكي بفاس، ولقد لعب هذا الأخير دورا فعالا و جوهريا في حياة أبي القاسم الزباني⁶.

¹- ليفي بروفنصال، مؤرخو الشرفاء، دار المغرب، الرباط، 1977، ص114.

²- أبو القاسم الزباني، تحفة الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب، تقديم وتحقيق: رشيد الزاوية، ط1، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 2008، ص19.

³- أبو القاسم الزباني، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1991، ص12؛ ينظر أيضا: محمد بن عبد العزيز الدباغ، "أبو القاسم الزباني مؤرخ الدولة العلوية و كتابه رسالة السلوك فيما يجب على الملوك"، مجلة المناهل، العدد36، الرباط، 1987، ص259؛ عبد الله كنون، ذكريات مشاهير رجال المغرب، القسم الثاني، مطبعة كريمايس، تطوان، (د-ت)، ص10.

⁴- عهد السلطان إسماعيل (1082هـ- 1139هـ/ 1672م - 1727م) للمزيد من التفاصيل عنه ينظر الى: عبد الرحمن ابن زيدان بن محمد العلوي المكناسي، المتزغ اللطيف في مفاخر مولاي إسماعيل بن الشريف، تقديم وتحقيق: عبد الهادي التازي، مطبعة ادبالي، الدار البيضاء، 1993، ص46؛ محمد بن الطيب القادري، التقاط الدرر و مستفاد المواعظ و العبر من أخبار أعيان المائة الحادية و الثانية عشر، تحقيق: هاشم العلوي الفاسي، ط1، دار الأفاق الجديدة، بيروت، 1983، ص188؛ محمد الصغير الإفرائي، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تقديم وتحقيق: عبد اللطيف الشاذلي، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1998، ص429؛ محمد الصغير الإفرائي، روضة التعريف بمفاخر مولانا إسماعيل بن الشريف، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، ط2، المطبعة الملكية، الرباط، 1995، ص60؛ أحمد بن محمد المدغري العلوي، الأنوار الحسنية في نسبة من بسجلماسة من الأشراف المحمدية، تحقيق: عبد الكريم الفيلاي، ط1، مطبعة فضالة، منشورات وزارة الأنباء، المحمدية، 1966، ص80.

⁵- عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله الملقب ب محمد الثالث (1171هـ- 1204هـ/ 1757م - 1790م)؛ للمزيد من التفاصيل عن هذا السلطان ينظر الى: أبي القاسم الزباني، الترجمانة الكبرى...المصدر السابق، ص ص55-58؛ محمد بن عبد السلام الضعيف الرباطي، تاريخ الدولة السعيدة، تحقيق و تعليق: أحمد العماري، ط1، دار المآثورات، 1986، ص660؛ محمد بن أحمد أكسنوس، الجيش العرمم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي، تقديم و تحقيق: أحمد بن يوسف أكسنوس، الجزء 1، المطبعة الحجرية، فاس، 1918، ص106؛ محمد الطيب القادري، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر و الثاني، تحقيق: محمد حجي و أحمد التوفيق، الجزء 1، ط1، مكتبة الطالب، الرباط، 1982، ص123؛ الحسن العبادي، الملك المصلح سيدي محمد بن عبد الله، مؤسسة للطباعة و النشر، الدار البيضاء، (د-ت)، ص ص59-63؛ محمد الأخضر، الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية، دار الرشد الحديثة، الدار البيضاء، 1977، ص270؛ أبي بكر القادري، "دعوة لإحياء الذكرى 200 لوفاة السلطان سيدي محمد بن عبد الله"، مجلة دعوة الحق، العدد234، 1984، ص15؛ إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، الجزء 3، ط2، دار الرشد الحديثة، الدار البيضاء، 1994، ص87.

⁶- أبو القاسم الزباني، الترجمانة الكبرى...، المصدر السابق، ص26

- شيوخه:

ابتدأ المؤلف تعليمه الأولي في أحد الكتاتيب القرآنية بالمدينة، وبعد أن أتم استظهار كتاب الله عز وجل، صرف همهته إلى تحصيل العلوم على يد مشايخ فاس منهم:

- أحمد بن الطاهر الشريقي: أول شيوخه وقد درس عليه الأجرومية، وابن عاشر في النحو، والسنوسية في العقائد.

- محمد بن الطيب القادري¹: درس عليه رسالة ابن أبي زيد القيرواني في الفقه.

- محمد بن إبراهيم الدكالي: درس عليه مختصر خليل بمدرسة العطارين.

- محمد التاودي بن سودة المري: درس عليه صحيح البخاري في الحديث

- عبد القادر بوخريص: درس عليه ألفية ابن مالك في النحو ومختصر الخليل في الفقه.

- محمد بن الحسن بن مسعود بناني، أبو حفص عمر الفاسي...².

- مهاماته:

أبو القاسم الزباني مؤرخ الدولة العلوية، الملقب بذئب الوزارتين، حيث تقلد مناصب سياسية وإدارية سامية وتولى الكتابة والسفارة والوزارة... لكنّه امتحن في عهد كل من السلطان سيدي محمد بن عبد الله و ابنه اليزيد³ والسلطان سليمان⁴، وتوفي بعزلته أيام السلطان عبد الرحمن⁵، بعد أن عاصر و خدم أربعة سلاطين، نال من إعجابهم وتقديرهم ما أكبره ورفع من مكانته، حيث تمكن من الارتقاء إلى أسنى المناصب وتميّز بعدة مهامات منها:

- كتابته للديوان لمدة نحو 15 سنة.

- ولايته على بعض المدن كالعرائش (1179هـ/1765م)، سجلماسة (1184هـ/1784م)، تازة (1201هـ/1788 م)، وجدة (1206هـ/1791م) ...

- القيام بدور الوساطة لإخماد بعض الفتن، كتدخله في تهيئة قبائل آيت أمالوا الثائرة سنة 1186هـ/1772م

¹ - هو أبو عبد الله بن الطيب بن عبد السلام الحسني القادري، من أكبر مؤلفي كتب التراجم في المغرب، وصاحب كتاب "نشر المثاني"، ويعتبر مصدرا أساسيا لما وصلنا من أعلام القرنين 17 و 18م، ويمتاز أسلوبه سواء في النظم أو النثر بالوضوح والدقة؛ ينظر: ليفي بروفنصال، المرجع السابق، ص319.

² - أبو القاسم الزباني، الترجمانة الكبرى...، المصدر السابق، ص 56-57

³ - عهد السلطان اليزيد (1204هـ - 1206هـ/1790م - 1792م)؛ ينظر ترجمته إلى: الضعيف الرباطي، المصدر السابق، ص 197-201؛ أبي العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء 8، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1956، ص56.

⁴ - عهد السلطان سليمان (1206هـ - 1238هـ/1792م - 1822م)؛ ينظر ترجمته إلى: أبي القاسم الزباني، جهمرة التيجان و فهرسة الياقوت و اللؤلؤ والمرجان في ذكر الملوك و أشياخ السلطان المولى سليمان، تقديم و تحقيق: عبد المجيد الخيالي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003، ص ص 12-6.

⁵ - عهد السلطان عبد الرحمن (1238هـ - 1276هـ/1822م - 1859م)؛ ينظر ترجمته إلى: محمد المشرفي، الحلل الهيبة في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية، دراسة و تحقيق: إدريس بوهليلة، الجزء 2، منشورات وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، 2005، ص ص 202-216؛ عبد الرحمن ابن زيدان، الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس، المطبعة الاقتصادية، الرباط، (د-ت)، ص ص 82-88.

- إسهامه في إخماد ثورة العبيد ضد السلطان اليزيد سنة 1189هـ/1775م.

- ترأسه بعثة سفارية الى اسطنبول عام 1200هـ/1786م أقام بها نحو ثلاثة أشهر¹.

- مؤلفاته:

إذا كانت مثل هذه الأدوار قد أكسبت المؤلف شهرة واسعة على المستوى السياسي، فإن ما خلفه من كتابات في المجال الفكري، جعلت منه أحد كبار المؤرخين بالمغرب في عصره، وقد بلغت في المجموع تقريبا نحو أربعين مصنفا، جاءت متباينة من حيث الشكل والحجم والمضمون، متنوعة من حيث الأغراض، وما من شك في أن الوسط العائلي الذي نشأ فيه الزياني كان له أثر كبير على اهتمامه بمادة التاريخ والأنساب، فقد كان جدّه علي بن إبراهيم نسابة².

حيث اقترح عليه السلطان سليمان جمع تأليف "الترجمان المغرب"، و خلال مدة عشرين سنة، جمع مادة غزيرة ومتنوعة من أسفار و دواوين و تقايد و كنانيش، إضافة لما تلقاه شفويا أو عاينه أو ساهم في صنعه، فقام بتوزيعها على مجموعة من مؤلفاته، والدليل على ذلك ظهورها في أوقات متقاربة³.

وقد أكب الزياني على التأليف خاصة أيام عزلته، والتي بدأت من سنة 1225هـ/1809م الى سنة 1249هـ/1833م، كما ألف جُل كتبه بالزاوية العيساوية بفاس منها:

- الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا.

- الترجمان المغرب عن دول المشرق والمغرب.

- البستان الظريف في دولة أولاد مولاي علي الشريف.

- بغية الناظر والسامع والهيكل الجامع لما في التواريخ الجوامع.

- عقد الجمان في شمائل السلطان سيدنا ومولانا عبد الرحمن.

- شرح الحال، والشكوى للكبير المتعال

- جمهرة التيجان وفهرس الياقوت واللؤلؤ والمرجان في أشياخ أمير المؤمنين مولانا سليمان.

- تحفة الإخوان والأولياء في صنعة السيمياء.

- جمهرة من حكم بفاس وقضى في الدولة العلوية وجرى به القضاء.

- تحفة الحادي المغرب في رفع نسب المغرب.

- الروضة السليمانية في ملوك الدولة العلوية، ومن تقدمها من الدول الإسلامية.

- مجموعة إنشاءات شعرية ونثرية

- قوت الجنان في متم أزهار البستان.

¹ - محمد بن عبد العزيز الدباغ، المرجع السابق، ص 259

² - أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى....، المصدر السابق، ص 57.

³ - أبو القاسم الزياني، تحفة الحادي المطرب....، المصدر السابق، ص 26

- رسالة السلوك فيما يجب على الملوك.¹

- وفاته:

توفي المؤرخ الرحالة الأديب أبو القاسم الزياني بفاس عصر يوم الأحد 4 رجب 1249هـ الموافق ل 17 نوفمبر 1833م ، عن سن متقدمة نحو مئة سنة² ، ولقد دفن رحمه الله بأمر من السلطان عبد الرحمن في داخل الزاوية الناصرية بحي السياج في مدينة فاس، ولقد ترك لنا العديد من الكتب التي خلدت اسمه كمؤرخ عظيم³.

3. التعريف برحلة أبي القاسم الزياني:

رحلة أبو القاسم الزياني عبارة عن مؤلف يجمع بين ثلاث رحلات للمؤلف، و يعتبر من أهم مدوناته و أجملها قدرا، أتم تأليفها في 12 ربيع الثاني 1233هـ الموافق ل 20 يناير 1818م و كان عندئذ قد جاوز الثمانين من عمره⁴.

الكتاب " الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا" ل أبي القاسم الزياني تعرض فيه الى تاريخ المغرب و الأنساب و تاريخ الأمم و البلدان فضلا عن إشارته لأساتذته ووظائفه و مؤلفاته و نكباته، والحركة التجانية و الوهابية، و يصف فيها الرحالة الجهات التي مرّ بها: مسالك و مدنا، و منها إسطنبول و مدن الشام و الحرمين الشريفين و مصر و تونس و الجزائر⁵. ويشير الى كيف تقلد الأعمال السلطانية، وكيف نُكِب أ أيام السلطان اليزيد و نُج به الى السجن، ثم أفرج عنه بعد موت السلطان⁶، المصنف بالخرزانة الحسنية تحت رقم: 281-3252-4262-9523-11543-12791-13874⁷، يقع في مجلد ضخم⁸.

و تضم "الترجمانة" ثلاثة رحلات : الأولى كانت للحج (الحجاز) عام 1169هـ/1755م في عهد السلطان عبد الله بن اسماعيل، و الثانية سفارية (إسطنبول) عام 1200هـ/1786م في عهد السلطان محمد بن عبد الله، و الثالثة سياحية الى إسطنبول عام 1206هـ/1791م في عهد السلطان سليمان بن محمد، التي يتحدث فيها الرحالة عن الجزائر⁹.

1 - أبو القاسم الزياني، جمهرة التيجان و فهرسة الياقوت...، المصدر السابق، ص ص 14-17؛ ينظر أيضا: عبد الوهاب بن منصور، أعلام المغرب العربي، الجزء 2، المطبعة الملكية، الرباط، 1979، ص ص 160-162؛ و للمزيد من التفاصيل عن مؤلفاته ينظر: نصيرة كلة، مؤرخو الدولة العلوية " أبو القاسم الزياني نموذجا"، مجلة الدراسات التاريخية و الاجتماعية، العدد38، جامعة نواكشوط، موريتانيا، سبتمبر 2019، ص ص 242-245.

2 - العباس بن إبراهيم السملالي، الإعلام بمن حل مراكش و أغمات من الأعلام، راجعه: عبد الوهاب بن منصور، الجزء 1، ط2، المطبعة الملكية، الرباط، 1993، ص391.

3 - أبو القاسم الزياني، البستان الطريف في دولة أولاد مولاي علي الشريف، دراسة و تحقيق: رشيد الزاوية، ط1، وزارة الشؤون الثقافية، الرباط، 1992، ص10.

4 - ليفي بروفنصال، المرجع السابق، ص124.

5 - محمد المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب (الفترة المعاصرة 1790-1930)، الجزء 2، مطبعة فضالة، المحمدية، 1990، ص53.

6 - محمد عبد الله عنان و آخرون، فهارس الخزانة الحسنية، الجزء 1، إشراف و مراجعة: أحمد شوقي بنين، المطبعة الملكية، الرباط، 2000، ص261.

7 - عمر عمور، كشاف الكتب المخطوطات بالخزانة الحسنية، تقديم: أحمد شوقي بنين، ط1، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، 2007، ص80.

8 - عبد السلام بن القادر بن سودة المري، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ط1، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، 1997، ص230.

9 - مصطفى الغاشي، الرحلة المغربية و الشرق العثماني (محاولة في بناء الصورة)، ط1، الانتشار العربي، بيروت، 2015، ص130؛ ينظر أيضا الى: محمد بن عبد العزيز الدباغ، "أبو القاسم الزياني مؤرخ الدولة العلوية في كتاب الترجمانة الكبرى"، مجلة دعوة الحق، العدد3، الرباط، 1970، ص195.

4. دو افع الرحلة:

في عام 1206هـ/ 1791م عين السلطان سليمان الرحالة الزياني واليا على وجدة لإخماد فتنة أنكاد، فهجم الوالي ونهبت أمتعته، خاف الزياني أن يُحملة السلطان مسؤولية الهزيمة، فلجأ إلى الجزائر متجها بعدها إلى إسطنبول سائحا، حيث سئم من الخدمة السلطانية ففر منها وسار إلى الجزائر واعتكف على العبادة والمطالعة والتأليف بقية العباد بضريح سيدي أبي مدين الغوثي، واحتفى به الولاة والعلماء والأعيان، حيث قدموا له كل ما يحتاجه من مساعدة مادية ومعنوية، رغم أنه لم يكن مبعوثا رسميا ولا زائرا موفدا¹، حيث يقول الزياني: "...واسترحت من أهل المغرب وتقلباته وخلعت ربة الرق وتغلياته" نزل الزياني بوهان ضيفا على الباي محمد الكبير ثم التحق بتلمسان وقضى مدة طويلة بين علماءها (سنة ونصف)، ثم قصد الجزائر فأكرمه أهلها وحكامها، وبعد أيام خطر له أن يزور إسطنبول مرة ثانية، فبدأ رحلته في فاتح جمادى الأول سنة 1208هـ الموافق ل 05 ديسمبر سنة 1793م مارا بقسنطينة وتونس².

وجال في المشرق بين عواصمه إلى أن عاد إلى الجزائر قادما إليها عن طريق تونس وقسنطينة، فُبل بالترحاب والضيافة، وكان يفكر وهو في الجزائر أن يستقر بتلمسان غير أن ضغوطات وإلحاحات عديدة من المغرب جعلته يغادر مكانه المحبوب العباد وجوار سيدي أبي مدين الغوثي³، ويرجع في النهاية إلى بلده سنة 1210هـ/1796م بعدما استدعاه السلطان سليمان وكتب له عهد الأمان⁴.

لا شك أن الزياني حرر فصول رحلته في ظروف مختلفة من حياته السياسية والفكرية، وخلال عدة سنوات لأن هذه المعلومات لا يتيسر جمعها وتدوينها بطريقة فورية وفي فترات زمنية متصلة الحلقات، وإذا كان هو نفسه أخبرنا أنه انتهى من تخريج كتاب الترجمانة سنة 1233هـ/1818م، فإننا نلاحظ أنه ذكر فيها أحداث وقعت سنة 1234هـ/1819م بل حتى سنة 1235هـ/1820م⁵.

5. مضامين الرحلة:

هي عبارة عن رحلة التي جمعت أمصار المعمور برا وبحرا، حيث وصفها على تقسيم الأقاليم السبعة من المغرب إلى أقصى المشرق بالصين، ومن أقصى السودان في الجنوب إلى أقصى بلاد الصقلم في الشمال⁶.
قسم الزياني رحلته إلى خمسة وثلاثين بابا وما يهمننا الأبواب التي تحدث فيها عن الجزائر وهي كالتالي:

¹ - محمد بن عبد العزيز الدباغ، مجلة المناهل، المرجع السابق، ص262.

² - أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى...، المصدر السابق، ص 140-157.

³ - أبو مدين شعيب ولد قرب مدينة اشبيلية حوالي عام 520هـ/1127م، وتوفي بتلمسان سنة 594هـ/1198م؛ ينظر: أبو العباس أحمد بن عبد الله الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق و تعليق: عادل نوهض، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1979، ص 22.

⁴ - أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى...، المصدر السابق، ص 374-380.

⁵ - ليفي بروفنصال، المرجع السابق، ص125

⁶ - أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى...، المصدر السابق، ص36

- "الباب الحادي عشر" جاء فيه: ولايته "وجدة" بالإكراه من السلطان سليمان، و التوجه لها صحبة مائة فارس و ركب التجار و نكبة العرب له أثناء الطريق، ونهب المال و المتاع و البلوغ لوهرا ن و منها الى تلمسان² (هذا الباب يوضح لنا دوافع الرحلة).

- "الباب الثاني عشر" يخبرنا فيه عن إقامته بتلمسان³ سنة ونصف، ومن لقيه من الأعلام وخبرها قبل الإسلام و بعده و ما بالجزائر من المدن و من عمّرها⁴.

- "الباب الثالث عشر" يحدثنا فيه عن سفره للجزائر ومنها لقسنطينة ومنها لإفريقيا و من لقيه بهذه الأقاليم من الأعلام و ما بتلك النواحي من المدن و من أسسها و من عمرها قبل الإسلام و بعده⁵.

- "الباب الرابع و ثلاثون" يتطرق فيه عن سفره من تونس لقسنطينة ثم للجزائر ثم لتلمسان ثم لفاس، و ملقاة السلطان سليمان، و خبره له بالعودة للخدمة و ملازمتها⁶.

حيث في الطبعة المحققة الأولى سنة 1967 و الثانية سنة 1991 نجد من الصفحة 140 الى الصفحة 157، و من الصفحة 374 الى الصفحة 380 أخبار متعددة عن الجزائر في الفترة الحديثة من طرف الرحالة⁷.

زار الزياني الجزائر في أواخر القرن الثامن عشر ميلادي تخلصت فيها البلاد من الوجود الإسباني، و اكتملت أجزاءها و أصبحت وهران عاصمة البايك الغربي، و عرف الوجود العثماني صعوبات داخلية متزايدة⁸.

نزل الرحالة بوهران ثم بتلمسان و مكث بها مدة خالط أهلها ثم انتقل الى الجزائر العاصمة و بقي بها، ثم رحل الى قسنطينة و منها الى تونس، و في طريق العودة مرّ بنفس المدن و أقام بها مُكْرَمًا، فكانت لرحلته فوائد إخبارية متنوعة و متعددة نلخصها فيما يلي:

¹ - وجدة هي مدينة كبيرة مسورة قديمة أزلية، من المدن المشهورة، طيبة الهواء جيدة التربة، مراعيها أنجح المراعي و أصلحها للماشية، و على طريق وجدة طريق المار و الصادر من بلاد المشرق الى بلاد المغرب و سجلماسة و غيرها... و هي قاعدة المغرب الشرقي تقع في سهل انجاد، يقع على ارتفاع 550م فوق سطح البحر، بناها الأمير زيري بن عطية المغراوي سنة 384هـ و ظلت ثمانين سنة عاصمة لأسرته، ثم ملكها المرابطون ثم الموحدون، و قد هدمها السلطان يوسف المرين ثم جدد بنائها ابنه يوسف، و لما استولى الأتراك على المغرب الأوسط حاولوا أن ينتزعوها من الشرفاء السعديين و العلويين و يضموها الى ممتلكاتهم؛ ينظر: عبد الرحمن ابن زيدان، العز و الصولة في معالم نظم الدولة، الجزء 1، المطبعة الملكية، الرباط، 1961، ص 161؛ ينظر أيضا: مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق: عبد الحميد سعد زغلول، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985، ص 178.

² - أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى...، المصدر السابق، ص ص 140-145

³ - تلمسان قاعدة المغرب الأوسط و هي دار مملكة زناتة تتوسط قبائل البربر و مقصد للتجارة و دار المحدثين و العلماء؛ ينظر: أبو عبيد الله بن عبد العزيز البكري، المسالك و الممالك، تحقيق: جمال طلبة، الجزء 2، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003، ص 259

⁴ - أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى...، المصدر السابق، ص ص 145-148.

⁵ - نفسه، ص ص 148-153

⁶ - نفسه، ص ص 153-157

⁷ - نفسه، ص ص 140-157؛ ص ص 374-380.

⁸ - مولاي بالحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1979، ص 35.

- محمد الكبير باي وهران:

يظهر من حديث الزياني أن باي وهران كان مهتم بشؤون المغرب متتبع لما يجري فيه محلل لحوادثه، فهذه الحوادث جعلت محمد الكبير يبدي برأيه قائلا: " ذهب ملك المغرب مع السلطان محمد بن عبد الله... ، ان ملك المغرب تشتت وأولاد السلطان لا تقوم لهم قائمة..."، ثم يصف لنا الرحالة قلعة وهران وأبراجها¹.

- تلمسان:

يخبرنا الزياني بما كان بتلمسان آنذاك من كتب نادرة مثل : كتب ابن مرزوق و أبي حمو موسى الزياني²...، التي وجد فيها الرحالة ضالته لاسيما وأنه أقام بتلمسان سنة ونصف، نزل بجوار أبي مدين بالعباد³.

وخصص الزياني لتاريخ تلمسان صفحات غطت الحديث عن بقية المدن الجزائرية، ويظهر من سرده للحوادث أنه اعتمد على ابن خلدون بصفة خاصة و عرضها عرضا محكما، مما جعل الأب " BARGES" ينقل هذا الفصل كاملا الى الفرنسية⁴، وحكى عن المدن ما بين تلمسان و الجزائر كقلعة بني راشد، أرشقون، مستغانم، معسكر، تاهرت، تنس، شرشال، مازونة، المدية، البليدة...

- الجزائر العاصمة:

أقام الزياني بالجزائر أربعة وعشرين يوما وهو في طريق الذهاب الى المشرق، وسبعة أشهر قبل عودته الى المغرب، ويظهر من حديث الزياني كانت مدينة الجزائر تعاني من الوباء ، وأن المرسى كان هو المكان الأكثر نشاطا، وأعجب الرحالة ببناء و هندسة و ألوان جامع كتشاوة الذي رماه حسن باشا سنة 1794م، حيث ترك لنا وصفا رائعا عنه، وأخبرنا أيضا عن سكان العاصمة و الجالية الفاسية التي تقطن بها⁵.

أشار الزياني الى شتى الإعانات التي تلقاها في الذهاب والإياب وأنواع الضيافات التي دُعي إليها، والى تكالب الدول الأوروبية على الجزائر وتعرض المراكب للقرصنة الأوروبية⁶.

- قسنطينة:

أقام الزياني بمدينة قسنطينة خمسة عشر يوما وهو في طريق الذهاب الى المشرق، وعشرة أيام قبل عودته الى الجزائر حيث يخبرنا الرحالة عن لقائه بمجموعة من العلماء أمثال: الشيخ عمر الصباغي، أحمد بن المبارك العلمي... وتزويده بمعلومات شتى عن الأدب و الفقه⁷.

¹ - أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى...، المصدر السابق، ص 141

² - أبو حمو موسى ابن يعقوب العبد الوادي (1359م-1389م)، ولد بغرناطة بالأندلس سنة 724هـ/1324م، توفي سنة 791هـ/1389م ؛ للمزيد من التفاصيل عنه ينظر: عبد الحميد حاجيات، أبو حمو الزياني حياته و آثاره، الجزائر، 1974.

³ - أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى...، المصدر السابق، ص 142-147

⁴ - مولاي بالحميسي، المرجع السابق، ص 36.

⁵ - أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى...، المصدر السابق، ص 375-379

⁶ - أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى...، المصدر السابق، ص 379

⁷ - نفسه، ص 153

وفي الرحلة تحمل معلومات عن "حسن باي" التي تُبين لنا من خلالها مدى القوة والعنف والتأمر الذي كان جاريا حول المناصب في تلك الفترة، حيث يؤكد هذه المعلومات المؤلف أحمد بن سحنون الراشدي².

- أحوال البلاد:

يُلخص الزياني أحوال الجزائر في تلك الفترة قائلا: "... وخبرنا مررنا به من الجزائر الى قسنطينة من المدن فكله خراب..."، حيث كانت المدن بين تلمسان والجزائر، وبين الجزائر وقسنطينة خراب، والسبب في ذلك آثار الوباء الذي أخلى البلاد وأفنى العباد، بالإضافة الى قيام الثورات المحلية³ (حركات معادية للحكم) ضد الحكم العثماني⁴.

6. أهمية الرحلة:

- تطرق الزياني من خلال رحلته تقريبا الى جميع الجوانب منها: السياسية، الاجتماعية، الثقافية والعمرانية للجزائر في الفترة الحديثة (العهد العثماني) ويتضح ذلك فيما يلي:

- الجانب السياسي حينما تحدث عن منزلة محمد الكبير باي وهران، حسن باشا العاصمة وحسن باي قسنطينة وعن تحرير وهران من الاحتلال الإسباني التي أصبحت بعدها عاصمة البايك الغربي....

- الجانب الاجتماعي عند وصفه لنا الحالة الاجتماعية للجزائر في أواخر القرن الثامن عشر كالوباء الذي عا مدن الجزائر، وحسن ضيافة وكرم ولاة وعلماء وأعيان الجزائر بالإضافة لإشارته الى الجالية الفاسية بالعاصمة.

- الجانب الثقافي حينما تطرق الى أهم علماء وفقهاء تلمسان وقسنطينة، وأهم الكتب الموجودة بالجزائر.

- الجانب العمراني عند حديثه عن قصبة وهران وأبراجها، ولما وصف لنا جامع كتشاوة بالعاصمة من هندسة وألوان...

خاتمة:

تعتبر الرحلة الموسومة ب الترجمانة الكبرى... أشهر مؤلفات وآخر الإنتاجات الفكرية لأبي القاسم الزياني، وهي عبارة عن شبه موسوعة تضم معلومات ثرية واستطرادات متنوعة، ربط فيها الرحالة بين الجانب التاريخي والسياسي، كما تعرض لذكر بعض الاهتمامات الثقافية والفكرية والى بعض المساجلات العقائدية، سواء في إطار المذاهب الإسلامية والعقائد الصوفية أو في إطار العلاقات العامة بين الأديان المختلفة.

ان المواضيع المطروحة في هذه الرحلة جدّ متنوعة ومتفاوتة من حيث الإسهاب أو الإيجاز، إلا أن الزياني لم يتبع خطة محدودة ولم يُراع في بسطها طريقة واضحة.

¹ - حسن باي دام حكمه على قسنطينة من سبتمبر 1792م الى جانفي 1795م؛ للمزيد من التفاصيل عنه ينظر: مولاي بالحيمسي، المرجع السابق، ص176

² - أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى...، المصدر السابق، ص 159

³ - تلك الثورات المحلية قادتها الطرق الصوفية التي كانت معادية للأتراك ثم من بعدهم الاستعمار، لها عدّة فروع، ويتميز مريدوها ببعض الخصائص منها: حمل العصا واتخاذ سيحة ذات حبات كبيرة، وإعفاء اللحية أبداً، والسير حفا...، للمزيد من التفاصيل ينظر: عبد الحكيم مرتاض، الطرق الصوفية في الجزائر أصولها وتطورها حتى 1939، رسالة ماجستير، معهد الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان 1998-1999، ص176.

⁴ - أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى...، المصدر السابق، ص 375-379؛ ص 151.

- 2- عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، تحقيق: عبد السلام الشداد، الجزء 3، ط1، خزانة ابن خلدون، الدار البيضاء، المغرب، 2005
- 3- محي الدين أبي زكريا بن شرف النووي، صحيح مسلم بشرح النووي، تحقيق: محمد سيد عبد رب الرسول، الجزء 21، مكتبة أبو بكر الصديق للنشر والتوزيع، القاهرة، 2006
- 4- أبو القاسم الزباني، تحفة الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب، تقديم و تحقيق: رشيد الزاوية، ط1، منشورات وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، الرباط، 2008.
- 5- أبو القاسم الزباني، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا و بحرا، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1991.
- 6- أبو القاسم الزباني، جمهرة التيجان و فهرسة الباقوت و اللؤلؤ و المرجان في ذكر الملوك و أشياخ السلطان المولى سليمان، تقديم و تحقيق: عبد المجيد الخيالي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003
- 7- أبو القاسم الزباني، البستان الطريف في دولة أولاد مولاي علي الشريف، دراسة و تحقيق: رشيد الزاوية، ط1، وزارة الشؤون الثقافية، الرباط، 1992
- 8- عبد الرحمن ابن زيدان بن محمد العلوي المكناسي، المنزغ اللطيف في مفاخر مولاي إسماعيل بن الشريف، تقديم و تحقيق: عبد الهادي التازي، مطبعة اديال، الدار البيضاء، 1993.
- 9- عبد الرحمن ابن زيدان، العز و الصولة في معالم نظم الدولة، الجزء 1، المطبعة الملكية، الرباط، 1961.
- 10- عبد الرحمن ابن زيدان، الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس، المطبعة الاقتصادية، الرباط، (د-ت).
- 11- محمد بن الطيب القادري، التقاط الدرر و مستفاد المواعظ و العبر من أخبار أعيان المائة الحادية و الثانية عشر، تحقيق: هاشم العلوي الفاسي، ط1، دار الأفاق الجديدة، بيروت، 1983.
- 12- محمد الصغير الإفرائي، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تقديم و تحقيق: عبد اللطيف الشاذلي، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1998.
- 13- محمد الصغير الإفرائي، روضة التعريف بمفاخر مولانا إسماعيل بن الشريف، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، ط2، المطبعة الملكية، الرباط، 1995.
- 14- أحمد بن محمد المدغري العلوي، الأنوار الحسنية في نسبة من بسجلماسة من الأشراف المحمدية، تحقيق: عبد الكريم الفيلاي، ط1، مطبعة فضالة، منشورات وزارة الأنباء، المحمدية، 1966.
- 15- محمد بن عبد السلام الضعيف الرباطي، تاريخ الدولة السعيدة، تحقيق و تعليق: أحمد العماري، ط1، دار المآثورات، 1986.
- 16- محمد بن أحمد أكسنوس، الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي، تقديم و تحقيق: أحمد بن يوسف أكسنوس، الجزء 1، المطبعة الحجرية، فاس، 1918.
- 17- محمد الطيب القادري، نشر المثنائي لأهل القرن الحادي عشر و الثاني، تحقيق: محمد حجي و أحمد التوفيق، الجزء 1، ط1، مكتبة الطالب، الرباط، 1982.

- 18- أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء 8، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1956
- 19- محمد المشرفي، الحلل الهبية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية، دراسة و تحقيق: إدريس بوهليلة، الجزء 2، منشورات وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، 2005.
- 20- العباس بن إبراهيم السمالي، الإعلام بمن حل مراكش و أغمات من الأعلام، راجعه: عبد الوهاب بن منصور، الجزء 1، ط2، المطبعة الملكية، الرباط، 1993.
- 21- أبو العباس أحمد بن عبد الله الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق و تعليق: عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1979.
- 22- مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق: عبد الحميد سعد زغلول، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985.
- 23- أبو عبيد الله بن عبد العزيز البكري، المسالك و الممالك، تحقيق: جمال طلبة، الجزء 2، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003.
- ثانيا. المراجع:
- الكتب:
- 24- عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية دراسة تحليلية مقارنة، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض ، 1996 .
- 25- فاروق عمر، الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية، ط2، مكتبة المثنى، بغداد، 1977.
- 26- عبد الله كروم، الرحلات بإقليم توات: دراسة أدبية للرحلات المخطوطة بخزانة توات، دحلح للنشر، الجزائر، 2007.
- 27- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء 2، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998.
- 28- ليفي بروفنسال، مؤرخو الشرفاء، دار المغرب، الرباط، 1977.
- 29- عبد الله كنون، ذكريات مشاهير رجال المغرب، القسم الثاني، مطبعة كريماديس، تطوان، (د-ت).
- 30- الحسن العبادي، الملك المصلح سيدي محمد بن عبد الله، مؤسسة للطباعة و النشر، الدار البيضاء، (د-ت).
- 31- محمد الأخضر، الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1977.
- 32- إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، الجزء 3، ط2، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1994.
- 33- محمد المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب (الفترة المعاصرة 1790-1930)، الجزء 2، مطبعة فضالة، المحمدية، 1990.
- 34- محمد عبد الله عنان و آخرون، فهارس الخزانة الحسنية، الجزء 1، إشراف و مراجعة: أحمد شوقي بنين، المطبعة الملكية، الرباط، 2000.

- 35- عمر عمور، كشاف الكتب المخطوطات بالخزانة الحسنية، تقديم: أحمد شوقي بنين، ط1، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، 2007.
- 36- عبد السلام بن القادر بن سودة المري، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1997.
- 37- مصطفى الغاشي، الرحلة المغربية و الشرق العثماني (محاولة في بناء الصورة)، ط1، الإنتشار العربي، بيروت، 2015.
- 38- مولاي بالحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979.
- 39- عبد الحميد حاجيات، أبو حمو الزباني حياته و آثاره، الجزائر، 1974.
- الدوريات والمجلات:
- 40- قادة الأحمر، عبد الرزاق عطلاوي، "التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس في أدبيات الرحلة العلمية الجزائرية (1913-1954)", مجلة آفاق فكرية، المجلد 3، العدد 7، الجزائر، 2017.
- 41- أرزقي شويتام، "العلاقات الثقافية الجزائرية المغربية (الفترة العثمانية)", مجلة الدراسات التاريخية، العدد 1433، جامعة الجزائر2، 2011.
- 42- محمد بن عبد العزيز الدباغ، "أبو القاسم الزباني مؤرخ الدولة العلوية و كتابه رسالة السلوك فيما يجب على الملوك"، مجلة المناهل، العدد36، الرباط، 1987.
- 43- محمد بن عبد العزيز الدباغ، "أبو القاسم الزباني مؤرخ الدولة العلوية في كتاب الترجمانة الكبرى"، مجلة دعوة الحق، العدد3، الرباط، 1970.
- 44- أبو بكر القادري، "دعوة لإحياء الذكرى 200 لوفاة السلطان سيدي محمد بن عبد الله"، مجلة دعوة الحق، العدد 234، 1984.
- 45- نصيرة كلة، مؤرخو الدولة العلوية "أبو القاسم الزباني انموذجا"، مجلة الدراسات التاريخية و الاجتماعية، العدد38، جامعة نواكشوط، موريتانيا، سبتمبر 2019.
- الموسوعات والمعاجم:
- 46- محمد مكرم بن علي بن منظور، لسان العرب، المجلد 3، الجزء 24، دار الصادر، بيروت، 1990م.
- 47- عبد الوهاب بن منصور، أعلام المغرب العربي، الجزء 2، المطبعة الملكية، الرباط، 1979.
- الرسائل الجامعية:
- 48- عبد الجليل شقرون، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب، لابن عمار أبي العباس احمد دراسة وتحقيق، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه في تحقيق المخطوطات، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، السنة الجامعية 2016-2017.
- 49- عبد الحكيم مرتاض، الطرق الصوفية في الجزائر أصولها وتطورها حتى 1939، رسالة ماجستير، معهد الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان 1998-1999.

جدلية العلاقة بين الإعلام التقليدي والإعلام الجديد

Dialectic of the relationship between traditional and new media

د. ربيحة نبار ♦ د. كريمة مقاوسي / جامعة حمه لخضر، الوادي، الجزائر

Algeria-el oued -university lakhder Hamma :Dr.KarimaMekaoussi ♦ Dr.RebihaNebbar

ملخص:

لقد غيرت تكنولوجيايات الإعلام والاتصال الحديثة كل مناحي الحياة، وأثرت بشكل غير مسبوق في أنشطة الأفراد والجماعات بحيث أصبح التعامل مع وسائل الإعلام الجديد أمر واقع ولا مفر منه، وصار الإعلام الجديد الوسيلة الأهم والأسرع لتدفق المعلومات والحصول عليها بكل الاتجاهات بل وإنتاجها في هذا العصر، ويستخدم الإعلام الجديد مختلف فئات المجتمع رغم وجود الإعلام التقليدي، خاصة وأن الإعلام الجديد هو إعلام حر خال من القيود والرقابة، على عكس الإعلام التقليدي، حيث بإمكان جميع الأفراد نشر أفكارهم، والتعبير عن آرائهم بحرية مطلقة ومن مختلف الهويات التي تتجاوز حدود الدولة الواحدة وتتخطى حواجز الزمان والمكان.

الكلمات المفتاحية: الإعلام، الإعلام التقليدي، الإعلام الجديد.

Abstract:

Modern information and communication technologies have changed all aspects of life, and have affected in an unprecedented way the activities of individuals and groups, so that dealing with new media has become a reality and inevitable, and new media has become the most important and fastest means for the flow of information, obtaining it in all directions, and even producing it in this era. New media in the various groups of society despite the existence of traditional media, especially since the new media is a free media free from restrictions and censorship, unlike traditional media, where all individuals can spread their ideas and express their views with absolute freedom and from various identities that transcend the boundaries of a single state and transcend barriers of time and space.

Key words: media, traditional media, new media.

مقدمة:

رغم الثورة التكنولوجية والتطور الحاصل الذي شهدته وسائل الإعلام إلا أنها لم تلغي وسائل الإعلام التقليدية ولكن طورتها بشكل ملفت للانتباه، فألغت حواجز الزمان والمكان، وأضحت وسائل الإعلام الجديد ذات أثر عميق في حياة الأفراد مما جعل من الإعلام الجديد محورا أساسيا في المجتمع، وما يميز الإعلام الجديد عن الإعلام التقليدي، هو أن الإعلام الجديد لا يتحكم فيه قادة إعلاميين، وبإمكان شتى شرائح المجتمع استخدامه، إذ يمكن لأي شخص أن يصبح ناشراً وأن يوصل رسالته إلى جميع أنحاء العالم، هذا وقد منح الناس فرصة للتعبير عن أنفسهم وإبداء وجهات نظرهم، كما عزز التضامن بين أصحاب القضايا المشتركة، لقد مكنت وسائل الإعلام الجديد فاعلين من الظهور وطرح قضايا وأفكار للنقاش والتي كانت تحت سيطرة ورقابة بعض النخب، كما ساهمت في فتح آفاق نحو الوصول إلى المعارف والمعلومات وإنتاج المعرفة وزيادة التواصل بين الأفراد، وأصبح الفرد شريكا فعالاً في تلقيه وطرحه للآراء، فوسائل الإعلام الجديدة حولت الاتصال على مستوى العالم من أسلوب أحادي الاتجاه إلى أسلوب متعدد الاتجاهات و أضحت الشبكات الاجتماعية تعبر عن حالة التفاعل بين أفراد المجتمع مع بيئتهم وهي المسيطر الرئيسي على نظام الاتصال.

أولاً-تحديد المفاهيم:

1-تعريف الإعلام:

هو: "تلك العملية الإعلامية التي تبدأ بمعرفة المخبر الصحفي بمعلومات ذات أهمية أي معلومات جديدة بالنقل والنشر ثم تتوالى مراحلها: تجميع المعلومات من مصادرها، ثم نقلها والتعاطي معها وتحريرها ثم نشرها وإطلاقها وإرسالها عبر صحيفة أو وكالة أو إذاعة أو محطة تلفزيونية إلى طرف معني بها ومهتم بوثائقها".¹

2-تعريف الإعلام التقليدي:

يعرف الإعلام التقليدي بأنه: "وسائل الاتصال والتعبير التقليدية من التلفزيون وقنوات الكابل والإذاعة والسينما واستديو هات الموسيقى والصحف والمجلات والكتب والنشرات المطبوعة".²

3-تعريف الإعلام الجديد:

يعرف الإعلام الجديد بأنه: "إعلام متعدد الوسائط حيث يتم عرض المعلومات في شكل مزيج من الصوت والصورة والفيديو مما يجعل المعلومة أكثر قوة وتأثيراً، وهذه المعلومات هي معلومات رقمية يتم إعدادها وتخزينها وتعديلها ونقلها بشكل إلكتروني".³

¹ محمد جاسم فليحي الموسوي: نظريات الاتصال والإعلام الجماهيري (مقرر في الفصل الثاني مرحلة ماجستير)، الأكاديمية العربية المفتوحة في الدنمارك، كلية الآداب والتربية، قسم الإعلام والاتصال، 2002، ص 6

² صاحبي صبيحة: اتجاهات الشباب الجزائري نحو مصادر الأخبار بين الإعلام التقليدي والإعلام الجديد،

-دراسة ميدانية على عينة من طلبة جامعة العربي بن مهيدي أم البواقي-إشراف خالفة زينب، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر تخصص اتصال وعلاقات عامة، الجزائر، 2017، ص 28

³ شبيخاني سميرة: الإعلام الجديد في عصر المعلومات، مجلة جامعة دمشق، المجلد 26، العدد 1-2، قسم الإعلام، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2010، ص 443

ويعرف قاموس التكنولوجيا الرفيعة الإعلام الجديد بشكل مختصر وبصفتة: "أنه اندماج الكمبيوتر وشبكات الكمبيوتر والوسائط المتعددة".

وحسب قاموس ليستر فإن الإعلام الجديد هو: "مجموعة تكنولوجيات الاتصال التي تولدت من التزاوج بين الكمبيوتر والوسائط التقليدية للإعلام".¹

كما يعرف الإعلام الجديد بأنه: "تسخير التكنولوجيا في نشر الأخبار والمعلومات والمعارف من خلال عملية دمج وسائل الاعلام القديمة مع الأدوات الرقمية وشبكة المعلومات العالمية بما يحقق الاتصال التفاعلي بين المرسل والمستقبل بسرعة فائقة عبر تكنولوجيا الأنترنت ومواقع الشبكات الاجتماعية التي تستخدم تقنية الويب".

ويقول برودي دوغلاس: "بينما يستمر التلفزيون بدوره كنافذة على العالم فإن الإعلام الجديد استطاع أن يوصل المستخدم بالعالم طالما هو متصل بالأنترنت".²

كما تعرف مجلة بي سي الإعلام الجديد بأنه: "أشكال التواصل في العالم الرقمي والتي تضمن النشر على الأقراص المدمجة وأقراص (الدي في دي) وبشكل أكثر أهمية على شبكة الإنترنت".³

ثانيا- نشأة وتطور الاعلام الجديد:

نشأ الإعلام الجديد بعد التطور المذهل لشبكة الأنترنت التي نشأت فكرتها في الستينيات من القرن الماضي عندما افترضت وزارة الدفاع الأمريكي وقوع هجوم أو كارثة نووية تؤدي إلى تعطيل الاتصالات فتم تكليف مجموعة من الباحثين للنظر فيما يمكن فعله في حال حدوث هذه الحالة الافتراضية. بعد ذلك مر المشروع بعدة تطورات وصولاً إلى ما يعرف اليوم بشبكة الأنترنت وهي الشبكة العالمية وتقوم على وصل الملايين من أجهزة الحاسوب ببعضها البعض، وتمتلك هذه الأجهزة المؤسسات والدوائر الحكومية وشركات وجامعات وأفراد ممن يمتلكون أجهزة شخصية موصولة بشبكة الأنترنت، وتعتبر شبكة الأنترنت اليوم أكبر جزء من تقنية المعلومات في العالم كأداة اتصال وتواصل بين الأفراد بشتى بقاع العالم والتي يتم عن طريقها إجراء المعاملات المختلفة كالبحث عن الأسواق وأوضاع المنافسين ومراسلة الزبائن الحاليين والمحتملين بتكاليف قليلة وتبادل المعلومات والخبرات والأخبار السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

ونظراً لما يتسم به الإعلام الجديد من خصائص فقد أصبح يشكل عصب الحياة فهو ثورة في عالم الإعلام والاتصال إذ شمل وسائل الإعلام التقليدية وطور من أدائها، فالقنوات التلفزيونية أمكنها بث برامجها عبر الحاسوب والهاتف النقال وكذلك المحطات الإذاعية أصبح بالإمكان التقاطها عبر الهاتف الخليوي والحاسوب، لقد فرض التطور الحاصل على وسائل الإعلام التقليدية ضرورة مواكبته والاستفادة منه لتستمر فسارعت الكثير من الصحف إلى إنشاء مواقع لها على شبكة الأنترنت

¹سميثي وداد: وسائل الإعلام الجديد أي تأثير؟ إلى أي مدى؟ -مقاربة تحليلية متعددة الابعاد-، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد 21، ديسمبر 2015، جامعة أم البواقي، الجزائر، ص 204

²بن عبو وليد: الإعلام الجديد، المفهوم، المداخل النظرية، نظرة في الخصائص والعوامل، مجلة الراصد العلمي جامعة وهران 1، أحمد بن بلة، المجلد 7، العدد 1، مارس 2020، ص 27

³مها فالج ساق الله: ماهية الإعلام الجديد(ضمن مساق موضوع خاص في برنامج ماجستير الصحافة) إشراف أحمد عرابي الترك، كلية الآداب، قسم الصحافة والإعلام، الدراسات العليا، الجامعة الإسلامية، غزة، نقلا عن الموقع:

وتزايدت هذه الصحف الإلكترونية إضافة إلى صدور الكثير من المجلات التي استفادت من التقنية بالإضافة لانتشار مواقع إلكترونية عديدة.¹

ثالثا- مسميات الاعلام الجديد:

لقد تعددت أسماء الإعلام الجديد، ولم تقف كذلك على اسم موحد، ومنها:

1- الإعلام الرقمي: لوصف بعض تطبيقاته التي تقوم على التكنولوجيا الرقمية مثل التلفزيون الرقمي، الراديو

الرقمي، وغيرهما، أو للإشارة إلى أي نظام أو وسيلة إعلامية تندمج مع الكمبيوتر.

2- الإعلام التفاعلي: طالما توفرت حالة من العطاء والاستجابة بين المستخدمين لشبكة الأنترنت والتلفزيون

والراديو التفاعليين وغيرهم من النظم الإعلامية التفاعلية.

3- الإعلام الشبكي: على خطوط الاتصال بالتركيز على تطبيقاته في الأنترنت وغيرها من الشبكات.

4- الوسائط السيبرونية: من تعبير الفضاء السيبروني الذي أطلقه كاتب روايات الخيال العلمي ويليام جيبسون في روايته التي

أصدرها عام 1984.

5- إعلام المعلومات: للدلالة على التزاوج بين الكمبيوتر والاتصال وعلى ظهور نظام إعلامي جديد يستفيد من تطور

تكنولوجيا المعلوماتية ويندمج فيها.

6- إعلام الوسائط المتعددة: حالة الاندماج التي تحدث داخله بين النص والصورة والفيديو.²

رابعا- خصائص الإعلام الجديد:

تشهد وسائل الإعلام الجديدة تحولات كبيرة تجعلنا ننتقل من آلات تعتمد على التماثل إلى آلات رقمية، ومن آلات لها وظيفة

وحيدة إلى آلات متعددة الوظائف، وهو ما يجعلها تمتلك خصائص ترفع من كفاءتها في الأداءات التي خلقت لأجلها ولعل بعض

تلك الخصائص هي:

1- الاستعارة والالتقاء: الاستعارة هي قيام وسيلة الاتصال باقتباس المواضيع والتقنيات المستعملة في وسيلة أخرى سابقة

لها، أو لاحقة عليها بشكل لا يجعلها مجرد استعمال مماثل لما تؤديه الوسيلة المستعارة منها فمثلا تركز معالجة النصوص في

الحاسوب على تقنيات الآلة الكاتبة لكنها تقدم إمكانات أكثر مما كانت توفره هذه الأخيرة كما أن التلفزة تستعمل الشاشة

المقتسمة والعنوان لتقدم الأخبار مثلما يحصل في الأنترنت، إن هذا يجعل وسائل الاتصال تتأثر فيما بينها وهو ما يجعل تطورها

أكثر من مجرد تعاقب يؤدي إلى حلول الوسائل الجديدة محل القديمة منها.

2- وسائل الإعلام الجديدة وسائل ذكية: صارت وسائل الإعلام الجديدة أكثر ذكاء لأنها تتوافر على حواسيب صغيرة مدمجة

فيها وذلك حتى بالنسبة للاستعمالات الشخصية وهو ما يوفر للمستعمل إمكانية التشفير وفك التشفير وتخزين المعلومات

¹ علي خليل شقرة: الإعلام الجديد (شبكات التواصل الاجتماعي)، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، 2014، ص ص 48-49

² نسرين حسونة: نقلا عن الموقع <https://nisreenhassouna.wordpress.com> بتاريخ 20/8/2020 الساعة 22:15

متجاوزا الاستعمال البسيط الذي كان يميز ما سبقها من وسائل، فالهاتف النقال في نسخته الحالية لا يقدم فقط وظيفة الاتصال وإنما يمكن استعماله في معالجة النصوص والربط بشبكة الأنترنت وبرمجة المواعيد والمكالمات.¹

3-دمج الوسائل القديمة والحديثة في مكان واحد على منصة الكمبيوتر وشبكاته وما ينتج عن ذلك الاندماج من تغيير انقلابي للنموذج الاتصالي الموروث مما يسمح للفرد العادي بإيصال رسالته لمن يريد وقتما شاء وبكل الاتجاهات وليس من أعلى إلى أسفل وفق النموذج التقليدي.

4-تبني هذا الإعلام للتكنولوجيا الرقمية وتطبيقات الواقع الافتراضي وتعددية الوسائط وتحقيقه لميزات الفردية والتخصيص وتجاوزه للحدود الدولية.

5-اعتماد الإعلام الجديد على الكمبيوتر والاتصالات عن بعد في إنتاج المعلومات وتخزينها وتوزيعها والتسليم لكل الناس وبأسعار منخفضة وهذه خاصية مشتركة بين الإعلام القديم والجديد لكن هذا الأخير يوفر التفاعل أي الاستجابة لحديث المستعمل تماما كما يحدث عند المحادثة بين شخصين.

6-يتميز الإعلام الجديد بأنه إعلام متعدد الوسائط ويعني أن المعلومات يتم عرضها في شكل مزيج من النص والصورة والفيديو مما يجعل المعلومة أكثر قوة وتأثيرا، وهذه المعلومات هي معلومات رقمية يتم تخزينها، تعديلها ونقلها بشكل إلكتروني.²

7-التفاعلية: وقد وفرت هذه الخاصية للمتلقى إمكانية المشاركة وإبداء رأيه والتعليق عليها بل وتصحيحها بالإضافة إليها كما يمكنه أن يتحاور مباشرة مع معد البرامج عن طريق الدردشة أو المشاركة في المنتديات، والتفاعلية من أهم خصائص الإعلام الجديد فبعد أن كان المتلقى يتلقى فقط الرسالة الإعلامية أصبح يشارك في هذا الإعلام عن طريق التفاعل مع ما ينشر من خلاله.

8-المرونة: حيث يمكن لمستخدم وسائل الإعلام الجديد الوصول إلى مصادر معلومات كثيرة وببسر، كما يمكنه المفاضلة بين هذه المعلومات واختياره ما يناسبه.³

9-الانتشار: ويعني تحول الوسائل الجديدة من مجرد ترف وإضافات إلى وسائل ضرورية أساسية في حياة الإنسان ولا يستغني عنها.

10-قابلية التوصيل: بدمج الأجهزة ذات نفس النظم بغض النظر عن الشركة الصانعة.

11-السرعة في إنجاز الاتصال: إذ يتم الانتقال من المرحلة المتعددة إلى أسلوب المرحلة الواحدة.⁴

12-الكونية: إذ أصبحت بيئة الاتصال عالمية تتخطى حواجز الزمان والمكان والرقابة.

13-اندماج الوسائط: ففي الإعلام الجديد يتم استخدام كل وسائل الاتصال مثل النصوص والصوت والصورة الثابتة والصورة المتحركة والرسوم البيانية ثنائية وثلاثية الأبعاد.

محمد بن هلال: الإعلام الجديد ورهان تطوير الممارسة السياسية تحليل لأهم النظريات والاتجاهات العالمية والعربية، إعداد مركز دراسات الوحدة، سلسلة كتب المستقبل العربي، العدد 69، لبنان، صص 20-21

رحيمة الطيب عيساني: الصراع والتكامل بين الإعلام الجديد والتقليدي، مجلة الباحث الإعلامي، كلية الاتصال لجامعة الشارقة، العدد 20، 2013، صص 54-55

³علي خليل شقرة: مرجع سابق، صص 55-57

⁴مصطفى يوسف كافي: الإعلام التفاعلي، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، 2016، صص 22

14-الانتباه والتركيز: نظرا لأن المتلقي في وسائل الإعلام الجديد يقوم بعمل فاعل في اختيار المحتوى والتفاعل معه لذلك يتميز بدرجة عالية من الانتباه والتركيز عكس التعرض لوسائل الإعلام التقليدي الذي يكون عادة سلبيا وسطحيا.

15-التخزين والحفظ: حيث يسهل على المتلقي حفظ وتخزين الرسائل الاتصالية واسترجاعها كجزء من قدرات وخصائص الوسيلة ذاتها.

16-اللاتزامنية: وهي إمكانية التفاعل مع العملية الاتصالية في الوقت المناسب للفرد سواء كان مستقبلا أو مرسلا.¹

17-التنظيم: حيث أصبحت معالجة البيانات بطريقة رقمية وأكثر سهولة في تنظيمها.

18-الفردية مقابل الجماعية: إذ يتعاطى الجمهور مع وسائل الإعلام بصورة فردية رغم أنها في الأساس وسائل جماعية.

19-التكثيف: إذ أصبح بمقدور القائمين بالاتصال تزويد المتلقين بجرعات متعددة الأوجه ومفتوحة الاحتمالات.²

خامسا-أقسام الإعلام الجديد:

- الإعلام الجديد القائم على شبكة الأنترنت وتطبيقاتها.

- الإعلام الجديد القائم على الأجهزة المحمولة بما في ذلك أجهزة قراءة الكتب والصحف.

- نوع من منصة الوسائل التقليدية مثل الراديو والتلفزيون التي أضيفت إليها مميزات جديدة مثل التفاعلية والرقمية والاستجابة للطلب.

- الإعلام الجديد القائم على منصة الكمبيوتر ويتم تداول هذا النوع إما شبكيا أو بوسائل الحفظ المختلفة مثل الأسطوانات الضوئية وتشمل العروض البصرية وألعاب الفيديو والكتب الإلكترونية.³

سادسا-العوامل الرئيسية للإعلام الجديد:

لقد ساهم في بروز ظاهرة الإعلام الجديد عدة عوامل تقنية واقتصادية وسياسية يمكن تلخيصها فيمايلي:

1- العامل التقني المتمثل في التقدم الهائل في تكنولوجيا الكمبيوتر: تجهيزاته وبرمجياته وتكنولوجيا الاتصال لاسيما ما يتعلق بالأقمار الصناعية وشبكات الألياف الضوئية، فقد اندمجت هذه العناصر التكنولوجية في توليفات اتصالية عدة لتنتج الأنترنت والتي ستكون وسيطا يطوي بقية الوسائط الأخرى بداخله، فقد انعكس أثر هذه التطورات التكنولوجية على بقية قنوات الإعلام (صحافة، إذاعة، تلفزيون)، كما انعكس أيضا على طبيعة العلاقات التي تربط بين منتج الرسالة وموزعها ومتلقيها فقد انكمش العالم زمانا ومكانا وسقطت الحواجز بين القريب والبعيد.

2-العامل الاقتصادي المتمثل في عولمة الاقتصاد وما يتطلبه من إرساع حركة السلع ورؤوس الأموال وهو ما يتطلب بدوره الإرساع في تدفق المعلومات وذلك لأن المعلومات سلعة اقتصادية في حد ذاتها تزيد أهميتها يوم بعد آخر، فعولمة نظم الاتصال هي وسيلة القوى الاقتصادية لعولمة الأسواق وتنمية النزعات الاستهلاكية من جانب وتوزيع سلع صناعة الثقافة من موسيقى وألعاب وبرامج تلفزيونية من جانب آخر.

¹ فهد بن عبد الرحمان الشميري: التربية الإعلامية-كيف نتعامل مع الإعلام؟-الرياض، 2010، ص ص 183-184

مصطفى يوسف كافي: مرجع سابق، ص 232

³ حسونة نسرين، مرجع سابق

3-العامل السياسي:

التمثل في الاستخدام المتزايد لوسائل الإعلام من قبل القوى السياسية بهدف إحكام قبضتها على سير الأمور والمحافظة على استقرار موازين القوى في عالم شديد الاضطراب زاحر بالصراعات والتناقضات.¹

4-العامل الإعلامي: إن نشوء المجتمع المعلوماتي مكن وسائل الإعلام الجديد من التحول من ظاهرة تقديم الخدمات الإعلامية إلى المتلقي(السلي) إلى مشاركة فاعلة ومباشرة (إيجابية) من طرف المتلقي في إطار عملية الاتصال الجماهيري مما أعطى لعناصر التركيبة الاجتماعية الفرصة في المساهمة في عملية اختيار وإعداد وتخزين ونشر وتوجيه المعلومات والاستفادة منها والمشاركة الفاعلة في إطار عملية التبادل والتفاعل والحوار داخل المجتمع الواحد أو مع المجتمعات الأخرى.²

سابعاً-المظاهر التي صاحبت الإعلام الجديد:

- كسر احتكار المؤسسات الإعلامية الكبرى.

- ظهور طبقة جديدة من الإعلاميين وأحياناً من غير المتخصصين في الإعلام إلا أنهم أصبحوا محترفين في استخدام تطبيقات الإعلام الجديد.

- ظهور منابر جديدة للحوار فقد أصبح باستطاعة أي فرد في المجتمع أن يرسل ويستقبل ويعقب ويستفسر ويتفاعل ويعقب بكل حرية وبسرعة فائقة.

- ظهور إعلام الجمهور إلى الجمهور.

- ظهور مضامين ثقافية وإعلامية جديدة.

- المشاركة في وضع الأجندة: ينجح الإعلام الجديد أحياناً في تسليط الضوء بكثافة على قضايا مسكوت عنها في الإعلام التقليدي مما يجعل هذه القضايا تشكل هاجساً للمجتمع للتفكير فيها ومناقشتها ومعالجتها.

- نشوء ظاهرة المجتمع الافتراضي والشبكات الاجتماعية: وهو مجموعة من الأشخاص يتحاورون ويتناقشون لأغراض مهنية أو ثقافية وما يميز العلاقات أنها غير متزامنة بالضرورة وقد يكون المجتمع الافتراضي أكثر قوة وفاعلية من المجتمع الحقيقي.

- تفتتت الجماهير: مع التعدد الهائل والتنوع الكبير الذي لم يسبق له مثيل في التاريخ فقد بدأ الجمهور يتفتت إلى مجموعات صغيرة بدلا من حالة الجماهير العريضة لوسائل الإعلام التقليدية وهكذا انتقل الإعلام إلى مرحلة الإعلام الفئوي والإعلام المتخصص.³

¹سميرة شيخاني: مرجع سابق، ص 443-444

²سلام خطاب الناصري: وسائل الإعلام الجديد والوعي السياسي، مجلة الباحث الإعلامي، عدد 30، قسم الإعلام،

كلية الآداب، جامعة تكريت، مرجع سابق ص 153

³فهد بن عبد الرحمان الشميمري، مرجع سابق، ص 186

ثامنا-تأثيرات وهيمنة الإعلام الجديد:

يرى جيرار تيري أن الثورة ستشهد نسقا أوسع لأن التكنولوجيات تتطور هي الأخرى بخطى أكبر مما كان عليه الأمر قبل قرن من الزمن، ومن هذا المنطلق فإنها ستغير بشكل جذري الهياكل الاقتصادية وأنماط التنظيم والإنتاج وقدرة الأفراد على الوصول إلى المعرفة والترفيه وأساليب العمل والعلاقات الاجتماعية.¹

ولقد لفت الأوروبيون الانتباه إلى خطورة الهيمنة الثقافية لوسائل الإعلام العابرة للحدود والتي ستمش الثقافات الوطنية وتمحو الهويات الثقافية وتنمط العقول والثقافات، لكن رغم ذلك يوجد من هم متفائلون مثل سارج ريقورد الذي يقول: "إن ما يدعو للدهشة في المقام الأول هو صمود الخصوصيات الثقافية كما يمكن أن يستشف من خلال لهجة ولون الشبكات التلفزيونية حتى وإن أعدت في معظمها انطلاقا من نفس الأنماط البرمجية وذلك بالرغم من الآثار الناجمة عن تنميط المنتجات وتوحيدها بفعل ظاهرة التحرير العابرة للحدود".

ويلخص سارج كوربي مزايا ونقائص الأنترنت قائلا: "فضاء جديد، أدوات جديدة، تنظيم غير مألوف للمعلومات، ومنطق جديد للبحث، فممارسات جديدة للاتصال.... كل هذا يكفي لزعة الاستقرار خاصة وأن التحكم في هذا الفضاء يفرض مواجهة التقنية وهذه الإعلاميات الملعونة".²

يصنف ديفيد وواين الإعلام الجديد ضمن حالتين جديد مقابل قديم أو بين التماثلية والرقمية أو مرحلة الأنترنت ومرحلة ما قبل الأنترنت وهكذا بحيث يصنفان الإعلام الجديد وفق ثلاث أنواع هي:

- الإعلام الجديد بتكنولوجيا قديمة ويشمل الأشكال الصحفية في الإذاعة والتلفزيون والصحف.

- الإعلام الجديد بتكنولوجيا جديدة وتمثله جميع الوسائل التي نعايشها الآن والتي تعمل على منضدة الكمبيوتر وعلى رأسها شبكة الأنترنت.

- الإعلام الجديد بتكنولوجيا مختلطة: وهنا تزول الفوارق بين القديم والجديد فالعديد من الصحف الكبرى لديها مواقع ضخمة على شبكة الأنترنت وتتواصل برامج التلفزيون مع الجمهور بأدوات الإعلام الجديد وهكذا.

فيما يرى فيدلر أن أساس التغير الجذري الذي تشهده حياتنا المعاصرة في ظل وسائل الإعلام الجديدة تتحدد بالظواهر الآتية:

- تعايش وتطور مشترك للأشكال الإعلامية القديمة والجديدة.

- تغير جذري متدرج للأشكال الإعلامية من القديمة إلى الجديدة.

- انتشار السمات السائدة في الأشكال الإعلامية المختلفة بين بعضها البعض.

- بقاء أشكال إعلامية ومؤسسات في بيئات متغيرة.

- ظهور الاستحقاقات والحاجات الموضوعية لتبني أجهزة الاعلام الجديدة.

¹رضا نجار، جمال الدين ناجي: تكنولوجيات المعلومات والاتصال الفرص الجديدة المتاحة لوسائل الإعلام بالمغرب العربي، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الإيسيسكو)، الجولة الثانية للقممة العالمية لمجتمع المعلومات، تونس، 2005، صص 21-37-38

²رضا نجار، جمال الدين ناجي، المرجع السابق، ص 110

وطبقا ل(فيدلر) فإن أهم ثلاث أدوات للتغير الجذري في مستحدثات الإعلام الجديد عبر مراحل تطور الاتصال الإنساني هي اللغة المنطوقة والمكتوبة ومن ثم اللغة الرقمية التي مكنت من عملية الاتصال بين الآلة والإنسان.¹

وفي ظل استخدام وسائل الإعلام الجديد أصبح الطريق سهلا وسريعا للوصول إلى المعلومات وهو ما عادت نتائجه على العملية الاتصالية في ثلاث جوانب هي:

- إن الطريق السريع للمعلومات مد المجال الاتصالي بوسائل إعلام جديدة وبمزيد من الخيارات الاتصالية وهو ما عمل على زيادة البدائل المطروحة أمام المتلقين.

- وقد تميز بأنه تفاعلي إذ أتاح لمستعمليه مزيدا من التحكم في المعلومات وتبادلها.

- خلق الطريق السريع للمعلومات وسائل ربط بعيدة للأنشطة الشخصية كل من مكانه.²

تاسعا- ثورة الإعلام الجديد: الجديد يولد من أحشاء القديم:

في العادة توجد عند الإنسان رغبة في المحافظة على القديم لأن التغيير يكون عادة مصحوبا بعدة تنازلات وربما تضحيات وخسارة لبعض المكاسب التي اعتاد الفرد على التعايش معها إذن فالجديد يكون عادة غامضا وغير معروفة ملامحه النهائية لذلك نصادره ونخشاه، هكذا بين الرغبة في المحافظة على التقليدي لأننا نعرفه وتعودنا عليه، وسعي لتجنب الجديد لأنه مجهول يعيش المشهد الإعلامي والاتصالي الدولي حالة من التجاذب المني والفكري والاقتصادي بين إعلام تقليدي محافظ وإعلام جديد ثوري وبديل، والجديد في الإعلام الجديد هو زوايا جديدة في حياة البشر لم يتطرق لها الإعلام التقليدي أو ليس باستطاعته التطرق إليها ومعالجتها بحكم وهن التقنية أو السياقات، وهو ما يجعل منه بالفعل تقليديا في مقارنتنا له بالإعلام الجديد الذي بات يحتل هوامش لم يعد الإعلام التقليدي قادرا على الولوج إليها. فمشاركة المتلقي في عملية النشر، ومقدرته على التفاعل مع المحتويات الإعلامية، وإنتاج المعلومة والتي قد ترتقي في بعض الأحيان إلى قيمة الخبر الذي يأتي به الصحفي هي كلها مناطق كانت محظورة على الإعلام التقليدي مجسدا في الصحافة المكتوبة والإذاعة والتلفزيون لا يجب علينا أن نتوقف كثيرا عند مصطلح القديم أو الجديد لأنه وبكل بساطة فإن القديم وفي فترة تاريخية ما وضمن سياق محدد كان جديدا وأن الجديد الذي نحن بصدد البحث فيه والتمهيل بمزاياه سيصبح يوما ما قديما، إن ميلاد مصطلح جديد هو الإعلام التقليدي الجديد، تقليدي في احترامه للرأي العام والمصدقية والخصوصية والتأكد من الخبر وجديد باستعماله حوامل رقمية وتبنيه للتفاعلية ولحضور المتلقي في عمليات النشر والتحرر من أسر تكنولوجيا الإعلام التقليدي، وعلى هذا الأساس فإن الجديد في الإعلام الجديد يولد من أحشاء القديم في الإعلام التقليدي.

ويمثل تعدد الحوامل والأوعية البائنة للمضامين الإعلامية حالة من الرشد والنضج التي باتت تكنولوجيايات الاتصال تعيشها منذ بدايتها الأولى مع مطبعة يوحناغوتنبرغ، إنها حالة من الاندماج لثلاثة اتجاهات هي نضج وتطور بنية الشبكات اللاسلكية، والاتجاه نحو مزيد من تصغير الأوعية الاتصالية حتى تكون في متناول الجميع، وأخيرا قابلية تلك الأوعية للحمل والتنقل ودخولها إلى معترك الاستعمال الأسري اليومي وبشكل متسارع، ويبدو الآن أن سوق الاتصالات أصبحت قبل أي وقت مضى

¹سلام خطاب الناصري، مرجع سابق، ص 151-152

²انتصار إبراهيم عبد الرزاق، صفد حسام الساموك: الإعلام الجديد. تطور الأداء والوسيلة والوظيفة، إشراف موسى جواد الموسوي، الدار الجامعية للطباعة والنشر والترجمة، الطبعة الإلكترونية الأولى، جامعة بغداد، سلسلة مكتبة الإعلام والمجتمع، بغداد، 2011، ص 22

مستعدة لاستقبال كل هذا الفائض من الاستخدامات اليومية للناس وهو ما جعل ثورة الاتصالات تحاول أن تواكب ثورة المضامين والاستخدامات .

وفي ستينات القرن الماضي بدأ الباحث الكندي في علوم الاتصال "مارشال ماكلوهان" يضع لبنات نظريته الإعلامية الحديثة القائلة بأن وسائل الإعلام ما هي إلا امتداد تكنولوجي للإنسان وحواسه، وقد فسر ذلك في كتابه الشهير "كيف نفهم وسائل الإعلام" منذ ذلك التاريخ وتكنولوجيات الاتصال تتسارع محدثة حالة من النمذجة الكونية للمجتمعات من خلال ثقافة إعلامية باتت تعرف بالقرية الكونية حسب المقولة الشهيرة لماكلوهان. لقد كان هذا الأخير من الأوائل الذين تحدثوا عن اختفاء ثقافة الإعلام المكتوب في مواجهة ثقافة الإعلام التكنولوجي، لكنه ربما لم يكن يتوقع إلى أية درجة سيكون الرقعي مزعجا لوسائل الإعلام وكيف سيدفعها إلى مراجعة أدوارها وتموقعها.

قد يذهب البعض إلى اعتبار هذا الاستشهاد بماكلوهان احتفاء بالحمية التقنية لكن بالفعل منذ متى لم يكن للتقنية فعل حتي على الإنسان؟ كما أن تلك التقنية تخضع بدورها إلى حتمية أخرى سوسيولوجية تتمثل في الاستخدامات الفردية والاستعمالات الجماعية لتحديث حالة من التمثلات قد تصل حد التملك إذن، وراء كل حتمية تقنية حتمية اجتماعية، وحرى بنا تتبع مخرجات تزاوج التكنولوجيا مع حاجات الإنسان وهو ما ينتظر الباحثين المهتمين بالإعلام الاجتماعي وشبكاته بحكم أن وراء كل استخدام تعترضنا التقنية لكن في هيئة تطبيقات وبرامج بسيطة تمكن نفس المحتوى من عبور أكثر من محمل إعلامي، فالإعلام الجديد هو في الأصل من فعل الإنسان وليس من فعل التقنية التي لا قيمة لها إن لم يستخدمها الإنسان وبشكل جماعي ليكون أكثر تحررا من هيمنة المحيط الخارجي، وقد حسم هذا الجدل فرنسيس بال عندما قال: "إن وسائل الاتصال، تتخذ قيمتها من حقل استخدامها فالتقنية لا تفرض علينا شيئا، فهي تقترح والإنسان يتدبر الأمر أو يعيد تركيبها، ويتميز مصير وسيلة الاتصال عن مصير غيرها من التقنيات، بأنه يتعرض للحوادث ويتلقى تشعبات معينة وغالبا ما يتغير اتجاهه وعليه فإن وسائل الإعلام تفاجئنا على الدوام ذلك أن استخداماتها نادرا ما تتطابق مع ما صممه مخترعوها"¹.

عاشرا-بين الإعلام الجديد والإعلام التقليدي:

1-مساحات الصراع والمنافسة:

تغيرت نظم الاتصال الجماهيري والمفاهيم الإعلامية مع تدفق التقنيات الاتصالية الجديدة، كما أجبرت الوسائل التقليدية على التكيف مع المتغيرات التي فرضتها شبكة الانترنت، ومن أهم المساحات الدالة على الصراع والمنافسة مايلي:

أ-مصادقية المادة الإعلامية: إذ أن تدفق هذه المادة عبر أجهزة إلكترونية ومباشرة يثير قضية المصدر الأولي والحقيقي لهذه المادة، ومدى مصداقيته ومدى التحوير والتعديل والتشويه والقص والنسخ الذي يحدث للمادة الإعلامية، كما أن سهولة الوصول لمصادر المعلومات أبعدت الإعلامي عن الميدان، فصار المراسل يكتفي بما ينقله غيره من مصادر قد لا تكون محل ثقة أصلا.

ب-مصدرية المادة الإعلامية: فقد أتاحت وسائط الإعلام الجديد فرصا كغزارة مصدر المعلومات وفي سرعة نقلها أو استخدامها مما انعكس على أساليب جمع وإنتاج المعلومات وتوزيعها.

¹ <https://studies.aljazeera.net/ar/mediastudies/0327082425295.html> نقلنا عن الموقع :

ت-موضوعية المادة الإعلامية: إن تنوع وزيادة المصادر المتاحة يساعد على توفير مناخ إبداعي وإنتاجي لرسالة أكثر موضوعية مما يتيح مساحة أكبر أمام وجهات النظر، ففي الوسائل التقليدية القائمون على إعداد الرسالة الإعلامية لم يعودوا يلتقون إلا نادرا فغاب تلاقح الأفكار بين الصحفيين ورئيس التحرير ومسؤول البرنامج وصارت فئة قليلة مسيرة وبيدها الصلاحيات.¹

2-العلاقة بين الإعلام الجديد والإعلام التقليدي:

أ-هناك منافسة شديدة وضاربة بين الإعلام الجديد والإعلام التقليدي.

ب-هناك أرقام مؤكدة حول انحسار متابعي وسائل الإعلام التقليدي وازدياد مستخدمي الإعلام الجديد في المجال الصحفي.

ت-أخذت بعض وسائل الإعلام التقليدي تعيد تكوين وبناء ذاتها لتندمج في الإعلام الجديد وتكون جزء منه.²

3-الفرق بين الإعلام الجديد والإعلام التقليدي:

ناقش ماكويل نقاط المقاربة بين الإعلام الجديد والإعلام القديم من أربع جوانب رئيسية هي:

- من حيث النفوذ وعدم التكافؤ: إذ يختلف الإعلام الجديد عن الإعلام التقليدي بأنه أكثر انفتاحا وأقل احتكارا، فالوصول إلى الإعلام الجديد أسهل وأسرع من التقليدي كما أن تدفق وحركة المعلومات في الإعلام الجديد تكون بكل الاتجاهات سواء في إرسالها أو استقبالها كما أن الحكومات لا تتحكم بالإنترنت ولا تضع لها التشريعات مثل الإعلام التقليدي.

- من حيث التلاحم الاجتماعي والهوية الثقافية: بما أن هناك مستخدمين كثير للإعلام الجديد ذوو هويات وثقافات متنوعة فإنه سيساهم بذلك في ظهور علاقات اجتماعية كثيرة ومتنوعة وتشكيل شبكات من الأفراد تربطهم أهداف واهتمامات مشتركة وهو الأمر الذي لم يكن سانحا سابقا، فكان الإعلام التقليدي يخاطب الحاجة إلى التلاحم وتعزيز الهوية من خلال منظور الدولة الواحدة التي يحدها نطاق جغرافي محدد، أما في عصر الاعلام الجديد فالهوية والاهتمام الثقافي يتجاوز حدود الدولة الواحدة بسهولة.

- من حيث القدرة على إحداث التغييرات الاجتماعية والمساهمة في مشاريع التنمية: من خلال النظرة التقليدية فإن حملات التنمية والتغير الاجتماعي تحتاج إلى تخطيط مركزي وتنظيم ذو اتجاه واحد ومجهودات جماعية مركزية بالإضافة إلى ميزانيات ضخمة وهذه الخصائص لا نجدها في الإعلام الجديد والذي يغلب عليه طابع اللامركزية ويعتمد على المجهودات الفردية أو الجماعية المصغرة ولكن أدوات ومضامين الإعلام الجديد قد تتفوق في هذا المجال نظرا لتنوعها وجاذبيتها وتميزها بالتفاعلية كما أن الجمهور يتفاعل معها بطريقة اختيارية أو تطوعية .

- التعامل مع المكان والزمان: فيما يتعلق بتخطي حاجزي الزمان والمكان فإن الإعلام التقليدي نجح في تخطي حاجز المكان إذ أن التلفزيون يصل إلى أي منطقة في العالم بالبحث العي عبر الأقمار الصناعية ولكن انتشار الإعلام الجديد ضاعف من هذه القدرة وخفف من أعباء الإرسال التقليدي الذي يتطلب تجهيزات ضخمة كما أن الإعلام الجديد تحرر من قيود المكان التي تفرض على الإعلام التقليدي التواجد في مراكز بث محددة ومراكز استقبال محددة، أما من حيث الوقت فإن الإعلام الجديد يتفوق على الإعلام التقليدي من حيث سرعة إرسال واستقبال الرسائل الإعلامية بطرق متعددة منها مواقع مخصصة للأخبار

¹علاوة محمد: الاعلام الجديد -المفهوم، الخصائص، العوامل-التي تميزه عن الاعلام التقليدي وطبيعة العلاقة بينهما، مجلة الرسالة للدراسات الإعلامية، المجلد الأول، العدد الأول والثاني، جوان 2017، جامعة خنشلة، ص ص182-183

²فهد بن عبد الرحمان الشميمري، مرجع سابق، ص 184

ومواقع الشبكات الاجتماعية ومواقع المحادثات والدرشة كما أن أدوات الاعلام الجديد توفر خاصية الأرشفة لاسترجاع المضامين من فترة زمنية سابقة.¹

خاتمة:

تعددت وسائل الإعلام وتنوعت إلى أن وصلت إلى أوج تطورها باختراع الأنترنت، فظهور الإعلام الجديد الذي يعد حدثاً هاماً غير تاريخ البشرية و مجريات الأحداث، فانتهى بذلك احتكار الدول لوسائل الإعلام والتفرد بتوجيه الأخبار التي تخدم بعض النخب، وتحولت عقلية المواطن السلبية تجاه ما يبث وينشر من أخبار، فغيرت هذه الوسائل التكنولوجية كل نواحي الحياة فوسائل الإعلام هي مصدر المعلومات، خاصة وأن الإعلام الجديد إعلام متعدد الوسائط يؤدي أدواراً لا يستطيع الإعلام التقليدي تأديتها، فهو يشكل مجتمع متفاعل يتبادل فيه أعضاء الخدمات والمصالح، فحقق بذلك قفزة نوعية في عصرنا فأزال حواجز الزمان والمكان، بيد أنه قد يعيبه بعض السلبيات كضعف ضوابط السيطرة على عدم المساس بالقيم الدينية والثقافية للمجتمع، وصعوبة الوثوق أو التحقق من صحة ومصداقية المعلومات.

قائمة المراجع:

1. محمد جاسم فليحي الموسوي: نظريات الاتصال والإعلام الجماهيري (مقرر في الفصل الثاني مرحلة ماجستير)، الأكاديمية العربية المفتوحة في الدنمارك، كلية الآداب والتربية، قسم الإعلام والاتصال، 2002.
2. صاحبي صبيحة: اتجاهات الشباب الجزائري نحو مصادر الأخبار بين الإعلام التقليدي والإعلام الجديد-دراسة ميدانية على عينة من طلبة جامعة العربي بن مهيدي أم البواقي-إشراف خلالفة زينب، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر تخصص اتصال وعلاقات عامة، الجزائر، 2017.
3. شيخاني سميرة: الإعلام الجديد في عصر المعلومات، مجلة جامعة دمشق، المجلد 26، العدد 1-2، قسم الإعلام، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2010.

¹بن عبو وليد، مرجع سابق، ص ص 39-41

4. سميثي وداد: وسائل الإعلام الجديد أي تأثير؟ إلى أي مدى؟ مقارنة تحليلية متعددة الأبعاد، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد 21، جامعة أم البواقي، الجزائر، ديسمبر 2015.
5. بن عبو وليد: الإعلام الجديد، المفهوم، المداخل النظرية، نظرة في الخصائص والعوامل، مجلة الراصد العلمي، المجلد 7، العدد 1، جامعة وهران 1، أحمد بن بلة، الجزائر، مارس 2020.
6. مها فالح ساق الله: ماهية الإعلام الجديد (ضمن مساق موضوع خاص في برنامج ماجستير الصحافة)، إشراف أحمد عربي الترك، كلية الآداب، قسم الصحافة والإعلام، الدراسات العليا، الجامعة الإسلامية، غزة.
7. http://mahasaqallah.blogspot.com/blog-post_3286.html نقلا عن الموقع بتاريخ 2020/8/19 الساعة 23:25
8. علي خليل شقرة: الاعلام الجديد (شبكات التواصل الاجتماعي)، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، 2014.
9. نسرين حسونة: نقلا عن الموقع: <https://nisreenhassouna.wordpress.com> بتاريخ 2020/8/20 الساعة 22:15.
10. محمد بن هلال: الاعلام الجديد ورهان تطوير الممارسة السياسية تحليل لاهم النظريات والاتجاهات العالمية والعربية، اعداد مركز دراسات الوحدة، سلسلة كتب المستقبل العربي، العدد 69، لبنان.
11. رحيمة الطيب عيساني: الصراع والتكامل بين الاعلام الجديد والتقليدي، مجلة الباحث الإعلامي، كلية الاتصال لجامعة الشارقة، العدد 20، 2013.
12. مصطفى يوسف كافي: الاعلام التفاعلي، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، 2016.
13. فهد بن عبد الرحمان الشميمري: التربية الإعلامية-كيف نتعامل مع الاعلام؟-الرياض، 2010.
14. سلام خطاب الناصري: وسائل الاعلام الجديد والوعي السياسي لدى الشباب، مجلة الباحث الإعلامي، العدد 30، قسم الإعلام، كلية الآداب، جامعة تكريت.
15. رضا نجار، جمال الدين ناجي: تكنولوجيات المعلومات والاتصال الفرص الجديدة المتاحة لوسائل الإعلام بالمغرب العربي، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الإيسيسكو)، الجولة الثانية للقممة العالمية لمجتمع المعلومات، تونس، نوفمبر 2005.
16. انتصار إبراهيم عبد الرزاق، صفا حسام الساموك: الإعلام الجديد. تطور الأداء والوسيلة والوظيفة، إشراف موسى جواد الموسوي، الدار الجامعية للطباعة والنشر والترجمة، الطبعة الإلكترونية الأولى، جامعة بغداد، سلسلة مكتبة الإعلام والمجتمع، بغداد، 2011.
17. <https://studies.aljazeera.net/ar/mediastudies/0327082425295.html> بتاريخ 2020/8/20 الساعة 23:00
18. علاوة محمد: الاعلام الجديد -المفهوم، الخصائص، العوامل- التي تميزه عن الاعلام التقليدي وطبيعة العلاقة بينهما، مجلة الرسالة للدراسات الإعلامية، المجلد الأول، العدد الأول، الثاني، جوان 2017، جامعة خنشلة.



جميع الحقوق محفوظة
© مركز جيل البحث العلمي